أوبة

اسم الكتاب: **أوبة**

اسم المؤلف: **إيهاب عبد الرحيم**

تدقيق لغوي: **عبد الفتاح السيد**

تصميم الغلاف: **ضياء إبراهيم**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٦٢**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٤٣**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

إيهاب عبد الرحيم

أوبة

إيهار
للنشر و التوزيع

إهداء إلى

الـــذين رحلـــوا عـــن دنيانـــا فـــي شـــموخ وكبريـــاء، وفارقونـــا علـــى أمـــل أن نلقـــاهم في جنات النعيم .

إلـــى الـــذي لـــم ألقـــه فـــي الـــدنيا.. وأتمنـــى لقاءه في الجنة .

الكاتب "محمد حسن خليفة"

إلي البطل شهيد قوات أمن أسيوط

المجند يحي عاطف

إلى روحكما السلام.

الفراق

في أحد المنازل المطلية باللون الأصفر الأقرب للكناري، يجلس نورالدين وزوجته على المائدة لتناول وجبة الغداء.

- ما رأيك أن نذهب للغردقة بدلا من الإسكندرية يا نورالدين؟
- أعرف شغفك للغردقة منذ الخطوبة. نظرت له، وهي تلوي فمها امتعاضا. فقال ضاحكا
- ما رأيك في شرم الشيخ. بنبرة حزينة.
- لماذا لا نذهب للغردقة؟
- أخشي مشقة السفر على يوسف. ضحكت وهي تضع يدها على فمها، وقالت
- يوسف أم تخشى على نفسك. بعد أن شبع، وملأ معدته، نهض من كرسيه، وقال وهو يملأ فمه بالطعام

- عندما يعود يوسف من المدرسة سنحسم وجهتنا. تعجبت من قوله، وقالت متسائلة وماذا سيفعل وجود يوسف؟. طلب منها إعداد كوبا من الشاي؛ لكي يوضح لها دور يوسف. راحت تعد الشاي، وهي تضحك، وتقول له بصوت يبتعد كلما اقتربت إلي المطبخ
- متي ستكبر؟ أتريد الشاي مقابل شرحك دور يوسف؟. فاجأها، وهو يحتضنها من الخلف، وقال بدلال
- لا أريد أن أكبر مع طفلتي. استدارت، وقالت هامسة
- بحبك. فقال في تبرم ساخر، وهو يهرب مصطنع الخوف.
- تحبيني حقا. أمسكت بإحدى أواني الطهي؛ لكي تضربه، ولكنها لم تجده، فهرب؛ ليجلس أمام الشاشة. قدمت له الشاي، وعاودت فكرة الذهاب للغردقة مرة أخرى.
- ليس قبل أن تعترفي أني أخشى على يوسف من مشقة السفر. قالت لترضيه
- أنت لديك قدرة تستطيع بها أن تسافر إلى الصين. اعتدل من جلسته في فخر، وجعل ساقه الأيمن يعتلي الأيسر، وقال
- سنذهب للغردقة. ارتمت في حضنه تعبيرا عن شكرها لموافقته.

عاد يوسف من مدرسته ليجد والديه أمام شاشة التلفاز يحتسيان الشاي، أخبرته والدته بالسفر للغردقة إذا نجح في تجاوز الصف الأول الابتدائي، ألقى حقيبته أرضا، وراح يحتضنهم فرحا بالخبر، ثم قال سنذهب للبحر،

هزت والدته رأسها بالإيجاب ليحتضن يوسف والده مما استفز الأمر والدته، ونهضت، وهي تركله بإحدى ساقيها وإشارة بالتوعد له بعد انصراف والده، فلم تجد إلا لمعة المنتصر في عينيه، لم تستطع مقاومة الضحك واحتضنته بامتنان.

***

في الأجازة وبعد ظهور نتيجة يوسف، كان نورالدين عائد من الخارج يخفي ملامح الغيظ بعد أن تشاجر مع أحد أصحابه؛ بسبب انحيازهم الكروي، استقبلته زوجه، وبادرت بالسؤال عن حال يومه؛ لتُطمئن قلبها، فاقتصر نورالدين بإجابة دبلوماسية؛ خوفا من تحقيق يفتح، وأسئلة لا يعرف إجابتها، ونصائح لا يعمل بها قط. طلب منها إعداد كوب عصير في محاولة لتغير مجري الحديث. تحقق مراده، وبل ريقه.

فقالت والدة يوسف

- نورالدين.
- نعم يا قلبي. قالها نورالدين بدلال، ابتسمت في حياء كأنها بنت العشرين في صد غزل الشباب وقالت متسائلة متي سنذهب للغردقة؟ استعاد نورالدين غضبه وقال ملوحا بيده كما لو كان يهش ذبابة.
- الأسبوع القادم سنفكر بالأمر إن شاء الله، فقالت بيأس بالغ
- بماذا نفكر؟. فرد وهو يتنفس الصعداء

- بين شرم والغردقة. قالت محتجة وهي تلوح بيديها
- لا داعي للتفكير، نمكث بالبيت أفضل. جز نورالدين على أسنانه، وقال غاضبا سنذهب إلى شرم، ولا جدال في ذلك.
- أريني من سيذهب معك؟ قالتها وهي تنهض من مجلسها. اشتاط نورالدين غضبا بعد انصرافها فبصق جانبا، وقال بصوت عالٍ ليسمعها
- الأسبوع القادم ليس ببعيد.

وراح بأصابعه يغرز لفافة التبغ بين شفتيه، وأشعلها بقداحة فضية ماركت jeep . طرحها أرضا بعد أن استخدمها، لأنها من هداية زوجه. ظل ينفث الدخان حتى جاء يوسف ممسكا بالقداحة، فغمس تبغه في الطفاية سريعا كما اعتاد؛ خوفا على صحة ابنه، ووضع القداحة على المنضدة، وتلاهى بمداعبة يوسف حتى قرصه الجوع، فطلب من يوسف أن يخبر والدته بجوعه كأي رجل في مثل هذه المواقف، وبعد دقائق نام جائعا، ليدفع ضريبة غضبه.

بعد أسبوع كان نورالدين يتابع أحد الأفلام مع زوجه " رحمة "، ففتح نقاش حول السفر، ولكن رحمة كانت متمسكة بالغردقة، فنهض نورالدين وذهب إلى غرفته، وعاد بعد دقائق ممسكا ببرطمان من البلاستك فيه ثلاث ورقات، وسأل عن يوسف، فجاء يوسف من غرفته تاركا لعبته المفضلة.

- نعم يا أبي. أعطى يوسف البرطمان، وقال موضحا لهما

- في كل ورقة اسم بلدة، وبناءً عن اختيار يوسف سنذهب إلى واحدة منهم، حدقته رحمة وقالت محتجة

- لن أذهب معكما.

وتجادلا قليلا، ليقطع يوسف جدالهم، ويخرج ورقة ويفتحها ويريها لوالديه، لينطق نورالدين وهو ينظر لرحمة

- كما تمنيتِ الغردقة.

فرح يوسف ولكن رحمة لم تفرح فكانت تنتظر أسلوب أفضل من ذلك، فلم تجد في هذه الطريقة احتراما لرغبتها، وتركتهم في الصالة، لينظر يوسف لأبيه الذي نهض من كرسيه خلف رحمة ليصالحها، وراح يوسف يفتش في الورقتين المتبقيتين، ليجد فيهما نفس الكلمة، فتعجب وراح يجري خلفهم ليبلغ والدته بالأمر، فقال نورالدين مبررا لموقفه

- قصدت ذلك ملبيا لطلبك، وإشباع رغبتي في فعل ذلك من البداية، لم أرد مضايقتك كما تظنين، ولكن فعلت ما تريدينه بكامل إرادتي، فقط أردت مقاومة كبريائي، وعدم تنازلي عن موقفي أمامك. واختتم حديثه بحضن دافئ لرحمة وابنه الوحيد.

***

الآن تحقق حلم رحمة في الذهاب للغردقة، أعدت الحقائب، وانتظرت نورالدين ويوسف حتى عادا من الخارج، رأت الفرحة في عين يوسف وهو يحمل ثيابه الجديد. سألها نورالدين عن بعض متعلقاته فطمأنته بمراجعة ما حملته الحقائب.

- في الساعة العاشرة مساءا توجهوا إلى موقف الأتوبيس. رأت رحمة الفرحة في أعين الأطفال كما كانت مثلهم في نظر نورالدين، صعدت إلى الأتوبيس في مرح طفولي، وأصرت على الجلوس بجوار النافذة، وراحت تحلم بما ستفعله خلال الأيام المقبلة، نظرت إلى السماء من خلف الزجاج لترى النجوم. أعجبتها تلك النجوم. أحست أنها تسابقها للوصول أولا، وتسألت في نفسها هل هي فرحه كمثلها؟. وانتقلت بعينيها إلى يوسف الذي غاص في النوم. ووجدت نورالدين يتطلع في إحدى الكتب، قد أحضرها معه؛ هربا من مشقة السفر. ابتسمت وهي تتذكر ماضيها السعيد معه. وظلت تردد أعينها ما بين نورالدين والنافذة، ثم غفلت بعض الوقت لتفتح أعينها علي أول خيط من نور الصباح. نظرت للسماء فلم تجد نجوم، فهبطت بأعينها لتجد جبل على حافة الطريق، ولكنه لا يسابقها مثل النجوم، فأجزاؤه تتآكل كلما سار الأتوبيس للأمام، ولكنها أعجبت بثباته، فهو لا يذهب كما ذهبت النجوم، فكل جميل ذاهب لا محال. وبعد ساعتين من نور الصباح، دخل الأتوبيس الغردقة وهنا اشتد انتباهها لتفاصيل الشوارع، وجمال الطبيعة، ورفعت النافذة لتنعش الركاب بنسيم الهواء النقي، وتفسح لأذنيها سماع صوت تدفق الأمواج على الشط.

وبعد دقائق تسلل إلى مسامعها صوت أحد مشرفي الأتوبيس منذرا بالوصول؛ لتفيق يوسف من نومه، وتستعد للنزول.

بعد وصولهم للغردقة استقلوا تاكسي. استطاع سائق التاكسي إرشادهم لبعض المناطق السياحية، واقترح عليهم أكثر من فندق، واختار نورالدين أحدهم فتوجهوا إليه، وهم في طريقهم للفندق سيطر النعاس على نور الدين فأغفل، بينما يوسف قرصه الجوع، ولم يعد يتحمل فألح على والدته التي قامت بدورها تتحدث لدى السائق، وطلبت منه الوقوف عند أقرب دكان بقالة. وقف سائق التاكسي، وأشار إلى دكان لينزل يوسف بعد أن أخذ النقود من والدته، واختار ما يسد جوعه، ولكنه سمع صوت تصادم سيارات؛ فنظر للخلف ليجد التاكسي محطم وبجواره أتوبيس يشبه الذي رآه في الموقف بالإسماعيلية، عجز عن التحرك، وفي مشهد ثابت لما هو حوله اكتفى بمراقبة الموقف من مكانه ظل ينظر إلى التاكسي، ويراقب أبوابه، فلم تفتح، وما هي لحظات حتى تجمعت الناس، وحجبت الرؤية عنه فما كان منه إلا أن يجلس مستسلما، وفقد وعيه من شدة رهبة الموقف.

***

بعد أن وطئت أقدامهم أرض الغردقة، استقلوا تاكسي يغطيه اللون البرتقالي مع خطوط زرقاء، جلس نورالدين الدين بجوار السائق، واحتلا كل من يوسف ووالدته الكرسي الخلفي

- جميلة الغردقة .. قالها نورالدين؛ ليرد عليه السائق.
- أول مرة تزورها.

- نعم.
- سحرها وجمالها سيجلبك كل عام.

التفت نورالدين للخلف، ليجد ابتسامة رحمة، وفي عينيها فرحة انتصار الرأي، وعاد بنظره للشارع؛ ليتمتع بحسن جمالها، وأغمض عينيه من إرهاق السفر مستسلما للنعاس، راح في غفوة ليرى زوجته مرتدية ثيابا شديد البياض، راسمة على شفتيها ابتسامة يغلبها الحياء، وحولها فتيات حسناء.

نطق لسانه محدثها

- خديني معكِ. لتبتسم له، وترد في سرور
- لم يأن بعد... قالتها وانطلقت كالحصان في الماراثون، يحيطها خضار على الجانبين. ظل يهتف باسمها حتى آفاق على صوت تصادم أتوبيس بهم لتصنع حادثا مؤلما ولم يع بعدها بشيء، نقل عقبها إلى المستشفى.

***

غاب يوسف عن الحاضر المتاح تماما، فاقترب منه أحد الصيادين وحمله إلى المركب. أنامه فوق لوح خشبي وغطاه بملاءة وطلب من مساعده أن يعتني به حتى يعود، ولم يعط لمساعده فرصة للنقاش، وغادر سريعا صوب الحادثة، وصل للمنطقة فلم يجد أثر للحادث. فسأل أحد العاملين على نظافة الشط فدله على مستشفى. دلف المستشفى بخطى قلقة على مستقبل

الطفل الذي بحوزته الآن. سأل عن الحادث ليجيبه ممرض ليس بأهل للمعرفة

– البقاء لله.

– ليرد الصياد مستفهما ؟ الجميع مات !

فأومأ الممرض برأسه مؤكدا إجابته، ليقطع الأمل الذي حاول الصياد أن ينميه طيلة مسافة الطريق إلى المستشفى وينصرف والحزن يسيطر عليه. آفاق يوسف على صوت قدوم الصياد ليصدر تأوهات متقطعة والخوف يقتله. حاول الصياد تهدئته، ولم يكف عن مداعبته حتي رسم الضحكة علي شفتيه. وفي غروب الشمس قرر الصياد العودة إلى مسكنه وبصحبته يوسف دلف يوسف المسكن بنظرات متفحصة. رأى موقد غاز وسرير تعلوه ملاءة لونها أقرب إلى الأسود، كانت ذات يوم بيضاء ونافذة متعلق بها بعض الأكياس وكرسي خيزران. رغم قدم المسكن إلا أنه أحس براحة في بساطته، ابتسم الصياد لما رأته عينه في نظرات يوسف، ونام يوسف أول ليلة له بعيدا عن حضن والديه.

***

مع أذان الفجر قام الصياد حسن ومساعده للصلاة، وعقبها استعدوا للذهاب إلى رحلة صيدهم، فسأله مساعده وهم يقيمون بإحضار أدوات الصيد عن قصة هذا الطفل النائم فأخبره حسن.

– البارحة بعد أن انتهيت من بيع السمك لإحدى المطاعم على الشط، غلبني التعب، ففضلت الاستراحة لبعض الوقت، فرأيت يوسف

ينزل من التاكسي متجه إلى دكان البقالة، استطاع بمشيته الغريبة بعض الشيء جذب انتباهي، وما هي إلا لحظات حتى سمعت تصادم أتوبيس بالتاكسي. كان الموقف مريب وقدر الله كتب ليوسف العيش يتيما. وبعدها فاجأني يوسف بسقوطه أرضا فهرعت عليه وأتيت به إليك

قطع المساعد صياده بدهشة.

- يتيما !
- ذهبت إلى المستشفى، وعلمت أنه لم ينج أحد.

ضرب المساعد كف على كف وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله. فأكمل الصياد

- عند عودتي من المستشفى راودتني أفكار كثيرة والحق أني خائف عليه من ملاجئ الأيتام أو مستقبل مجهول بين أقاربه.
- وكيف سنعتني به ونحن عزاب ؟
- سيعيننا الله على ذلك ثم أردف وهو ينظر للأشياء قلبي يؤلمني عليه. حاولت البارحة الهدوء عن البكاء والحزن، وأنا أضعف منه، كنت أريد أن أبكي واحتضنه لحاجتي إليه.. وأذرفت دموعه دون استئذان ليمسحها مساعده وهو يقول
- فكيف حال هذا الطفل إذا كنت أنت بهذا الضعف؟. وختم حديثه لعله خير ونهضا إلى العمل.

كانت الشمس ترسل أول طلقة من أشعتها الدافئة والصياد حسن ومساعده عائدين لمسكنهم. ويوسف لايزال نائم في فراشه، أعد الصياد حسن الإفطار، وأيقظ يوسف وتناولا الفطار، وبعدها أخذه في رحلة نزهة إلى الشط، وظل يحدثه عن الغردقة، وسمع حكاه في محاولة لحسم مصيره المجهول. وفي نهاية اليوم اهتدى إلى بعثه لنجع حمادي في داره يؤنس زوجه، ويستكمل دراسته، وفي الأجازة يعيش معه على أرض الغردقة. عرض الأمر على مساعده فوافق الرأي، فهاتف زوجته بنجع حمادي وسرد له قصة يوسف. فقالت زوجته بنبرة المتعاطف

- لا حول ولا قوة إلا بالله. كتب له أن يعيش بقيت عمره يتيما. فقال الصياد حسن وقد غلبه خجله وحياؤه، فلم يقدر أن يصرح برغبته في إرساله خوفا على مشاعرها، فإنها لا تنجب الأطفال
- لا أعرف كيف اتصرف معه؟. فقالت زوجه بحذر شديد وفي الحقيقة أنها تشتهي ولدا تفيض عليه من حبها وحنانها وعواطفها المذخورة. فإن حسن يسافر إلى الغردقة بالشهور، وبقيت العائلة يأتون في النهار، وينصرفون في الليل. ولما شعرت بالملل طيلة اليوم وأطفال العائلة يلعبون أمامها وهي تمني النفس بطفل يلعب مثلهم، وفي الليل يبيت في حضنها، فهي تحس أنها وحيدة في الدنيا، وإن كان أفراد عائلة حسن بالعشرات ! فهي تريد أن تكون أصلا لعائلة تتفرع وتزدهر أمام عينيها فتمتلئ نفسها ببهجة.
- اعتني به جيدا حتى تهتدي إلى قرار. فقال لها بعد تردد

- أفكر في إرساله إليكِ. فقالت وهي تحاول أن تخفي تأثرها
- حقا. فقال لها ليرفع الحرج عنها
- ولكن أخاف أن يتعبك ويقلل من راحتك.

ابتسمت والدموع تسيل على وجنتيها، وقالت بصوت متماسك

- إن عبئه يسير، فأنا بحاجة إليه ليؤنس وحدتي، ويملأ الدار علي إن طال غيابك. فانشرح صدر حسن وقال لها
- سآتي به قريبا.

أنهى المكالمة مع زوجه، وهاتف أخاه الأكبر وسرد له قصة يوسف وطلب منه أن يبحث عن خطة ليقيد يوسف كي يستطيع استكمال دراسته فطمئنه أخاه الأكبر، فهو يعد من كبار رجال القرية. وهذا الأمر في المستطاع.

***

آفاق نورالدين بعد أسبوعين ليجد نفسه بين أربع جدران راقدا على سرير لحافه أبيض، وبجواره ممرضة تهتف بصوت كان قد افتقد الأمل

- يا دكتور يا دكتور.

ليأتي الطبيب في هرع فكم من نداء طلبه للنجاة!. لم يستطع نورالدين تحريك لسانه اكتفى بالنظر للطبيب والممرضة، استجاب لتعليمات الطبيب الذي أمره بالسكون، وراح في ثبات عميق .

بعد يومين من إفاقة نورالدين فتح عينيه مرة أخرى؛ ليجد ذات الممرضة الحسناء تسيطر عليها الرقة. ابتسمت له وقالت بشيء من الرقة

- حمدا لله على سلامتك. حرك نورالدين رمش عينه فهي الجزء الوحيد من جسده القادر علي الحديث، وبعد ساعة نطق لسانه بصعوبة، وسأل عن يوسف ورحمة ليطمئنه الطبيب، ويطلب منه أن يرتاح فهو في حاجة للهدوء. نظر في أعين الطبيب فلم يجد فيها الصدق، ولكن حاول أن يصدقه، وراح يتفحص في السقف الأبيض، هربا من تلك الهواجس التي كادت أن تقضي على تفكيره.

بعد تحسن حالة نورالدين واطمأن الطبيب على سلامته، قرر مصارحته بالأمر، فدلف الغرفة التي يرقد بها بشيء من التحفظ، وجعل يهيئ حديثه حتى استوى النقاش فقدر أنه الوقت الأنسب فأطلق رصاصة بلا رحمة ليتعس نورالدين في استسلام، فتعجب الطبيب من رد فعله ، لم يحسبه بهذا التهاون ، توقع صور الغضب منه والاعتراض على قدر الله .

فقال نورالدين

- كان آخر ما رأته عيني قبل الحادث. اعتدل الطبيب في جلسته. فأردف نور الدين
- رأيتها بالأبيض ولكن لم أر يوسف معها. فارتسمت علامات الجهل على وجه الطبيب، وقال بشيء من الدهشة
- نعم !! . فنظر نورالدين ناحية النافذة وهو يقول موضحا

- رأيتها في غفلتي بعد أن غلبني النعاس، رجوتها لتأخذني معها، ولكنها أبت.. وسالت دموعه على خديه. اقترب الطبيب منه، وفي يده منديلا. جفف دموعه وهو يقول في ثبات
- سبحان الحي الباقي الذي لا يموت. فقال نورالدين بحزن شديد إنا لله وإنا إليه راجعون.
- شد حيلك يا أستاذ نور، قالها الطبيب، وهو يربت على كتفه وغادر عقبها الغرفة.

***

عانا يوسف في أول أيامه، ولكنه سريعا ما تأقلم على الصياد حسن. وكان يتمتع بالساعات التي يخصصها له في إثراءه بالعلم والدين. استطاع أن يحفظ بعض الآيات القرآنية بفضل مساعد الصياد بعد الله عز وجل. وفي يوم كان يجالس الصياد حسن ومساعده جاء اتصال للصياد من نجع حمادي يخبره بإحضار يوسف لإنهاء بعض الأوراق ليلحق بالمدرسة، وبعد أن أنهى المكالمة

قال الصياد

- سنسافر إلى نجع حمادي الأسبوع القادم.

هز يوسف رأسه في طاعة، ولكن لم يستطع إخفاء أثر الحزن التي كست وجهه. فقال مساعد الصياد

- لماذا يستكمل تعليمه و طريق العلم غير مجد في هذه الحال بالذات.
رد الصياد بنبرة حادة
- لماذا ! فقال مساعده مبررا
- ما فائدة الشهادة دون عمل؟، وإذ وجد العمل يكون الراتب ضئيل.
- يا بني لا تخلط الأمور، فإذا كان الوضع بهذه الصورة فحتما سيكون حال الجاهل أتعس. ولا تأخذ شخص بعين الاعتبار، فلكل منا ظروف تحيطه و عزيمة تحركه. فعلمك بشخص متعلم وعاطل لا يمثل كل المتعلمين، كما أن التعليم لا يتمثل في الشهادة فحسب، فالآن يتطلب مهارات شخصية، وختم حديثه بمقولة العلم نور.

بينما هم يتحدثون كان يوسف يتردد بنظره بين الصياد ومساعده في محاولة لفهم ما يصل مسمعه.

***

بداية بعد النهاية

بعد أسبوع ومع خيوط الفجر الزرقاء التي تنشب في الظلماء صعد يوسف الأتوبيس برفقة الصياد حسن، وجلس بجوار النافذة، كما لو كانت عادة مورثة. قطع بهم الأتوبيس مدن مختلفة وأجواء متباينة. شاهد صخور وأشجار وسمع أصوات المارة. نزلا بموقف نجع جمادي واستقلا تاكسي، ووصلا منزل الصياد حسن. كان المنزل يقع في أرض زراعية بها بعض البيوت على مسافات متباعدة، تجاوره زاوية وأمامه ترعة، يتكون من طابقين وسطح يرعى فيه الأغنام، أما أسرة حسن تتكون من زوجة تقيم بمفردها وأخواته يقيمون بجواره على بعد أمتار من الدار، وأهل زوجه على مسافات متباعد.

رحبت زوجة الصياد " زينب " بهم، واستقبلت يوسف بالأحضان كما لو كان طفلها الغائب، وجاء الأخ الأكبر لحسن، وجلس معه في فناء الدار يتحدثان عما وصل إليه في ملف يوسف وجلسا ينتظران الإفطار، بينما

يوسف كان يتابع البط والدجاج البلدي ويستمتع بتشاجرهم، نظر الأخ الأكبر بعد أن سمع من أخيه قصة يوسف، وحزن لما مر به، وقال ليطمئن أخيه رزقه على الله، وأنا اتفقت مع أحد الموظفين في الوحدة الصحية لإنهاء كافة الأوراق، وسيصبح كل شيء على ما يرام. تناولا الفطار، وصعد يوسف الطابق العلوي تعرف على موطنه الجديد، غرفه بها سرير خشبي ودولاب ومكتب يعلوه بعض الكتب الدينية وجدران مليئة بالآيات القرآنية وصور بعض المشاهير مقصوصة بعناية من المجلات وعلى حافة النافذة كأس فخار لم ير الماء منذ أمد طويل. فتح النافذة فرأي نساء على حافة الترعة تنظف أواني الطهي، كان المشهد غريبا ولكنه لم يكترث من إرهاق السفر وغاص في النوم.

***

في اليوم التالي ذهب يوسف مع حسن للوحدة الصحية، وتم قيده وأصبح اسمه يوسف حسن بعد تعاطف الموظف سبق له معرفة قصته. كان الأمر ليس بالسهل على حسن فهو يعي جيدا أن التبني محرم في الاسلام، ولكنه نسي كل شيء بعد حضن يوسف عند خروجهم من الوحدة الصحية. وعادا حسن ويوسف إلى الدار، بينما رحل الأخ الأكبر إلى داره ليصطدم مع زوجه في معركة نشبت في محاولة دفاع علي حق الميراث مسلحة بالحجج الواقعية الصارمة. فوجدته ثابت علي موقفه، ولم يتأثر بحججها التي يراها من صنع الشيطان وطلب منها أن تكف عما يشغل تفكيرها، فأدركت أنه فهم ما ترنو إليه واعتراها الخجل، وراحت تغير من مجري

الموضوع في محاولة تصحيح موقفها، والحفاظ على صورتها أمام زوجها، فما كان منه إلا أن يجاريها ويطلب منها إعداد طعام تهفو إليه النفس.

***

بعد أن أتم شفاءه سمح له الطبيب بمغادرة المستشفى ، خرج على قدميه ونظرات الشفقة تشيعه، وألسنة الناظرين تدعو له، سار في طريق لم يعهده يوما، سمع آذان بالقرب منه، فسار على مسمعه حتى وصل مقصده، فرأت عيناه مسجدا تتقدمه لافتة مدون عليها " مسجد المينا الكبير" دلفت قدماه المسجد وهو في هول من شدة جماله. استرشد بأحد المصلين علي الميضأة، فما زاده الأمر إلا انبهارا بكل تفاصيل المسجد، توضأ واصطف مع المصليين والدموع تنثال منه. تأثر به أحد المصليين فاقترب منه في حياء، وجعل يربت علي كتفه وهو يتمتم بالدعاء له، فما كان من نورالدين إلا أن يرتمي في حضنه باكيا، ظل هكذا حتي هدأت حالته، تبادلا الحديث فعرف نورالدين أنه يعمل مساعدا لصياد واكتفي نورالدين بإخباره بمهنته " مدرس لغة إنجليزية، ومحل إقامته الإسماعيلية " وأنه أتى هنا ليحظى بإجازة ممتعة. مضيا إلى الممشى السياحي دون أن يخوض أحدهم في تفاصيل أكثر، استطاع نورالدين إخفاء حزنه وكتم سره، فالجهر بما حل به لا يفيد بشيء. وفي نهاية اليوم دعاه الرجل للمبيت طالما أنه سيغادر الغردقة غدا، فما كان من نورالدين إلا أن يتقبل الأمر. دلفا المسكن. لفت انتباهه صورة صياد يجلس علي مقدمة مركب شراعي مادا قدميه ضاغطا على عرق خشبي ملقى بعرض المركب ليحفظ توازنه في حالة الانحناء إلى الأمام والرجوع إلى الخلف مادا ساعديه وممسكا بالمجدافين ليقبلا وجه

البحر. فقال مساعد الصياد وهو يقترب من الصورة أنه الصياد حسن أفنى عمره في البحر من شدة حبه للبحر ترك أرضه في " قنا " لشقيقه .

فقال نورالدين متسائلا

- البحر يقدر كل هذه التضحية ؟ فقال مساعد الصياد وهو يسكب الماء السخن في الأكواب للبحر روح تعانق أرواحنا دون استئذان لا نملك أمامه الموافقة أو الرفض. أشعر أنه يحدثنا بموجاته، ويرسم لنا ابتساماته. في خيبتنا نقف أمامه، نتأمل موجه وهي تتجدد، فلا تتوقف موجه إلا وتبعتها أخرى كما لو كان يقول لروحنا انظري إلى موجي وتجددي مثله. في سعادتنا نلتقي بعشيقنا على رماله الذهبية، في لونه عيون النساء الجميلات، وصفاؤه يعانق السماء. في داخله غموض وعلى سطحه تسبح كل الأشياء من السفن حتى القش ..

فقال نورالدين وهو يرتشف الشاي

- تناسيت غضب أمواجه وتصارعها في الارتطام بالصخور في ماراثون آخره انتحار، كما تناسيت غدره فكم من أرواح أبرياء هربوا إليه فسكنوا قاعه للأبد!،

فقال مساعد الصياد وهو يهيئ مناخ المسكن للنوم

- للعاشق نظرة لا تعرف معنى الحياد تميل إلى المعشوق في عناد، تعارض مبادئ وقوانين الحياة لإنصافه. تري كل شيء جميل، تتغاضى عن كل قبيح وأنا عاشق للبحر. شرد نورالدين في عشقه

المفقود فقال المساعد وهو يمدد جسده على السرير تصبح على خير، وراح في ثبات عميق .

***

بعد أن اطمئن الصياد حسن على حال يوسف قرر العودة للغردقة، أعد حقيبته بينما كان يوسف يختبئ خلف الباب يراقبه والدموع ترغرغ في عينيه، لمح حسن أقدامه من تحت الباب فناداه. اقترب يوسف منه في خطوات ثقيلة واضعا رأسه أرضا؛ ليخفي ملامح الحزن. نزل حسن على ركبتيه ورفع رأس يوسف فوجد الدموع ترغرغ عينيه.

فقال

– يا للعار. تبكي كالنسوة !

سالت الدموع على وجنتيه وكأن كلامه زاد من وجعه احتضنه حسن بوجع يخالطه حنين، وقال له بنبرة مضحكة ليتخطى الموقف. تماسك يا رجل. ورجع للخلف، ونظر لعينيه لم يتحمل الدموع واحتضنه واردف.

– سنعود سويا في الأجازة بعد أن تصبح تلميذا ناجحا.

لا حاجة للعلم، دعني أعمل معك.

– كُف عن ذلك فلا قيمة للإنسان دون علم. ستصبح يوما ما ضابط أو معلم أو مرشد سياحي.

– وكيف أعيش دونك؟!

- لا تقل هذا الكلام ستألف الجلوس مع زينب، وستفرح عند لقائك بأطفال العائلة. هدأ يوسف بعض الشيء، واستمع لنصائح حسن ووعده بالنجاح وتشريفه مقابل قضاء الأجازة معه.

وفي نهاية اليوم ومع غروب الشمس جاء موعد الرحيل. احتقب حسن، وودع أخاه و زينب التي أهدته برطمانا كان به سمن ذات يوم ولكنه الآن يمتلئ بالجبنة القديمة فعلت ذاك كأي ست بيت صعيدية .. اقترب حسن من يوسف وحضنه بامتنان.

استشعر يوسف خوف مباغت أنساه ما اتفقا عليه طيلة اليوم وانفجر باكيا وقال منتحبا

- لا تتركني إذا كنت تحبني.
- أحبك لذلك أريدك أن تنير بالعلم والتربية وقنا خير من الغردقة في مثل هذا الحال، وواراه ليغادر فتشبث يوسف بيده فأمسكته زينب، ورحل حسن ونحيب يوسف يشيعه.

***

عاد حسن إلى الغردقة، ليجد الغرفة فارغة. خطر بباله أن مساعده ذهب للعمل، ولكنه رأى أدوات الصيد كما هي، لم يكترث من الأمر وراح يبحث عن طعام، فوجد رغيفين جففهم الهواء، سخنهم على الموقد وأحضر جبنة من عطايا زوجه، وبدأ يتناول الطعام، وقبل أن ينتهي من طعامه، جاء مساعده من الخارج وبعد أن سلم عليه سأله عن ما كان يشغله

خارج الدار، فأخبره بقصة ضيفه الذي بات معه وأصر علي السفر فأوصله موقف الأتوبيس، وسأله مساعده عن حال يوسف.

فقال حسن وهو يجفف فمه بأنامله

- قلبي تعلق به كأنه ابني. فقال مساعده
- ترك فراغ برحيله، كان ذا أثر بشغبة الطفولي ومرحه. فقال حسن وهو ينظر نظرة تحدي
- اسعى لتربيته وجعله شاب ذا مستقبل جيد

فقال مساعده مؤكدا قوله

- إنه يتمتع بذكاء سيجعله متفوق وسط أقرانه، سر حسن بالإشادة وطلب من مساعده إعداد كوب شاي ليختم به فطوره.

***

استيقظ نورالدين على رؤية منامه غريبة. رأى رحمة غارقة تحاول أن تستنجد به، ولكنه لم يستطع تقديم يد المساعدة؛ لأنه مقيد. اهتزت جوارحه للرؤية. ولم يجد تفسير، ولم يشغل باله فإنه لا يهتم بتفسير الأحلام. ذهب إلى الحمام، ثم أدى صلاة الضحى. وبعدها أعد قهوته

جلس في غرفة المعيشة ولفت انتباهه صورة علقت على الجدار. يرتشف قهوته، ويعاود النظر إليها، إنها صورة زفافه، يتذكر كل همسة يومها، ينتقل بنظره إلى الصورة المجاورة، يدقق النظر إليها، إنها صورة يوسف. يمر أمام عينيه شريط ذكريات تجمعه بيوسف. تنهمر دموعه.. يضع الفنجان على

المنضدة، وينظر إلى المرآة كما لو أنه يود التعرف علي ملامح وجهه التي تغيرت كثيرا، لترى عيناه كاهل. لحية كثة. وعينين منتفختين تحملان حزن السنين. يقطع انفراده طرق الباب. إنه صديقه هاني مدرس اللغة العربية الذي اعتاد زيارته في مثل هذا الوقت. استقبله كعادته دون كلام، وقدم إليه القهوة دون أن ينبس بكلمة، حدثه هاني الذي يعي جيدا مدى تعلقه بأسرته، عن أحوال التلاميذ بالمدرسة وكم هم مشتاقين لعودته!.

فقال له بنبرة حزينة

- لا أستطيع الوقوف أمامهم بتلك الحالة. ثم أردف.
- أصبحت شخصا آخر، لا أثق بنفسي، شخصا أصبح الحزن جزءا منه.

فقال هاني

- العزلة لن تجدي نفعا.
- العزلة ليست سيئة كما تظن ! فهي وطن للذين أُرهقت قلوبهم. ثم تابع منتصبا
- أنا لست مستسلم للحزن كما تظن ! أتدري كيف أستطيع التنفس من غير أسرتي؟ !! الأمر يحتاج إلى شخص قوي، لا أعلم كيف قست نفسي، ولم ترحل بعدهم حتى الآن. خطا إلى شرفته، ونظر إلى السماء وهو يتابع حديثه لا تعلم مدى كسرة قلبي حين أستيقظ من نومي فزعا فالتفت بحثا عن زوجتي ويوسف، فأتذكر أنهم رحلوا، ولا أستطيع رؤيتهم إلا في ذاكرتي. أحدثهم وأجيب بذاتي.

أشكو إليهم وحدتي، ولا أجد من يجيبني، حتى ذاتي لم تستطع الإجابة. احتضنه هاني في صمت، فلم يرَ في الحديث غير المقاومة والمزايدة في الحزن. وطلب مصاحبته للشارع، فأبى نورالدين وقال وهو يعتصر درابزين شرفته، ليس الآن يا صديقي فكيف أترك المكان المشبع بأنفاسهما ومتخم بأصواتهما وحركاتهما، فما زال عبقهما منتشرا في المكان .. فكل ما تحويه الشقة من جماد يرتبط بذكرى ... لاذ هاني بالصمت قبل أن يأخذ منه وعدا بالنزول معه إلى الشارع خلال الأيام المقبلة. ثم ودعه لتأخر الوقت، وانصرف.

***

استيقظ يوسف في صلاة الفجر على صوت زينب التي اعتادت على إيقاظه لأداء صلاة الفجر، وبعد الصلاة راحت تعد فطور الدجاج، وحين انتهت جلست مع يوسف لتلقنه بعض النصائح فاليوم هو أول يوم دراسي، تناولا الفطار وارتدى يوسف المريلة ذات اللون الأخضر منقوشة بمربعات بيضاء، وحذاء ذا لون أسود، ولم يله عن تصفيف شعره بعناية، وذهب رفقة زينب للمدرسة. دلف المدرسة بخطى ثقيلة ونفس مقبوضة فهو مغرم على ذلك، وقف في الطابور وسط التلاميذ، واستمع لنصائح مدير المدرسة التي زادت من تعاسته ورفعت شعار العودة للدار فلا فائدة بالوقوف في مثل هذا الطابور، والاستماع لذلك العجوز ولكنه نظر إلى زينب التي تجلس بعيدا منتظرا الصعود للصف لتضمن له مقعد في المقدمة فهذه عادة أولياء الأمور، وبعد أن اجلسته زينب بمقدمة الصف وأوصت عليه المدرسين، غادرت المدرسة، وعادت من حيث أتت.

أنهى يوسف أول يوم دراسي، وعاد إلى الدار بعد عناء الوحدة، فلم يقترب من أحد طيلة اليوم، ولم يعط فرصة التعرف لأقرانه، رغم تفاعله الملحوظ مع أساتذته.

استقبلته زينب وهي تطل من الشرفة تترقب مجيئه. ابتسمت عند رؤيته بالزي المدرسي والحقيبة تملأ ظهره، وعاودت ذكريات أبناء القرية في مثل هذا اليوم، وهي تنظر لهم و تتمنى أن ترزق بطفل مثلهم، فرفعت يديها إلى السماء، وشكرت الله علي عطاياه، سألت يوسف عما أخذ في المدرسة، فبدأ يقص عليها تفاصيل يومه.

***

عاد حسن لنجع حمادي في أجازته الشهرية التي اعتاد عليها. طمأنته زينب على حال يوسف، وسر عند معرفة تفوقه في الدراسة، وعند عودة يوسف من المدرسة رأى الصياد حسن أمام الدار، هرع إليه وحضنه،

فقال حسن

- كيف حال المدرسة؟. فقال يوسف بلهجة طفولية
- سمعت إنها ستهدم قريبا، وسنرتاح من الاستيقاظ مبكرا. فضحك حسن، وقال مُظهرا تطفله
- ولماذا ستهدم ؟ فقال يوسف وهو يشرح بيديه وبشيء من التأنأة
- أصبحت قديمة متهالكة، والشروخ تملأ الجدران. فضحك حسن، وقال له

– اذهب إلى أمك زينب، وخذ منها هديتك.

فرح يوسف، وفي سرعة البرق كان يقف أمام زينب يطلب منها هديته ... بينما حسن جلس أمام الترعة على جزع نخلة أهلكه الزمن رفقة البعض من أهل بلدته الذين اعتادوا الجلوس بعد شقاء وتعب العمل في الأرض الزراعية، لينفقوا بعض الوقت في الحديث، وفي النظر إلى من يأتي ومن يغرب، أو إلى النساء وهن يذهبن إلى الترعة لنظافة أواني الطهي، ويعدن منها والأواني تبرق فوق رؤوسهن.

فقال أحد الجالسين موجها حديثه لحسن

– لماذا لم يقبل يوسف على حفظ القرآن؟. وقال آخر مشجعا للفكرة

– خير قول نطقت. وقال عجوز وهو يلكزه بعصاه في كتفه في حركة لفت الانتباه

– خير إرث تورثه إياه. سر حسن بالفكرة، وقال

– والقرآن خير حافظ للمرء.

في اليوم التالي أخذ حسن بيد يوسف، وراح لقرية مجاورة بها جمعية خيرية لتحفيظ القرآن، استقبله شيخ ضرير يتربع في جلسته مرتديا عمامة بيضاء و جلباب أبيض وفوقه عباءة أقرب للرمادي، يضع على عينه نظارة سوداء، وأنامله تداعب مسبحته، سأل عن اسم الطفل وعمره، فأخبره حسن، ليمد يده أمامه كأي ضرير يريد المصافحة، قائلا أهلا بالأستاذ يوسف، فشد حسن يد يوسف؛ ليصافح شيخه ويرد التحية، واختتم اللقاء بحصول

يوسف على مصحف تخصصه الجمعية، لطلابها، بالإضافة إلى ميعاد درسه.

وفي الموعد المحدد، ارتدى يوسف أفضل ما لديه، واخترق الشوارع الهادئة قاصدا مكان الدرس، فأخفق في الوصول. أنقذه عجوز، وجده واقفا على ناصية أحد الشوارع يتعكز على عكازه، سار معه حتى أوصله. دلف يوسف مجلس الشيخ فوجده بذات العباءة، والأطفال من حوله، ولفت انتباهه هذه المرة خاتمه الفضي ذي الفص الأسود في خنصره، وبعد أن سلم عليه، واعتذر على تأخيره بضع دقائق بسب بطء العجوز، أمره الشيخ بانتظار دوره، فتكور في أقرب زاوية له، وردد ما كان يحفظه من القرآن الكريم، ليلقيه على الشيخ، ومضي الوقت ثقيل عليه حتى قاربت الساعة الرابعة إلا الربع حين ناداه الشيخ فتورك أمامه، وراح يقرأ عليه ما أخذ يردده في الدقائق الماضية، وبعد أن انتهى من قرأته أقر الشيخ عليه البدء بحفظ سورة " العلق " واختتم يومه بتحية الشيخ إليه، وعاد إلى الدار بعد أن استرشد بأحد المارة.

***

في إحدى مقاهي الإسماعيلية بشارع عبدالحكيم عامر يجلس نورالدين، واضعا رأسه على راحته، والسيجارة بين أصابعه شاردا.

أتى إليه هاني ليوقظه من شروده

- ترى كيف أنت اليوم يا صديقي ؟

- في أحسن حال يا هاني، وخفض عينيه، كما لو كان يقنع نفسه بقوله.

- لا يمكن لأحد أن يستمر في العيش بهذه الحالة انظر إلى الحياة، وأعد حساباتك مرة أخرى. فقد تخطئ في حق نفسك دون وعي. وأعلم أن الابتلاء ثوب مفصل على قدر صاحبه. نظر نورالدين إلى هاني كما لو كان اقتنع بحديثه ولكن مازالت المقاومة مستمرة بداخله.
- من أصيب في غير قلبه معافى. فترامت إلى مسمعهم ضحكة أنثوية لعلعت في الخارج، فنظر إلى هاني صديقه وانفلتت من شفتيه ضحكة رغما عنه، فضحك هاني، وهو يصيح لصبي القهوة الذي أتى حاملا نارجيلة تتوهج بجمراتها، ويتطاير منها الشرر مطقطقا، وراح هاني يصنع سحبا بدخانه، ويعبث كل منهم بهاتفه.

ثم قال هاني وهو ينظر إلى هاتفه المحمول

- ما رأيك بخوض تجربة للخليج؟
- عن أي تجربة تتحدث ؟
- انصت إلي. هز رأسه ليواصل هاني حديثه. مد هاتفه إلى هاني وقال
- هذا إعلان من قبل السفارة الكويتية عن حاجتها لمعلمين، وهذه فرصة لنا، بالإضافة إلى أنها فرصة للخروج من كبوتك.
- وهل تضمن اختيارنا، في زمن الوسائط؟
- عن أي وسائط تتحدث؟، إنها مسابقة والكفء سيحظى بها. سخر نورالدين من قوله
- إني لا أمزح ولا أهذي ولا أريد العبث.

- يا صديقي ليس بتلك السهولة.
- عليك بالسعي.
- أعدك، ولأنبئك قبل كل شيء، أن الواسطة والمال سيحسمان المسابقة.
- أمر مهين بعض الشيء أن تعتقد ذلك.
- هذا واقع يا صديقي.
- لست كعادتك، لا خفاء في ذلك.
- أتمنى ذلك.
- غدا سنذهب إلى السفارة.
- إن شاء الله. فقال هاني مازحا، وهو ينتصب
- ألا تتقن شرب النارجيلة ؟
- لماذا؟.

فأعطاه هاني النارجيلة واستأذن للمغادرة، واتفقا على المقابلة في الغد.

في اليوم التالي ذهبا سويا إلى السفارة وقدما أوراق اعتمادهما، وأخذا موعد إعلان النتيجة.

***

في نهاية العام الدراسي، وبعد نهاية الامتحانات بشهر، وبينما يوسف يلعب مع أحد أصدقائه فوق فرع شجرة يمتطيه كمرجحة، جاء عامل النظافة بالمدرسة ممسكا بورقة، ومعه طفل في العاشرة من عمره اصطحبه ليقرأ له أسماء الناجحين، فطرق العامل دار حسن، ليلمحه يوسف، ويُقبل عليه مسرعا، ومع مجيء يوسف فتحت زينب باب الدار ليبشرها العامل بنجاح يوسف، وحصوله على المركز الأول عن جدارة لم تستوعب من الفرحة، وقالت له

- انتظر قليلا، وبعد أن جاءت من الداخل، مدت يدها لتنقد العامل على تلك البشرة السارة، وأعدت شربات كجزء من مراسم الفرح ووزعتها علي الجيران والمارة بالطريق، وفي نهاية اليوم جلست مع يوسف فقالت له
- اطلب ما تتمناه، فوضع يوسف سبابته على شفتيه مستغرقا في تفكيره قبل أن ينطق لسانه بأمنتيه وقالها بلهفه
- الغردقة وعادها بوضوح وحماس الأطفال؛ وهو يحصيها على أصابع يده

أذهب إلى البحر.. المركب .. الأسماك.. الصياد حسن. فقالت زينب

- سأحققها لك، وماذا عن هديتك؟
- لا أتمنى أكثر من ذلك. اندهشت زينب من قوله، وقالت بحزم
- لا بد من جلب هدية لك، فأنت تستحقها.

- يكفيني رؤية العم حسن .فقالت زينب محدثة نفسها هذا ليس طفلا عاديا، وقبلت رأسه.

وفي اليوم التالي جاء الأخ الأصغر لزينب حامل دراجة، يتمناه أي طفل، وقال لزينب

- كما طلبتي، شكرته ونادت يوسف ليرى المفاجأة وحين رأى الدراجة، قفز من الفرحة، وحضنها، وراح يلعب بالدراجة، وتعلم القيادة بمساعدة العجلات الإضافية التي تشبه جناحي الطائرة. وبعد أسبوعين جاء حسن ليصطحبه إلى الغردقة.

***

الصدفة

بعد أن أخبرته زينب بتفوق يوسف الدراسي، أعطى الصياد حسن مساعده إجازة، ليتفرغ ليوسف، وبعد أن جاء به من نجع حمادي، حظى بأسبوع مجاني في قرية سياحية يمتلكها أحد زبائنه، تمتع يوسف بالأجواء السياحية ورؤية الأجانب، والاختلاط بهم في الألعاب المائية والحفلات الليلية، وبعد انتهاء الأسبوع عادا إلى العمل كما عاد معهم مساعد حسن، أحب يوسف رحلات الصيد، مما رآه من متعة رغم تعاطفه مع الأسماك، والحزن الطفولي على اصطيادهم، فأول يوم له كان يجلس بجانب صندوق الأسماك التي وقعت في فخ الصيد، متعاطفا معهم، يدفعه شعور الرمي بهم إلى البحر مرة أخرى، ولكن خوفه من مسهم يوقفه عن فعل ذلك ، فطرأت عليه فكرة أن يأتي بجردل مياه ويصبه في الصندوق للحفاظ على أرواحهم، فعل ذلك، وضحكات الصياد حسن ومساعده تحاوطه، وفي نهاية الرحلة ألهاه الصياد حسن كي يستطيع مساعده اقتناص الصندوق وبيعه للزبائن،

وفي مرات أخرى أوهمه بأنه يوفر لهم حياة أفضل، ظل هكذا حتى انتهت الأجازة، ويوسف يعتقد أن الأسماك يتم اصطيادها لإنقاذها من الأسماك الضخمة، ووضعها في بحر صغير لكي يروق لها العيش في سلام.

وفي آخر يوم له بالغردقة طلب يوسف من الصياد زيارة الشط اللعين الذي شهد على نهاية أسرته، فلبا حسن رغبته، ومضيا إلى الشط بعد أن ارتديا ثياب قصير يشبه السياح، كان يوسف في أبهى طفولته البريئة يتطلع إلى مكان الحادث بكتمان الألم، وأخفى الحزن على ملامحه أما حسن كان يتذمر من السير بسبب كرم أصحاب المحلات ليوسف تعبيرا عن حبهم لصيادهم المفضل، ولم يتذمر إلا حرصا على مصدر رزقهم وتخفيفا عليهم، فقد نال يوسف اللعب أشكالا وألوانا كما حظى بتناول السمك في أحد المطاعم المشهورة، ولم يكن المصريين فقط من أهدوا يوسف بل جاءت إحدى الفتيات الحسناوات التي تشير ملامحها إلى الروسية ورسمت قُبلة على خد يوسف، لم يتذمر حسن لها بل كان يمني النفس بقبلة مثلها، ولم تكتف الروسية بالقُبلة فابتاعت له كورة بلاستيكية، ودونت عليها اسم يوسف ووسطتها بقلب صغير معبرة عن إعجابها بيوسف، وودعته بقُبلة حارة ، هزت مشاعر حسن، ونشبت فيه فكرة الرجوع إلى زينب، وفي نهاية اليوم استقلا تاكسي للعودة بعد قضاء ليلة مليئة بالسعادة، ولكن لم يعرف يوسف أن فرحته بالكورة، واللعب بها في الكرسي الخلفي من التاكسي سيلقي بها خارج النافذة، ولم يستطع أن يخبر الصياد فكان المشهد يتطلب منه الصمت، والكورة تتطلع إلى الحرية والانطلاق، وهو يتابعها بنظره من الزجاج الخلفي حتى انعطفت بهم الطريق، ولم يحس

حسن بفقدانها، وبات يوسف حزين على فقدانها كتوما كعادته، وفي اليوم التالي عاد يوسف لنجع حمادي استعدادا للدراسة، ومواصلة دروس القرآن.

***

بعد انقطاع أسبوعين عن رؤية صديقه، ذهب هاني كعادة كل مساء إلى المقهى التي يألفها نورالدين سائلا عنه،

ليجيبه النادل بشيء من التذمر

- كل يوم تجيء وتسأل نفس السؤال وأجيبك ذات الإجابة التي لا ترضيك وتنصرف دون نفع.
- لم يكترث من عنف حديثه، وهم بالانصراف دون أن يبتاع شراب يرطب جوفه أو قهوة تعدل مزاجه أو نارجيلة يلقي بها غلهُ و خوفه على فقدان صاحبه لرحلة الكويت، فلم يتبق إلا القليل وتسافر البعثة، ولكنه تفاجأ بإقبال نورالدين عليه مسرورا، وقبل أن ينصب مراسم الشوق والحب الصادق سأله عن غيابه الفجائي.
- لماذا تصنع بنا هذا، أتريد معرفة مقدار حُبنا إليك ؟

ابتسم نورالدين، وصافحه، وقال بعد أن رأى في عينيه لهفه تدل على حب وخوف على سلامته

- قررت زيارة الغردقة قبل مغادرة البلاد. شعر صديقه بحاله، وطلب من النادل إحضار كوبين من الشاي، وواصل حديثه عن آخر أخبار البعثة، مغيرا مجرى الحديث، حرصا على الابتسامة في وجه صديقه
- بعد أن جاءني خبر القبول وميعاد السفر حاولت الاتصال بك فلم أسمع سوى هذا الذي أبغضه " إن الهاتف الذي تحاول الاتصال به... إلخ" فعزمت على الذهاب إلى الغردقة .

كان هاني شاردا، حاضرا بجسده غائبا بتفكيره ينظر إليه ولا يكاد يراه، يلقي السمع ولا يكاد يسمع، ففشله في اجتياز مقابلة العمل أخذ كل تفكيره وهو الآن يخفي على صاحبه، ويتساءل إلى متى سيخفي؟، وحريص كل الحرص علي نجاح رحلة صاحبه، لذا قرر كتمان خيبته، لأن صاحبه ينتظر أي عقوق في رحلته؛ ليبرر تراجعه عنها ويرضي ضميره

لوح نورالدين بيده، وهو يقول " هاني " ليفيق هاني من شروده، ويقدم الاعتذار عن سهوه فمضيا في حديثهما حتى تقدم الليل، وانصرفا.

***

وفي يوم الرحيل لم يجد نورالدين صديقه هاني كما تعاهدا، وعلم من رئيس البعثة أنه كان من المخفقين. حاول أن يعدل عن الرحيل، ولكن قد فات الأوان، ورحل دون صديقه حزينا عليه وعلى فقدان أنسه، أقلعت الطائرة ونورالدين حزينا كل الحزن، وجد في موقع التواصل الاجتماعي (WhatsApp) حلا مريحا بعض الشيء،

فأرسل إلى صديقه هاني بعد التحية

- لما كذبت يا صديقي؟، فالآن أيقنت أني رجل لا حظ له من الحياة، وضغط على سهم الإرسال، وبعد دقائق عاد لينقر بأصبعه على شاشة هاتفه

- أشعر بخنق شديد، لا أدري كيف أصفه؟، فأنا أقبلت بعد إلحاحك على ذلك السفر، وغيرت من رغبتي حتى تهيأت له كأحسن ما يتهيأ المسافر، والآن أكتب إليك من مقعدي هذا، ولا أعلم متى ستصلك رسائلي؟، فلم تتبدل تلك الساعة بالسهم لتشير إلى وصول كلماتي إليك، ولكن أستطيع أن أنبئك بقصر رحلتي، فلم أعد شغوفا بعد أن زرعت في الأمل ولم أعد بحاجة إلى تباين الأجواء طالما سأظل وحيدا منغمسا في أحزاني مفتقد نصائحك.

وعاد يكتب مرة أخرى بعد أن وصل إلى فندق الإقامة

- أحدثك من غرفتي، التي ستستضيفني ليلة قبل أن أرحل إلى " الفروانية " وها أنا أرى سهم الوصول قد ظهر، ينقصه اللون الأزرق ، أبلغك بأني تخلفت عن مائدة الطعام، فلم أشعر بحاجة إليه، لا أريد سوى العودة إليك، وإلى شرفتي التي سطرت أحزاني.

وبعد أن وصل " الفروانية " وجد رسائل واردة تنتظر القراءة من صديقه هاني

- كذبت عليك، فإني أرى هذا الكذب مباحا، وإذا أخفيت عليك شيء فما أخفيه إلا اتقاء لشر يلحق بك وإيثارا لمنفعتك ليس غير.

ووجد آخر تحمل

- كنت أريد أن أذهب معك، ولكن الواقع أقوى من أمانينا.

فكتب إليه

- أحدثك من غرفتي، فأنا أفضل الوحدة فلا رفيق سواك.

ونظر إلى الغرفة، فوجد تلك الكرة تتوسط المنضدة ، فواصل الكتابة

- لقد كذبت عليك كما كذبت أنت سابقا فلم أبلغك بأمر ذلك الرفيق، لقيتها على شط الغردقة، فأخذتها إلى الإسماعيلية، والآن هي معي في غرفتي، سأرسل إليك صورتها.

ووجه الكاميرا ناحية الكورة؛ لتظهر في شاشة هاتفه، واسم يوسف يزينها. واستكمل كتابته التي لم تنقطع.

***

بدأ اليوم كغيره من الأيام في تلك القرية، التي كانت بيوتها لا تزال تتمطأ نائمة، في ذلك الوقت من الصباح كان يوسف يتقلب في مرقده قبل صحيانه كعادته، بينما في الطرقات لاح هنا وهناك من يسحب أغنامه إلى غيطه كي تقتات مما تنبته الأرض، أو من يمتطي أتانه ذاهبا لقضاء حاجة، وأصحاب الدكاكين المتناثرة على الطريق، لم يكونوا قد استأنفوا أعمالهم اليومية، كما برز بعض العمال يحملون أدوات عملهم، وفي طريقهم للعمل.. وبعد

أن دبت الحركة في شوارعها، نشبت معركة قوية في القرية، فخرج الشقيق الأكبر لحسن لفض النزاع، كما عرف عنه، فالجميع يقدره ، بينما هو يسير وسط المعركة لتهدئة الطرفين أصيب بالخطأ برصاصة في ساقه، فسقط أرضا من شدة الألم توقفت الحركة من بعد سقوطه، وعم الصمت في المكان، كما لو كان مشهدا أراده المخرج هكذا .. قطع الصمت صريخ إحدى النسوة من أعلى دار رمادي، واجتمعت الأخصام على حمله للدار، وجاء طبيب من أهل البلدة يسعفه، وبعد أن أنهى علاجه جاء حسن ليجد شقيقه راقدا على فراشه.

أصبحت القرية في حزن ووجوم، الجميع يدعو إليه بالشفاء، يتذكرون مواقفه النبيلة .. تردد الطبيب على زيارته ، وبعد تعافيه

قال

– أرى أن الحاج يبقى في البيت لا يبرحه.

فأمن حسن على قوله، وأحس ارتياعا في فكرة تركه للغردقة. استقر حسن بنجع حمادي ليكون بجانب شقيقه، ويباشر الأرض الزراعية، وتحولت المهمة إليه وتعلقت أرضه برقبته و فوقهم أرض أخاه. جلس أخيه الأكبر في بيته راضيا مطمئنا، وعمل حسن بالأرض، وظلت تأتي إليه الناس في الدار لفض النزاع، ونصرة المظلوم، وبعد عام من تعافيه وخروجه للشارع مرة أخرى، عزم حسن على مغادرة نجع حمادي، ولكن تصدى له أخاه، واستطاع أن يقنعه بالاستقرار في نجع حمادي. وبرر له يكفيك غربة فأنا لم

أعد كما تظن، استقر هنا لأجل أن تربي طفلك أمام عينيك. فأحس حسن بسعادة عند سماع طفلك وقبل الأمر راضيا.

***

استكمل يوسف دراسته، ومرت الأيام، وأصبح في الإعدادية وكتب مجدا مجددا، استطاع أن يختم القرآن الكريم وعرف بتفوقه في الدراسة، واشتد عوده، وأصبح يقود أعمال الزراعة مع حسن، وفي الصف الثاني الإعدادي، تلقى خبر وفاة الأخ الأكبر لحسن .. توفي خلال حادث على طريق مدخل القرية الذي اشتهر بحوادثه .. نقل للمستشفى ولكن قدر الله أن تنتهي أيامه على الارض، وتذهب روحه إلى ما قدر لها.

يحكي يوسف

- عشت يوما شديد الحزن، عندما كنا عائدين من الأرض، رأينا سيارة تقف أمام الدار، والناس تحاوطها والنسوة تولول من كل صوب فهرع حسن، وتركني فوق كومة البرسيم علي ظهر الحمار، وحين اقترب حسن من الدار أفسحت له الطريق، فتباينت لي رؤية كلمات مدونة على السيارة باللون الأحمر، استطعت التنبؤ ببقيتها " كل نفس .." نعم إنها .. كل نفس ذائقة الموت. تخبط حسن بين الدار والناس، والرجال بعضهم يخبط كف على كف، ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله، وآخر يهدئ من روعه .. أذاعت المساجد خبر الوفاة، وانتصب الصوان وافترشت الكراسي استعدادا لليالي المأتم الثلاثة، وذرفت النساء الدموع الغزيرة، وبكى الرجال أحر البكاء، وعمرت المقابر

بالمشيعين، وانفض التجمع بغلق باب المقبرة وختام دعاء الشيخ وخلفه، ارتفعت أيدي المعزيين ويقولون وهم ينظرون إلى السماء " آمين .. آمين " ... وفي الليل وقفنا وسط الصوان، نهتف " شكر الله سعيكم " وانقضت أيام المأتم الثلاثة، وخيم الحزن بالدار حتى لم ينج طهي الطعام من الحزن، فحرصت زينب على ألا تطهي من الطعام الألوان التي تدل على الفرح، وهدوء البال، فللحزانى طعامهم، وللفرحين طعامهم، كأنما كان على الفم يشارك القلب في الإحساس بلوعة المصاب.

***

ضعف حسن، وأصابه المرض؛ لحزنه على أخيه، فكان له الأخ والأب، فعال يوسف هم الدار، وأسندت إليه مشقة الأرض الزراعية، ولم يقبل التفريط بشبر منها، ولم ترق له فكرة الإيجار أو الرهن رغم محاولة حسن و زينب لحرصهم الشديد على مستقبله، فكان ينفد وقته ما بين العمل وملاحقة الدروس حتى أصبح اسمه بين أهل بلدته رمزا للجد والاجتهاد، ومع مضي الأيام ازداد مرض حسن، فأصبح حبيس الفراش وزوجه حزينة على حاله، وزاد الحمل على يوسف مع مرور الأيام، وجاءت زينب بأخيها الأصغر ليرفع العبء على يوسف، وقام كما يقوم أغلب الفلاحين بزراعة القصب، وأعان يوسف في العمل، فكان يريحه ليتفرغ لدروسه، وأنهى يوسف الصف الثالث الإعدادي، والتحق بالثانوية العامة، ولم يقض بها أسبوع، ونقل ملفه إلى إحدى مدارس الثانوي الصناعي، فقدر أنه بحاجة إلى العمل، والتفرغ من الدراسة ليعين شئون الدار، ومع اقتراب

الامتحانات، اكتشف الجميع خدعته و انزعجوا من حوله، ولكن لم يستطع أحد أن يعدل تفكيره، ومع سوء إنتاج الارض عمل في أكثر من حرفه، حتي جاءته فكرة السفر.

***

طارئ

بعد سبع سنوات من الغربة عاد نورالدين إلى الإسماعيلية، عاد إلى المقهى التي كان يألفها، فلم يجد فيها ما كان يلقاه من ود وراحة، فهل تغير كل شيء من حوله، أم هو من تغير؟، ولم تعد أجواء الإسماعيلية تريحه، التقى بصديقه هاني الذي لم يقطع الاتصال بينهم يوما، وعاد إلى المدرسة مرة أخرى.

التقى بالتلاميذ في الصف، أحس بتغير أخلاقهم ، التصرفات تغيرت، كل من حوله تغير. أصبح الهاتف في أيدي الأطفال كاللعبة في أيامه، أعترف أنه لم يكن طفلا يوما ما. أخلاق الجميع في تدني، مستوي التعليم تدني، طرح على هاني ما يشغل تفكيره من تساؤلات، فلم يجد مبرر لذاك التدني، ساءت حالته النفسية، وفكر في العودة إلى الكويت، صده هاني عكس ما كان عليه من سبع سنوات، وقال مبرراته، التي لم تقنعه، ولكنه استسلم لها آملا في التطبع على الوضع الحالي.

وفي ليلة كان جالسا في شرفته ممسكا بفنجان تفوح منه راحة القهوة، يطل على الشارع، ولا يرى إلا صورة متحركة باهتة، لا يستطيع تشخيصها. يمر هاني من تحت شرفته فلمح صديقه شاردا، فحاول لفت انتباهه، فشل في المحاولة الأولى، فرماه بحصى، ليفيق هاني من شروده، لتتحول الصورة المتحركة الباهتة إلى صورة هاني مبتسما التقطت بعدسة عينه، أشار إليه بالصعود، وهاني صمم بالنزول ليريه جمال المدينة الصفراء. تجولا بالشوارع، مرا بجوار سور الاستاد.

نورالدين كل شيء انقطع في رحلتي إلا الاتصال بك، ومتابعة النادي " الإسماعيلي "

ابتسم هاني وقال

- كل شيء تغير إلا أمر واحدا.
- نظر نورالدين وتساءل عن هذا الشيء. أجاب هاني وهو يكتم ضحكته
- مازال النادي الأهلي يحصل علي الدوري.

ضحك نورالدين وقال

- أي شيء ينغص حياتي لا يتغير. ضحكا قبل أن يدعوه إلى تناول الطعام
- ما رأيك في تناول وجبة سمك

- هيا بنا. وبعد تناول الطعام، تفاجأ بالأسعار، فرد هاني وقال مداعبا في قلة حيلة

- التغيير مطلوب يا صديقي .

***

كنت جالسا على فرع شجرة أمام الترعة، مع أحد الأصدقاء، وحدثني عن عمله في الغردقة، فجئت هنا . هكذا قال يوسف لأحد رجال الأمن الذي سبق له معرفته في قريته، ويعمل بالقرية السياحية التي جاء للعمل بها، فساعده بالانضمام إلى فريق النظافة، واستلم عمله في اليوم التالي. كان العمل متعبا في بداية الأمر، ومهينا له بعض الشيء، ولكن سريعا ما تأقلم بعد أن أسقط ثوب التكبر، وارتد ثوب المجتهد، وأدرك أنها مرحلة انتقالية وليس وظيفة أبدية، عرف بالجد من بين فريقه، أحبه المشرف، ومقته زملاؤه، ورأى الحقد في أعينهم ، فكان مدللا من بينهم، وأي تدلل هذا يرونه في عامل نظافة، إنه الحقد الأعمى، والنفس السيئة، هكذا شبهم يوسف . جعل يوم أجازته الشهرية زيارة للشط، فكان يأخذ أربعة أيام أجازة في الشهر، يعمل ثلاث بضعف الأجر، ويحل ضيفا على الشط في اليوم المتبقي، يسترجع الذكريات، ما بين الحادث ويمر بقدومه مع الصياد حتى يصل إلى يومه ، يدعي لوالديه، ويقرأ ما تيسر من القرآن، ويعود للعمل في نهاية اليوم.

***

بعد قضاء ثلاث أشهر، عاد إلى نجع حمادي ليخوض امتحانات نهاية الترم الثاني . وما وجد أسهل منها، فكل شيء فيها مباح إلا الغش أمام مدير المدرسة، والحقيقة أن مذكرات المكاتب المجاورة كانت تقضي حاجته، وتكتب له تفوقا على الورق. وهذا هو المطلوب في بلدنا !

انتهت الامتحانات، وقرر يوسف الرحيل، فتمسك به حسن، وحاول إبقاءه بجواره. " الله يرزق هنا وهناك يا يوسف " .

- ونعم بالله .. و أين السعي أذن؟..
- نحن في غناء عن كل هذا،ما تجنيه الأرض يكفينا. ما عدت قانع بما تقنع به.
- لم أعد أأمن الغربة يا بني، وكأنه يلوم نفسه على إهدار عمره بعيدا عن داره.

فقال يوسف بعد أن قرأ الخوف في عينيه

- لا خوف من مكتوب، ولا خطر رأيته في عملي .. كل شيء سيكون على ما يرام.
- أحيانا الخطر يكون في البيئة المحيطة أقوى من الخطر في المعارك. لمح في وجه يوسف البلاهة، فأردف
- افعل ما شئت يا يوسف، وابتعد ما أردت ولكن لا تبتعد عن ربك.

- صمت يوسف .. أحيانا نعتقد أن الصمت أعلى صوتا، وأبلغ ... وهو في الحقيقة أبله. سافر إلى الغردقة وترك حسن و زينب وشقيقها بنجع حمادي .

***

بداية العام الدراسي الجديد، استقبل نورالدين الطلاب، وحرص على إلقاء النصائح. وفي استراحته، التقى بصديقه هاني الذي عاتبه على غياب لقائهم لأسبوعين، فأبلغه بزيارة الغردقة كعادته التي انقطعت في سفره للكويت، وعاودها في مجيئه، ولا حاجة لخوض تفاصيل أكثر ومعرفة أنه سافر في ذات الأتوبيس الذي نقل أفراد عائلته يوما، أو معرفة جلوسه على الشط ليلا ونهارا وتلاوة القرآن . أدرك هاني سبب رحلته، وقال بصوت خافت " الله يرحمهم " . ثم قال مغيرا للموضوع

- ستبقي ذكريات أول يوم دراسة وأنا طالبا محفورة في ذهني .

ابتسم نورالدين وقال ساخرا

- يعجبك قميصك الذي كان باستطاعته أن يأخذ بجوارك شخص أخر، أم حقيبتك التي كانت تكبرك في الحجم. ضحك هاني علي سخريته وتابع حديثه بذكريات ساخرة لا أجد حاجة لتوضيحها.

***

استمر يوسف في عمله، واكتسب خبرة، تجعله يتعامل مع المدراء، وكذلك النزلاء بشكل سليم. كان يوسف شغوفا في عمله عكس أقرانه، ولا أدري ما الذي يدفع عامل نظافة إلى حب وظيفته حتى الشغف؟، دعنا نرى ماذا سيصنع لنا شغف يوسف؟ ... كان ينظر إلى عامل الغرف، والتعامل مع النزلاء من قرب، وطمح أن يكون مثله، فهو حتى الآن لا يستطع إلا أن يبتسم لمن يبتسم له، أو يرد التحية فقط، تعرف علي العاملين بنظافة الغرف، وعرف ما يميزهم عن غيرهم، فالأمر بسيط، يحتاج إلى حفظ بعض المصطلحات الأجنبية، لا حاجة إلى توضيحها إلا إذا كنت تأمل في الالتحاق بتلك الوظيفة.

أتم حفظهم بعد أن ضحى بوقته وجلس مع هؤلاء العمال، وصرف بعض النقود عليهم، فاحتاج الأمر إلى بعض المشروبات والسجائر؛ ليروق لهم الجلوس معه، ويمنحوه ما يريد من معلومات.

***

في إحدى الطرقات يسير بخطا واثقة نحو باب تعلوه لافتة كتب عليها " إدارة شئون العمال " وقف أمامه، واسترجع في ذهنه ما سيلقيه بعد قليل، دخل المكتب بعد أن طرق الباب بخفة، ووصل مسمعه صوت غليظ " ادخل " . شخص جالس على كرسي متحرك ، يعطي ظهره للمكتب ووجهه للوحة تحمل صور طبيعية تتوسط الحائط، التوى كالثعبان؛ ليبرز شخصه ليوسف.

رفع يوسف يده مشيرا بتحية في ارتباك من هيبته.

- ماذا تريد؟ .. لم يرد التحية ولم يبتسم .. لا أعرف لماذا؟ .. لعل عمله يتطلب ذلك . عرفه يوسف بوظيفته، وقال مطلبه الذي جاء من أجله . فابتسم الأخير، وقال
- لماذا تريد الالتحاق بتلك الوظيفة؟، فالفرق في المرتب ليس مغري. ابتسم يوسف، بعد أن رأى ابتسامة المدير في حديثه، ويظهر أن ابتسامة المدير أتاحت له الحديث،

وقال

- الحقيقة لا أعلم ما يتقاضاه غيري، والمال ليس كل شيء في البدايات. ابتسم المدير في حنان زائف ومكر واضح، وقال
- ولكن الجميع يعمل لأجل المال. صمت يوسف ولم يرد ، خوفا من إحداث سوء تفاهم، فتابع المدير متسائلا
- تعرف متطلبات الوظيفة ؟ فقال يوسف بثبات
- نعم .. وراح يلقي عليه ما يعرفه. أعجب المدير بعقليته وقال ردا علي سؤاله السابق
- لا ضرر في أن نلتحق بوظيفة تروق لنا بجانب الناحية المادية " فالمال وحده لا شيء" . فقال يوسف متسائلا
- إذن ، تم قبولي ! ، فأومأ المدير مجيبا

– نعم ولكن مع بداية الشهر القادم . أطلق يوسف ابتسامة توحي إلى سعادة وفرح، وانصرف بعد انتهاء اللقاء .

مع بداية الشهر، استلم يوسف وظيفته، أو ترقيته كما يجب أن نقول، وأثبت جدارته، وكان هناك فرق بين الوضعين، فالآن تقرب من النزلاء واتيح الحديث معهم، كون صداقات من بينهم، ووصل الأمر إلى الذهاب معهم في سهراتهم وحفلاتهم الليلية. في ليلة رأس السنة، دعاه أحد النزلاء إلى سهرة في إحدى الملاهي الليلية، فلبى دعوته. ارتدى أفضل ما عنده ومع دنو النهار وحلول الليل، أقبلا على سهرتهما، الأمر كان مختلفا على مشاعره، ولم يعط للأمر أهمية ولا التفكير في وضعه حاليا، فالشغف ما زال يلاحقه، ويتجدد مع رؤيته لكل جديد، وهذا ما تحقق في حفلته، فجلوسه وسط الأجانب، لم يكن هو الأمر الذي يشغله. لفت نظره العاملين بالملهى وبالتحديد النادل الذي كان يبرز مهارته في مسك المشروبات، وصنع الكوكتيلات أمامهم، وتمنى أن يكون مثله، لم يفكر في " الملهى " ولم يهتم بحلال أو حرام، والظاهر أن البيئة أثرت عليه وتحقق خوف حسن، ولكنه لم يع بذلك، فالإنسان ليس بالقاضي الجيد على ذاته، تبرير الأخطاء غريزة لدينا، ولا يراها إلا غيرنا، فنحن ننظر لأنفسنا نظرة أقرب إلى الملائكة، وصاحب الكارثة هو آخر من يعلم.

***

تتلمذ على يديه العديد من أبناء الإسماعيلية، يشهد له الجميع بحسن خلقه، وحسن تعامله مع تلاميذه .. كان يساعد التلاميذ في النواحي المادية فإذا وجد تلميذ توحى ثيابه بالفقر، ينظر إلى أدواته ويبتاع له ما ينقصه، ويعطيها له علي هيئه مسابقة، فبهذا يعطيه ما ينقصه بالإضافة لشعوره بالتفوق... فتقديم الأدوات يعد من النواحي المادية وشعوره بالتفوق ضمن النواحي الإنسانية. يفعل ذلك دون علم زملائه. استمر في ذلك حتى حدثت واقعة أحد زملائه مع طالب يعيد استخدام كراسات العام الماضي، فعلم بأن المدرس عاقب التلميذ وألزمه بشراء كراسات جديدة، إما هذا أو عدم الحضور له. فحينها جلب ما يحتاجه الطالب وأهداها لوالده وعاتب زميله

وقال له

- لا حاجة للضغط علي التلاميذ ، فاستخدامه للأدوات القديمة يدل على شيء واحد، وهو قلة الإمكانيات فلا داعي للمزايدة علي الأهل. بدأ نورالدين في الدروس الخصوصية وهو يمقتها فدائما يقول " العلم يؤتى ولا يأتي " لبى طلب أسرة أحد التلاميذ كان ضعيف المستوي، ولم يأخذ مالا. مبررا بأن العلم من الله وإلى الله، فلا حاجة لمص دماء الأهل، وتحميلهم أعباء إضافية. أصبح المال لغة أساسية للتعليم. ويقول لصديقه هاني الذي احتار الأخير في وصفه.
- إذا كنت أفكر في جني المال لما أتيت مصر مرة أخرى، ففي الكويت أعطى درس بثمن راتب شهر هنا .. أنا رجل لا أجيد لغة المال، أو لا

أضع المال في المستوي الأول، هناك دوافع أخرى تجعلني أخلص في عملي، وأهتم بطلابي. إخراج تلميذ نابغ من تحت يدي يفيد المجتمع يكفي لمكافأتي.

***

النصف الثاني

بعد أن أنهى يوسف دراسته، بحصوله على دبلوم صناعي، أحث حسن علي زواجه فالآن طاب عوده، وحان موعد الزواج، وبقيا البحث عن رفيقة عمره. تناقش مع زينب، فاقترحت عليه، بعض الفتيات، وعند مجيء يوسف من الغردقة، فاتحته بالأمر، ولاقت في عينه تجاوبا فأخبرته بمارداها، فسايرها استمتاعا بحديثها، فراحت تلقي عليه ما تعرفه من فتيات. حدثته عن فتاة أعجبت برقصها في صباحية عرس أحد أقاربها، وأخرى أعجبت بقوامها، وغيرهم بتعبير جعل يوسف يدمع من شدة الضحك، فقالت له " عظمها راكب علي بعضه ووسطها عود فرنساوي " فغمز يوسف بحركة شبابية تدل علي إلمامها بشئون الشباب.

- فقالت بشيء من الفخر، لا تستهتر بخبرتي.
- وكيف كان زواجك من حسن ؟

يبدو أنه يريد سماع قصتهم للمرة المائة؛ ليستلذ بما لا تستطيع إخفاءه من مشاعر صادقة وحب أبدي، فعاودت قص رؤيته للمرة الأولى في فناء دار والدها وهي تسترق النظر إليه من نافذة غرفتها، متلفته إلى الخلف خوفا من أن يراها أحد. وفي فترة الخطوبة كان يتسلق شجرة التوت المطلة على شرفتها ليحظى برؤيتها، وفي الدراسة يجعل من الشجرة مكتبا للمذاكرة. ولا أريد السخرية أو أضاحكك لأحكي موقف إصابة ساقه بكسر عندما رأى شخصا يشبه والدها يمشي نحوه وهو معلق فوق الشجرة، والأكثر من ذلك عندما اكتشف أنه ليس بوالدها، عاد ليتشاجر معه.

وبعد أن أضحكته سألته عن حبه، فاعتدل في جلسته، ولبث قليلا قبل أن ينطق لسانه يبدو أنه يتشاور بالمصارحة أو الاستمرار بالكتمان، فشجعته بابتسامة مفعمة بحنان الأم.

حدثها عن فتاة كانت معه في درس القرآن.

- تقيم بقرية مجاورة. التقينا أكثر من مرة خارج الدرس وفي كل مرة أكتشف جُبني، فلم تكن لدي الجراءة في الحديث معها ... نمى ذلك الشيء الصغير بيننا عن بعد .. لم أقل قط إنني أحبها ولم تقولها لي قط، لكن هذا أجمل ما في الأمر. بعض الكلمات تنتهي صلاحيتها من كثرة تداولها، تألفها الألسن، وتمقتها القلوب، تصبح عادية كالرمال في الصحراء، كالخضرة في الأرض الخصبة، ظللنا هكذا حتى انتهت الإعدادية، وغابت عني، توارت مع الظروف والأيام، ولم أعد أرها قط، سألت عن زملائها خوفا على صورتها في عين المجيب، فأبلغني

حينها بموعد درس الفيزياء، كان في الثامنة صباحا يوم الجمعة، أتذكر هذا الوقت جيدا، ارتديت جلباب وعمامة حسن كي أنظر لها دون خجل، فإن رأتني بهذا لن تعرفني، جلست على جذع نخلة أهلكته أشعة الشمس في منطقة زراعية بعيدا عن أعين الناس، وحين لمحت فتيات تسير عن بعد تواريت خلف شجرة. وبعد أن مررن من أمامي أصابتني الخيبة، فلم تكن بينهن، خرجت من مخبئ، وكشفت نفسي لهن، واكتشفت أني لم أكن جبانا إلا أمامها. تمنيت لو بيتنا في آخر قريتهم، لعل أمر من أمام بيتها صدفة، وأنا عائد إلى الدار وأراقبها وهي توارب باب المنزل، وتودعني بتلك الابتسامة التي ولدت الحب بيننا.

- لماذا لم ترها وردة في البستان بدلا من الرمل في الصحراء؟. وما الفائدة وأنا ليس مالك البستان؟. وأين هي الآن ؟

علمت أنها اكتفت بالإعدادية، فتقاليد وعادات عائلتهم ترى أن الفتاة ليس لها تعليم، وأن بيت زوجها هو المأوى، ولا أرى في ذلك صواب، فتعليمها سينعكس على تربية أبنائها، ولكن هذا رأي أحتفظ به لنفسي أو أضعه في طاقة دارنا بجوار تلك الفتيلة النحيلة التي تمتص زيتها من وعاء صفيح ضئيل. رأيتها من فترة قريبة، وأتمنى أنا أراها دوما في دارنا،

- هل تعتقد أن الابتسامة تكفي للزواج !

- لا أدري، فلا يوجد زواج مثالي، نسير على نهجه، كما أن لغة العيون أقوى من الوعود، رأيت الحب في عينيها، لا أعلم مصدر كل هذه الثقة، ولكن بالتأكيد أنها تبادلني إياها، الدائرة ليست بالغة التعقيد قط، نحن وضعنا الاحترام المتبادل بيننا. أتساءل دائما؛ ماذا لو تقدمت لها؟ واكتشفت أني واهم، مختل، فهل البعد يحافظ علي الحب ؟! ماذا لو رأيت الدبلة في يديها ! أبلغهم فيما جئت، أم أطأطئ رأسي أمام أهلي، وانسحب من المعركة. ألم يكفيني وجودها معي في الدرس؟، ألم أتشبع من رؤيتها، واسترق النظر؟ فلا أدري ماذا أقول؟، أستغفر ربي على معصيته، أم أحمده على رؤية جمالها.
- ما اسمها؟ سألته زينب وهي تتخيل صورتها.
- نظر لها وكأنه يدرس قسمات وجهها، وقال ببطء " فريدة " ... " فريدة كقلبها "
- لم تسطع إخفاء ابتسامتها بعد سماعه، وقالت القلب الذي يعرف الحب لا يجيد الكراهية، الحب يجاور الصفاء والنقاء. أملأ العالم بالحب
- فعلتها عندما وقع نظري عليها وهي مرتدية حجابها الطويل وجلبابها الواسع، فلم أر غير وجه ملاك على هيئة بشر. أرى خجلها عندما تلاحظ نظراتي إليها، فيرتد الخجل ليكسيني ، أذهب للدرس فأبحث عنها بعيني وسط كومة الفتيات، فإن لم أجدها أتكور في زاوية بجانب الطريق كي أسمع وقع خطوها ... أسمع قهقهتها الخافتة البريئة و

تمتماتها المحاذِرة وسط أقرانها فأحسدهم على نعمة الحديث معها، والقرب منها ، حتى حفيف ثوبها، وهي تدور في مكانها لتهم بالمغادرة أسمعها كالموسيقى الحزينة التي تودع فقيد عزيز. حين تغادر قبلي، كنت أمقت الشيخ وأتعمد الشغب في جلستي فيصيبني غضبه ويطردني، لألحق بها، فأسير على بصمات قدميها، حتي أوصلها دهليز بيتها، فتلقي نظراتها المعتادة، وتحي ما ينمو داخلي، وحين تتوارى عن عيني، أتذكر أن الشمس غابت و على أن أكون في الدار منذ ساعة، فأنا معها لا أتذكر شخصي. فأبحث عن حجة وأرتب قولي استعدادا للتبرير إذا سألني أحد عن سبب التأخير.

قطع حديثهم مجيء حسن، فبشرته زينب بقصة يوسف، وانغمس يوسف في خجله ، احمر وجهه وألقاها بنظرة عتاب. فضحك حسن و أثنى على تربيته، ونصحه بأن يرسل لها فتاة تخبرها بحبه، ليقطع الشك باليقين، فعزم يوسف على ذلك، وراح يفكر في فتاة تقود هذه المهمة

وقال لزينب مداعبا

– من يعط سره لامرأة كمن يترك باب داره مفتوحا في منتصف الليل.

في المساء جاء شقيق زينب يسأل عن يوسف، فلم يجده في الدار، فأخبر زينب بأنه يحتاج إليه غدا لسد ثغرة في العمل بعد أن أصيب أحد العمال، فما أنهى حديثه، إلا وإن حضر يوسف ، فطلب منه العمل ليومين معه فقط، خشية أن يتعطل العمل، فاستفسر يوسف عن العمل، فوضحها له. أنها أعمال زراعية في أرض العمدة.

وفي صباح اليوم التالي وقبل أن تخرج أشعة الشمس كان يوسف يقف على الأرض، وسعد حين رأى الدار. تذكر تلك الدار التي طالما جاءها سيرا خلف قلبه، ليحظى بابتسامة فريدة وهي توصد الباب. لم يتوقع قط هذه الصدفة. ظل يسترق النظر إلى الدار، لعل وعسى أن يراها أو يلمح ظلها، حتي اقترب موعد الغداء، فأتت فتيات يحملن فوق رؤوسهن صواني الطعام فتفحصهم جيدا ، فلم يجد فريدة من بينهن ، فأكل دون شهوة، ومع تدني النهار، ووفد الليل رحل، ليعود في اليوم التالي، لم يذق النوم طيلة الليل، ظل يتقلب في فراشة، يفكر فيما سيفعله إذا رآها، وكيف يرسل لها فتاة أن القدر يتيح له فرصة وعليه اقتناصها؟ .

مع شروق الشمس ذهب للعمل بحماس شديد، وراح يراقب شرفتها آملا أن يراها، ومع اقتراب موعد الغداء راح العمدة ينادي إحدى بناته لجلب الطعام، فطلت فريدة من شرفتها بحرص، وأومأت إلى والدها، فدق قلب يوسف لرؤيتها وحلق في السماء فرحا، ولكن لم يتيقن أنها رأته أم لا، فالعمال كثيرون، وبعد نصف ساعة أقبلت فريدة ترتدي ثوبا أسود بسيط، زادها رونقا وجمالا، تحمل صواني الطعام فوق رأسها، ومعها فتاة أخرى، فدق قلبها حين رأته ، وأحمر وجهها خجلا، وتهللت أساريرها، فوقف ثابتا ينظر لها، فأسرعت في وضع الطعام خوفا من أن يلاحظه أحد أو يصيبه مكروه من والدها، وقالت في نفسها يا لك من مجنون ! . وبعد نصف ساعة أتت مع ذات الفتاة وحملن الصواني. بعد أن تناولا الشاي نهضوا العمال ومعهم يوسف الذي غاص في عمله بجد، ولكن هذه المرة خلف الدار فلم يعد يرى شرفتها، وبعد ساعة من الجهد اصطنع أنه

يتحدث في هاتفه وسار ناحية شرفتها وراح يسترق النظر إلى أعلى، فأطلت فريدة في حرص خوفا من أن يراها والدها وحين اطمأنت لعدم وجود أحد غير يوسف أطلت لترى ابتسامة يوسف حين لمحها، ثم قامت وأغلقت باب الشرفة، ووقفت تراقبه من خلف زجاجها المعتم. وكانت تحسبه أنه لا يراها، ولكنه كان يرى خيالها في وضوح . كان الضوء ينبعث من خلفها فكان وجهها يبدو كرقعة سوداء يحدها الضياء، فجاء صوت رب العمل يعجله،

فأجاب بصوت أعلى من صوته

- سآتي إليك مجددا، وهو يقصدها بقوله، وظلت هي في وقفتها لا تريم، ثم لوح بيده وهو ينظر إلى شرفتها تحية للخيال البادي من الزجاج، فلمحها تفر، فقد فطنت إلى أنه يراها، فابتسم ورد مرة ثانية على رب العمل الذي كرر نداءه بتذمر.

وفي اليوم الثالث أظهر أنه آتي للمساعدة لحين يجد عامل غيره، ومرت الساعات الأولى كسابقها من الأيام، ولكن حدث تغير فأتت فريدة لتحمل بقايا الطعام بمفردها، فقرر أن يساعدها، وحين لمح والدها مشغول مع كبير العمال، حمل معها الصواني وسار أمامها، وهي تغطي وجهها بطرف طرحتها البيضاء في حياء، لتبتسم في خفاء، وقبل أن يصل إلى باب الدار وقف، فتقدمت فريدة ووقفت بجانبه ، فشعر بقشعريرة تسري في بدنه، وبعرق ساخن يتفصد من جسمه، وارهفت حواسه، واتسعت حدقتا عينيه، حين رأى عينيها االعسليتين.

فقالت له

- شكرا لك، فتلعثم، وهو يقول
- لا شكر على واجب، فانفلتت منها ضحكة وقالت بارتجاف
- كيف حال دراستك ؟
- لم أكن مهتما، فأنهيت هذا العام دراستي وحصلت على دبلوم صناعي. اتسعت عيناها وهي تقول
- ما عرفتك إلا متفوقا. ماذا حدث لك ؟!
- لا أحد يبقى على حاله، دعكِ مني، ماذا عنك عرفت إنكِ لازمتي الدار بعد الإعدادية، وحزنت كثيرا لذلك .
- والدي يري أن الفتاة بعد الإعدادية من حقها أن تستريح وتصطاف. سألها يوسف باهتمام ظاهر و دهاء خافي
- هل وجدت راحتك ؟ فلعبت في عينيها نظرة مرحة وقالت
- أظن أنني اقتربت منها الآن.

انفلتت من شفتيه ضحكة، وراح يحرك شفتيه فتوقف حين ظهرت أخت فريدة من خلف الباب باسطة يدها إليه. فأعطاها الصواني عنه. وعاد يوسف وهو يجتز أسنانه بسبب مجيء أختها.

في اليوم الرابع لم يذهب للعمل، فقد انتهت مهمته ، ففكر في أن يرسل إليها أحد جيرانها، ليعلم ما تحمله له من حب، فذهب بالقرب من دارها، فرأى فتاة تعمل في دكان بقالة فخطر له خاطر أن تكون هي المنفذة لمخططه، وفي

اليوم الخامس بعد أن حسم الأمر عاد إلى ذلك الدكان ليجد ذات الفتاة فابتاع منها بعض الحلوى، وبعد أن اطمأن لها، قرر أن يحدثها عن فريدة، فقال لها بشيء من الحرص، تعرفين أحد في هذه الدار؟، وهو يشير إلى دار فريدة،

فقالت الفتاة بتعجب

- لماذا ؟
- لا شيء، فقد أردت مساعدة .
- إذا كانت في المستطاع لن أتأخر. فقال لها بعد صمت.
- فريدة
- ما بها ؟ تعرفها ؟
- لا تسيئي الظن. فقالت الفتاة ضاحكة.
- وما ظننت إلا خيرا، ثم أردفت
- ماذا تريد؟، لقد أقلقتني .
- أريد خطبتها.
- وجئت لتتحرى عنها ؟
- ليس بالضبط. ثم واصل حديثه
- جئت لمعرفة ردها قبل أن أقبل على تلك الخطوة.
- وبماذا تريد أن أساعدك ؟

- أن تخبريها، وتأتي بالجواب. فقالت بعد أن أطالت النظر إليه. حسنا، انتظر جوابا
- متى ؟
- لا أعلم متى سأراها؟.
- حسنا عزيزتي، أشكرك على سعة صدرك، فابتسمت وهي تقول لن أفعل شيئا فحسب. ودعها يوسف.

وبعد أسبوعين من الانقطاع جاء يوسف، فقالت له الفتاة بعد أن أطالت النظر إليه.

- إن قلبها يتعلق بأحد أقاربها، أتمنى لك شريكا يبادلك نفس الحب. نظر لها يوسف دون أن ينبس بكلمة واحدة، فأردفت الفتاة
- الفتيات كثر حولك، لا تعلق قلبك بشخص يتعلق قلبه بغيرك. فقال يوسف بغضب
- إذا كان أحد يسكن قلب فريدة فهو أنا. وما أنتِ إلا كاذبة. فرمقته بدهشة وهي تقول
- لن أسيء إليك، كما أسأت لي، ولكن عليك أن تتبين حبها لك بنفسك إن كنت لا تثق بأحد، وإذا أردت أن تراها مع حبيبها اترك رقم هاتفك وسأتصل بك لترى بأم عينك . فقال في تحدي أعطيني ورقة، فأخذ منها الورقة، ودون رقمه، وقال سنرى من المحق إذن؟. وعاد

إلى داره يفكر في قول تلك الفتاة، لم ير النوم ليلتها، ظل يفكر في الأمر، وكلمات الفتاة ترن في أذنيه.

***

اعتادت فريدة هي وأخواتها على نشب المعارك والعناد حول من تقوم بأعمال المنزل، فإنها تجيد التراخي في المساعدة. وحين جاء والدها بعمال لإصلاح الأرض، كانت تقول ما لديها من حجج لكي تتهرب من تقديم الطعام لهم، فاقترحت والدتها أن تتخذ كل منهن دورا بالترتيب .. في أول يوم لم تهبط فريدة، وفي اليوم الثاني جاء الدور عليها، فخضعت للأمر ولم تستطع الفرار، فهبطت مرغمة مع أختها يحملان الطعام فوق رأسيهما، ولم تعلم أن القدر اختارها ليكافئها وترى يوسف مرة أخرى بعد غياب طال لسنوات عديدة، رأته من بعيد فتسمرت موضعها، وتوقفت الأصوات من حولها. دققت النظر إليه غير مصدقة أنه يوسف ودارت في ذهنها تساؤلات كثيرة، ماذا يفعل هنا ؟ أفاقت على صوت أختها الصغرى وهي تعجلها، فاقتربت من موضع الطعام، وأسندته وهي تنظر بطرف عينيها، فلمحت يوسف يسترق النظر إليها مثل اللصوص، أنه ما زال يحتفظ بخجله، وحين استدارت أختها رأت يوسف ثابتا ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة، فبدأ عليها الارتباك، وأخذت تتلفت في اضطراب ،فعجلت في إسناد الصحون وقالت في نفسها يا لك من مجنون!، وركضت خلف أختها خوفا من أن يلمحه أحد، حينها ظلت تتردد على شرفتها لتراه، ولكنه انتقل خلف الدار حيث وصلا إلى تلك المساحة من العمل،

وبعد ساعة سمعت صوت شخص يتحدث في هاتفه، فاسترقت النظر من خلف النافذة، فوجدته يوسف فأسرعت إلى الشرفة وأطلت بحرص خوفا من أن يراها والدها، رأت يوسف ممسكا هاتفه. ارتسمت ابتسامة خفيفة علي شفتيه، لم تتمالك نفسها فدق قلبها فرحا وسعادة برؤيته، حينها تمنت لو اقتربت منه، ومدت يدها؛ لتصافحه، وتسأله عن سبب غيابه طوال هذه المدة، وتحكي له معاناتها الأيام الماضية، وحزنها على ترك دراستها، ولكن وجدت نفسها تغلق باب شرفتها عكس رغبتها، ووقفت خلفه تراقبه، وتضحك عليه، لم تكن تعلم أنه يراها، فأشار إليها حين هم للمغادرة فاعتراها الخجل وتراجعت للخلف بسرعة. وفي اليوم الثالث أظهرت لأخواتها مدى تطوعها لهم، والتفاني في راحتهم، فقررت أن تهبط لتقديم الطعام بدلا منهم.

ومضت الساعات الأولى كسابقها، حين انتهاء العمال من الغداء، انتظرت أختها لتذهب معها كعادتها، ولكنها لم تجيء، فقدرت أنها فرصتها لترى يوسف دون تحفظ لنظراتها، وفرحت جدا لجرأته حين قرر مساعدتها، وسار أمامها وهي تكتم ضحكاتها، وحين اقتربت من الباب، وقف يوسف فجأة فتقدمت فريدة بحرص، وشكرته؛ لتقود مجال للحديث، ولكنه لم يطل فجاءت أختها لتفسد ما رتبته من قول في ذهنها. وفي اليوم الرابع لم تجده، فتعكر مزاجها، ولزمت فراشها لتتساءل لماذا لم يأت اليوم؟. وفي اليوم الخامس رأته ولكن هذه المرة أمام دكان البقالة يتحدث مع الفتاة التي تعمل به، فتعجبت لأمره، وحاولت أن تهبط، لكن وجود والدها بالدار أفسد محاولتها.

وفي اليوم التالي ظلت تراقب دكان البقالة، ولكنه لم يأت .. ومرت الأيام وهي تفعل الشيء نفسه.. وبعد أسبوعين رأته يدلف الدكان، وحدث الفتاة.. وبعد أن انتهى حديثهما، لمحتهُ وهو يغادر يشير بأصابعه التي اقتربت من أذنيه في إشارة مواعدة بالاتصال هاتفيا، فاختنق صدرها وغلي دمها، فقررت أن تهبط الدرج في عجل لتتبين ما سبب وقوفه معها؟.. ابتاعت بعض الحلوى،

فقالت لها الفتاة.

- أنتِ تحبين الحلوى مثل حبيبي، فابتسمت لها ابتسامة خفيفة قبل أن تسألها عن اسمه فقالت الفتاة
- اسمه يوسف. اندهشت فريدة و تقوس عنقها كالقطة المتنمرة وهي تقول
- يوسف ؟
- إنكِ تعرفيه ؟
- لا أتوقع ذلك، الله يسعد أيامكم.
- شكرا لك.
- هل لي أن تحدثيني عنه ؟
- ارتبطنا منذ سنة، بدت بابتياع حلوى وهذه الورقة التي ما زلت احتفظ بها .. لمحت فريدة اسم يوسف وأسفله رقم هاتف .. فاختنق صدرها وهي تقول لها

– اتمنى لكم حياة سعيدة .

فراحت الفتاة تثرثر، وتحكي عنه، فابتسمت لها وعجلت في المغادرة .

هرعت فريدة إلى الدار حيث وصلت إلى سريرها، وانسللت أسفل فراشها يرتعد جسمها، وانطلقت دموعها.

بعد ساعتين جاءت أختها الصغيرة ورفعت الغطاء عنها، لتوقظها لمتابعة مسلسلها المفضل، فأومأت برأسها أنها متعبة، فألحت عليها قبل أن تنهار في وجهها، وأغلقت الباب خلفها، والدموع تملأ عينيها، تفكر في يوسف، تلوم نفسها لعدم الإفصاح عن حبها له طيلة هذه الفترة .. مرت الأيام وتلاشى الحزن وانقشع، قبل أن تراه ثانية أمام ذلك الدكان، فتابعته بحرص شديد وتخفت خلف النافذة حتى رحل وهو مبتسما ، فازداد غضبها وأغلقت نافذتها وراحت إلى فراشها حيث يعرف دموعها ويسطر أحزانها ويكتم سرها.

***

قبل السفر للغردقة ذهب يوسف لتلك الفتاة، لإخبارها بشأن سفره، ويؤكد أنه ما زال طرفا في التحدي.

فضحكت وهي تقول له

– فاتك أمر والدها، فقال يوسف ساخرا

– ماذا عن والدها ؟

- إنه لا يجيد سوى لغة المال، وإذا تعديت عقبة قريبها ، ستصدم بوالدها. حينها أيقن أن تلك الفتاة حال بينه وبين ما يتمنى، فحرك حاجبه وهو يقول
- لا عليكِ ، ستكون لي، فابتسمت الفتاة بمكر حين هم بالمغادرة وهي تقول له
- يعجبني ثقتك بنفسك.

لم يعقب وانطلق وفي جوفه نار، وفي حلقه غصة، وعاد إلى الدار وفي عينيه بوادر دموع. جلس في شرفته يرتشف قهوته. يتذكر حديث الفتاة وفمها اللعين الذي تفوه بكلمات بحق الحب يستهين، وأن المال هو المصب للقلوب، وأن النسب تتفاخر به الناس حتى لو كان الحبيب معيوب .. وحين سألها عن الحب .. سخرت منه وقالت، الحب هو حجج اليأس الحزين.

أسند رأسه على درابزين الشرفة، وأغمض عينيه، واسترجع رؤيته لفريدة ووقوفه تحت شرفتها، وتساءل في نفسه كيف لم تحبه ؟

ثم قال

كيف من الأساس تأكد من حبها ؟

أسمعت نداء قلبه ؟ .. كان يتساءل والدموع تملأ عينيه، ذهب إلى مكتبه، وسحب ورقة، وأمسك بقلمه الباهت القديم الذي ما زال محتفظ به حتى الآن بسبب أناملها التي احتضنته منذ سنين. كتب تحت عنوان " ..... "

" ألم ترين آلة قلبي تعزف في الحب ألحاني؟ !!

ألم تسمعين لساني في الشعر يبوح بأشعاري؟!!

ألم يخبرك البحر بأسراري؟!!

أدعيت الشعر والتلحين ووقفت في الليل على البحر كما لو كنت في عالم الحب أحد المؤسسين، وأنتِ على عرش قلبي تتربعين. ظل يكتب ... فكان يكتب بحبر من الدموع وبقلب موجوع. وبعد أن أنهى كتاباته وضع الورقة بين مذكراته.

***

رحل إلى الغردقة، وعقله يفكر في فريدة، عاد لأجواء العمل، بعزيمة أكبر نحو جمع المال. كان يعمل ساعات إضافية بضعف الأجر. صورتها بالثوب الاسود وصوتها وضحكتها لم يفارقوا ذهنه لحظة واحدة، يعمل من أجلها. كف عن الذهاب إلى الملهى حفاظا على وقت نومه فقد بذل جهد المستميتين .. اقترب منه شخص بعد أن لاحظ جهده وتفانيه في العمل، وحين عرف حاجته للمال، أرشده إلى أكثر من عمل، ولكن يوسف رفض، فلم يرق له العمل في مصنع خمور أو كباريه. خاف أن يغضب ربه، ظل يدعو الله أن يسكنه قلب فريدة .. بعد ثلاث أشهر من العمل المتواصل عاد إلى نجع حمادي؛ ليخوض الامتحانات، ويتواصل مع فريدة. حدثته زينب عن أمر فريدة فأخبرها بأن الوقت لم يحن بعد. ذهب إلى فتاة البقالة ليطمئن عما وصلت إليه، ولكن تفاجأ بوجود رجل خمسيني يقف بدلا منها فتوقع أن يكون والدها .. في ذلك الحين كانت تطل

فريدة من شرفتها لمحت يوسف أمام دكان البقالة، فغمرها سرور وفرح ، وكادت أن تصفر له، ولكنها خشيت أن ينكشف أمرها، فتركت الشرفة، وارتدت ثيابها في سرعة وراحت تهبط في الدرج قفزا، وبلغت الدكان فلم تجده، فأخذت تعدو إلى الشوارع الأخرى وتتلفت عليه، ولكنها لم تجد له أثرا، فاغتاظت واستولي عليها حنق شديد، وسارت إلى البيت تكاد الدموع تطفر من عينيها .. لم يأت في بالها قط أنه ذهب إلى دارها .. تفاجأت به في الدرب يسير وهو يسترق النظر إلى شرفتها. فانفرجت أساريرها وبنبرة تنازعها الابتهاج وتقطع الأنفاس،

قالت

- ماذا تفعل هنا ؟

فاستدار يوسف وهو ينظر إليها باسما وفي إمعان قال

- جئت لشيء افتقده، فانفلتت منها ضحكة، وقالت وهي تتلفت حولها خوفا من أن يراهم أحد
- وماذا تفتقد ؟ . فقال بلؤم وهو يضحك
- افتقد نفسي، وتابع بعد أن رأى الابتسامة تملأ وجهها.
- هل لي أن ألقاها هنا. فنظرت حولها وقالت والخوف يعتريها
- عليك أن ترحل الآن، فكيف تجرأت ودخلت الدرب؟، فقال وهو يضحك
- ولكني جزت الدرب سالما

- إنك لمتهور، كان من الممكن أن يراك أحد فضحك بثقة، وقال
- كنت سأبتكر حلا وليد الزمان والمكان، فهمت بالانصراف، فأمسك يدها، ونظر في عينيها، فوجدها تبادله النظر، فقال
- أرسلت إليكِ فتاة البقالة
- حبيبتك ؟ قال في تبرم ساخر
- حبيبتي؟ من أين جئتِ بهذا !
- هي من ادعت ذلك، رأيتك حينها تشير لمواعدة هاتفية، فتأكد لي الامر. فقال يوسف بغضب
- كما قالت لي إنكِ مرتبطة بأحد اقاربك، فوضعت فريدة يدها علي شفتيها، كما لو كانت تربط الأحداث ببعضها، وقالت مقاطعة لحديثه لماذا فعلت هذا ؟ فواصل يوسف حديثه
- قالت إنكِ مرتبطة بأحد أقاربك، كما أن والدك سيرفضني ؟ . كانت تستمع فريدة إليه، ومع كل حرف يزداد وجهها غضبا ووجوم، ولكن تحول إلى ابتسامة ملأت وجهها حين سمعت " سيرفضني " فلاحظ يوسف تغير تعبير وجهها فقال ضاحكا
- ما بكِ ؟
- لا شيء، أرحل الآن.
- كيف ألقاكِ؟، فقالت وهي تترقب الطريق من حولها، أترك رقمك وسأتصل بك، فلم يجد قلم و ورقة ليدون رقمه، ولم يكن معها

هاتفها، فأمسك بحجر، ونقش الرقم على شجرة كانت بالقرب منهم، فابتسمت لسرعة بداهته، وركضت لسريرها وهي تفكر فيما حدث.

وبعد ثلاثة أيام استقبل هاتف يوسف رسالة من رقم غير مسجل، كان رقم فريدة كما توقع، تحدثا عن ذكرياتهم الأولى، كما أوضحت فريدة سبب عدم اتصالها، خوفا من أن يسمعها أحد. واستمرت الرسائل بينهم .. غادر يوسف نجع حمادي بعد انتهاء مدة أجازته.

***

على شط الغردقة يجلس نورالدين وصديقه هاني الذي لازمه في رحلته هذه المرة، وبعد مدة من الجلوس قرر هاني أن يذهبا إلى إحدى مطاعم السمك المشهورة على شط البحر، اقتعدا على طاولة تطل علي البحر،

فقال نورالدين وهو يتلفت لأركان المطعم

- لدي طموح نحو امتلاك مطعم في هذه المنطقة فقال هاني
- ولكن هذا المكان يتطلب مالٍ كثير، فقال نورالدين وهو يتذكر رحلة الكويت
- لدي ما يؤهلني لذلك، فقال هاني
- ما رأيك في مشروع يعد عليك ربحا يرضيك ويضفي عليك وقارا؟.

رجع نورالدين بظهره إلى الخلف، وقال في إنصات

- ما هو ؟ مال هاني للإمام، وقال هامسا مدرسة خاصة، طالعه متعجبا فهز رأسه، وتابع قوله
- لدي رجل أعمال يريد أن ينشئ مدرسة خاصة ويحتاج من يديرها، أومأ نورالدين، وهو يقول
- ولكن هذا سيتطلب اجراءات معقدة، فقال هاني وهو يخبط يده علي ركبة نورالدين
- رجال الأعمال لا يعرفون التعقيد، كما أنا أرى هذا أفضل من المطعم الذي تسعي إليه. ثم إن المشروع سيكون عبارة عن أسهم، تملك الحصة التي تستطيع شراءها. لاذ بالصمت نورالدين ودارت في رأسه مسحة حسابية فأردف هاني
- حدثني رجل الإعمال منذ فترة ولكن لم أكن أنوي الحديث معك إلا بعد أن تخمرت الفكرة في رأسي، وبعد أن رأيت تشجعك لامتلاك مطعم قدرت أنها الفرصة المناسبة.
- الفكرة تبدو لي جيدة ولكن أمهلني بعض الوقت لدراسة الموقف، وسأرثيك على قراري. فقال وهو يتابع رص الطعام أمامهم ، دعنا نأكل الآن، فضحك نورالدين وقال بسم الله يا صديقي.

***

بعد مقابلة يوسف ومعرفة ما قامت به فتاة البقالة، راودتها أفكار عديدة، ما بين أن تتجاهلها وعدم إعطاءها اهتمام وما بين الانتقام وكيدها، ولكن فضولها في معرفة السبب كان أقوى.

حين اختفت الشمس، وغاب وجهها عن الأفق، ذهبت فريدة إلى فتاة البقالة لتجدها مشغولة مع الزبائن، فجعلت تتشاور في اختيار شيء، فلم تجد ما تحتاج إليه، وحين فرغت الفتاة من الزبائن، انقضت عليها بتساؤلاتها فلم تجد جوابا ، فاستهزأت بعقلها، وافرغت طاقتها السلبية وفتاة البقالة تحاول التماسك أمامها، فزادتها فريدة تبوخا، وأرادت إشباع غرائزها، فصرحت لها ما تم بينها وبين يوسف مؤخرا، فلم تستطع فتاة البقالة الحديث بلسانها، فكانت الدموع تلألأ عينيها. انسحبت فريدة بعد أن رأت دموعها فقدرت أن هذا يكفي.

أبلغت يوسف بما حدث عبر الرسائل، وتفاجأت بغضبه، لأنها خالفت وعده، فكان يفضل أن لا تتحدث مع تلك الفتاة خشية أن تفضح أمرهم وتخبر أحد بعلاقاتهما،

فقالت فريدة

- لم أستطع مقاومة فضولي في معرفة سبب ما فعلته.
- قد تأتي العواقب، بما لا يرضينا.
- أعذرني فلم أتمالك نفسي حين رأيتها، فتذكرت ابتسامتها المكرة سابقا، وهي تريني تلك الورقة مدون بها رقمك.
- لا عليكِ.

- لومت نفسي حين رأيت دموعها.
- هي من صنعت ذلك، وهذا حصادها.
- لم أرد جرح أحد ولكن على أية حال، سأتجنبها ، دعنا من تلك السيرة، أخبرني عن حالك ؟ وسار الحديث بينهم حتى نامت فريدة والهاتف سقط جانبها.

***

تنقل يوسف بين العمل بحثا عن أكثرهم ربحا، ولكن أقلقه انقطاع رسائل فريدة بعد أن حدثته آخر مرة دون أن تنهي حديثها أو ترد عليه، لا يعلم هل انزعجت حين كتب كلمة " بحبك " لأول مرة أم يوجد غير ذلك؟ .. مرت الأيام ثقيلة ويوسف حائر في أمره. عاد إلى قنا في أجازته، وذهب إليها في يومه الأول فلم يرها، فزادت تعاسته. أرشدته زينب إلى التقدم إليها. وبعد مشاورات مكثفة قرر يوسف الذهاب إلى العمدة، وطلب يد أبنته.

ارتدى أفضل ما لديه، و قرر الذهاب إليه وحيدا لجس نبضه، دون أن يخبر أحد، وبعد ذلك يأتي بحسن وزينب، استقبله العمدة ورحب به، فأبلغه بما يريد بعد أن عرف نفسه.

فقال العمدة والسخرية تغلف حديثه

- رأيتك قبل ذلك.
- عملت بالأرض لسد ثغرة أحد العمال، ولكن عملي الأساسي في الغردقة.

- أحب الشاب المجتهد. ابتسم يوسف لثنائه فأردف العمدة وهو يتكئ على عصا خزران بديعة الشكل عليها نقوش فرعونية بارزة مطعمة باللون الذهبي، تعلوها رأس أفعي نحاسية لامعة وبراقة زادتها رونقا وجمالا
- انظر إلى تلك العصا. قال يوسف وهو ينظر لرأس الأفعى ويتأملها.
- جميلة، يبدو أنها ثمينة. قهقه العمدة ضاحكا لقد اقتربت من مرادي. تحولت الابتسامة على وجه يوسف الي بلاهة،وقال
- لا أفهم شيء. فتابع العمدة قوله، وهو يرفع العصا للأعلى
- حين كنت طفلا كانت تلك العصا بحوذة جدي، وكان وقتذاك حفل زفاف ابن عمي، فأردت أخذها والرقص بها، ولكنه رفض، وقال حين تمتلك قدرها تستطيع أخذها، دون ذلك لا تفكر بها. فقال يوسف قاطعا صمته
- ولماذا لم تسأله عن سبب رفضه. فقال العمدة وهو ينظر له بحده
- فعلت ذلك، فصفعني بكف يده، وقال لا حاجة تستدعيني أن أبرر رفضي. ابتلع يوسف ريقه وهو يهز رأسه، فقال العمدة
- لا تكن مثلي وتسأل عن سبب رفضك. نظر يوسف لعينيه الدفن التي تناسقت مع أنفه الحاد وقال
- لا داعي لقص حكاية منذ سنوات، فكلمة " كل شيء نصيب " تقصر المسافات ، ولا أراك محقا، فكلنا نحتاج إلى وقت لإثبات الذات،

وها أنت اليوم تمتلك العصا بعد إثبات ذاتك. ما جعلني أتقدم إلى ابنتك حبي لها، فإن وافقت فقد وفقت قلبان يدعوا إليك دائما، وإن رفضت فقدر الله من أراد ذلك .. اشتدت نبرات يوسف مع إطالة حديثه مظهرا حبه لفريدة، ولكن العمدة كان صلب القلب، وقال

- الحب وحده ليس كافيا علي فتح بيت في هذا الزمن. الفرصة ستأتيك مع من يناسبك، وأنت صغير والمستقبل أمامك. يعجبني جراءتك ومجيئك إلى هنا، فقاطعه يوسف وهو ينهض متظاهرا بالتماسك
- سأحاول المجيء مرة ثانية حين أمتلك قدرها، وحينها سأنال إعجابك للمرة الثانية.

ذلك اليوم سار يوسف إلى قريته عبر طريق ترابي.. لم يعلم حينذاك أحد بما حل به قط .. احتقب وودع زينب، ولم يجد حسن ليودعه فترك السلام، وغادر إلى الغردقة.

***

لم تعلم فريدة بمجيء يوسف إلا حين رصدها والدها وهي تمسك هاتف أختها لتراسل يوسف، وهنا اكتشفت ما كانت تريد اكتشافه سابقا،

فأخبرها والدها

- أنا الذي جعلت فتاة البقالة تفعل ذلك، فحين رأيتك تهتمين بتقديم الطعام والذهاب إلى الدكان بعد أن جاء ذلك الشاب " يقصد يوسف ولكنه لا يريد نطق اسمه " ذهبت إلى الدكان بعدك، وهناك وقعت في يدي ورقة مدون عليها بخط مهزوز اسم ورقم هاتف، فأردت معرفة

هل لكِ شأن بهذا الأمر أم مجيئك كان صدفة؟، فأظهرت غضبي وخوفي على فتاة البقالة وأخبرتها أني سأبلغ والدها، حينها أفاضت بما تحمله من أسرار وخفايا، فلم أغضب عليكِ، وطلبت منها ما فعلته معكِ ومعه، وقلت في نفسي أنكِ صغيرة ولا تعي ما تفعلي وبعد ذلك، أخبرتني الفتاة بما حدث بينكم، كما قالت تطور العلاقة بينكما إلى حد الاتصال ، فلم أغضب عليكِ، وأخذت هاتفك، وقولت لنفسي أنكِ لا تعي ما تفعلي .. والآن ترتكبين ذات الخطأ، وتحاولين الاتصال به من هاتف أختك، ولكن لا أعلم إلى متى سألتمس لكِ العذر؟.. بينما العمدة يلقنها كانت فريدة تنظر أرضا والدموع تنهمر علي وجنتيها، فلا تمتلك ما تدافع به عن نفسها. وبعد أن انتهى والدها من حديثه قالت

- لم أرتكب جرما. فقط ذهبت وراء قلبي. صفعها والدها، وهو يقول مستهينا " قلب " نحن لا نعرف ذلك. وضعت فريدة يدها على وجنتيها تتحسس بأناملها موضع أصابع يده، فهذه المرة الأولى التي يصفعها، وهي تنظر إليه غير مصدقة، وهنا قطع انفرادهم والدتها التي أتت مسرعة على صدى صوت العمدة، فرأت فريدة غارقة في دموعها فاحتضنتها وهي تنظر إلى العمدة دون أن تنبس بكلمة فوراهم العمدة وغادر وهو يقول ساخرا
- هذا الشاب جاء ليخطبك أي هزؤ هذا؟.

خطايا القلب

سيطر الحزن عليه، رغم إظهار صلابته وتفانيه في العمل، فما بقي لنومه إلا القليل من يومه. كان يتذكر جيدا مقابلة العمدة، وجعلها حافزا له وبين حاجته الماسة للمال، وحالة اليأس التي أغرقته من رأسه إلى أخمص قدمه، أوقعه القدر في أحد العاملين القدامى الذي أغواه بالعمل في " ملهى ليلي " يعمل به، وأغراه بالأجر الكبير الذي سيتقاضاه، خلاف الذي سيجنيه من الأجانب، تردد في البداية، ولكنه طلب إمهاله بعض الوقت، كان يفكر فيما حدث.. ومع كل لحظة كان الغيظ يزداد بداخله تجاه والد فريدة إلا أن وثب بعقله قرار قبول العمل وتحدي العمدة .. لقنه صاحبه بعض النصائح قبل أن يدعوه لمقابلة عمله الجديد. ذهب يوسف إلى مقابلة مدير الملهى، فوضع له اختبار قدرات، ولكنه أخفق .. ورغم ذلك تم تعينه، فاستطاعت عيناه الشغوفة بالعمل إجبار المدير علي قبوله كان كل شيء عاديا إلا مقولة المدير قبل توقيع العقد.

قال له بصوت واضح إني برئ منك أمام الله .. لم يع يوسف قوله ولم يفكر في حديثه، فوصوله للهدف وإحساسه بالقرب من النجاح أنساه كل شيء، شهد بداية عمله حماسا غير معهود وجهدا غير مألوف، حقا الحب يخلق الإبداع، وحبه جعله مبدعا مخلصا شغوفا لأقصي حد، جلوسك بجواره وسماعه، وهو يقول سأصبح مدير " الملهى " يجعلك تنظر له كالمجنون الأبله الذي يدرس في المدرسة المهنية، ويريد أن يصبح طبيبا .. عرف بالجد والحزم وسط زملائه، واشتهر بالمعقد. يعمل في " ملهى ليلي " ويحرم التهاون في العمل، والأكثر من ذلك يحرم على زملائه سرقة الخمر، وكأنه تغير ولكن معدنه لم يتغير، وهذا شيء مطمئن، فإن انغمست في الخطايا والآثام فلا تغلق كل الأبواب، فلعل التوبة تأتي من أحدهم، أصبح مؤثر في فريقه، وغيابه يُعد تهديد، وثق به المدراء، وأحبه مشرفيه، وأخذ نصيبه من المقت والكراهية من زملائه، وفي يوم أرسل له المدير.

ذهب لمكتبه وهو يحارب هواجسه، والزملاء يهولون له الموقف. والحق أنه يستحق أكثر من ذلك، فلا تنس أنه حرم عليهم سرقة الخمر !! استقبله المدير في الممر، وصحبه إلى المكتب بنفسه، وصافحه بامتنان، وهو يبتسم في وجهه ابتسامة مشجعه. وبعد أن جلسا طرق الباب. فسمح المدير للطارق بالدخول .. دخل شخص توحي ملامحه إلى الألمان، حياهم بلغته فرد المدير التحية، وما فهم يوسف شيئا مما قال ولكن إشارة يده كانت أكثر وضوحا من عبارته فحرك شفتيه فقط، فلم يتمكن من معرفة بلده، ولا لغته، فقال المدير ليوسف وهو يشير إلى الأجنبي

- مستر " إيثان " سيفتتح " ملهى ليلي " ويريد مدير له، ما رأيك؟ نعم !! ، قالها يوسف متعجبا. فقال المدير
- أنت الأجدر بذلك، فنحن منذ توليك العمل نراقبك خلف الشاشات، ووضعنا لك أكثر من اختبار، وفي كل مرة تنجح، لا تفكر كثيرا، وأقبل على الفور يا يوسف.

في تلك اللحظة مرت أمام عينيه حديث فتاة البقالة، وهي تقول " والدها لا يجيد سوى لغة المال، و تجسد أمامه العمدة وهو يرفع العصا ويقول حينما تمتلك قدرها يكون باستطاعتك أخذها " فقال بعد تفكير

ولكن الأمر يحتاج إلى استيعاب، فأنا لم أكمل ستة أشهر هنا، ولا أعتقد أني أستحق هذا المنصب. فقال المدير الأمر ليس بالصعوبة البالغة ولا أرى في مهمتك تعقيد. لاذ يوسف بالصمت لما لم يجده من رد، فقال المدير متسائلا موافق ؟....

- موافق فقال مستر " إيثان " نمضي العقود إذن، فنظر إليه يوسف مستغربا من فصاحته، إنه يجيد العربية مثلنا تماما. ثم وجه حديثه لإيثان مازحا
- إنك تتكلم عربي جيدا ما حاجة إحراجي بالتحية لم أفهم مصدر لغتها.

تعالت الضحكات ، وطلب " إيثان " من يوسف موعد لإطلاعه علي دراسة المشروع والبدء في التنفيذ. وفي مساء اليوم التالي التقى يوسف والمستر إيثان بأحد مطاعم الغردقة. رحب به إيثان، كان يوسف خجولا فهي المرة

الأولى التي يجلس معه منفردا، لم يأكل طعامه جيدا، فحديثهم كان أقوى وألذ ، والأمر اختلف فإيثان أعطاه راتب شهري يعادل عشر أضعاف ما يتقاضاه مديره السابق، تماسك يوسف أمامه ، وظن به الظنون. هل كل هذا تدبير لمكيدة تُعد له أم هذا منحة من الله لأجل فريدة ؟!.. فطلب منه أسبوعين للتفكير ودراسة موقفه النهائي، فسمح له إيثان بأسبوع

وقال التأخير ليس في صالحنا، نريد أن نكون على أرض الواقع في أقرب وقت. فازداد خوف يوسف في نفسه وقبل الأمر. مر أسبوع ولم يفعل يوسف ما يجعله يوافق أو يرفض، لكنه كان يضع صورة فريدة في ذهنه، ويتذكر حديث فتاة البقالة وتحدي والدها، فوافق فمن مثله يرفض هذه الفرصة، وبعد شهر بالتمام و الكمال افتتح " الملهى " ويوسف أصغر مدير في المنطقة، العمر ليس إلا رقم، أحيانا الشباب يكون أجدر من الشيوخ " الخبرات "

***

إيثان جعل من يوسف مديرا في المظهر فقبل الافتتاح بأسبوع تسوقا سويا، وابتاع له أجود أنواع البدل، ولم يفته الموبايل الأنيق .. انتقل يوسف إلى مستوى آخر، فترك سكنه القديم، ومعاناة خزانة الملابس المشتركة والسرير المعدن صاحب الطابقين، ورائحة الجوارب الممزوجة بالعرق ودخان السجائر السوبر المبعثرة في أجواء الغرفة، وانتقل إلى شقة صغيرة بها مستلزمات المعيشة على أكمل وجه أثبت جدارته في فن التعامل مع مرؤوسيه، فكان مثلهم منذ وقت قصير، ويعرف كل صغيرة وكبيرة. أحبه

الجميع، اهتم باستعارة كتب إيثان في مجال الإدارة، وتطبيق ما تحمله من نصائح وعلم. يستغل وجود إيثان في الغردقة، ويتناقش معه في تجاربه الناجحة. إيثان كان يقضي أغلب وقته خارج الغردقة، مشاريعه عديدة في أنحاء العالم، مثل نسائه .. ظلت الأمور تسير على خطا ثابتة، كل شيء حوله تغير، أصدقاء تغيرت وسهرات تبدلت إلا جلوسه على الشط ما زال يقدسه، يقرأ القرآن ويدعي لعائلته. يذهب إلى قنا من أجل الامتحانات ويعود لاستكمال عمله.

***

في يوم شديد البرودة كانت تجلس زينب على سطح الدار مولية نظرها نحو الطبيعة مستمتعة بأشعة الشمس الطفيفة، تنظر إلى الفتيات اللواتي يلتمسن أقواتهن من الحقول. أتى حسن حاملا الشاي

وقال مبتسما

- تجلسين بدوني.
- أبدا .. ولكن أخاف عليك من شمس الشتاء

ضحكا .. وقال حسن

- انظري للفتيات الحسان المبتذلات بحكم الفقر. تأملتهم زينب وهي تقول في نفسها ألم يرهم يوسف بدلا من بنت العمدة؟، فهي تتيقن حقيقة عدم زواجه منها، فأين هم من العمدة؟!.

وقالت ردا على حسن

- يعملون من أجل قوت يومهم ، فاستطرد حسن مداعبا
- سأجلب لكِ واحدة .. ضحكت زينب وهي تقول
- على يوسف أن يجلب .. فقال حسن
- يوسف .. أين يوسف الآن؟ فلم يعد يأتي إلا أياما معدودة، يبدو أن فتيات الغردقة سلبوه منا.
- أنا أفهم غيابه .. إنه يعمل، ولا يكل من أجل الزواج.
- هو من قال لك ذلك.
- لا .. بل قرأت عينيه
- سأجهز الطابق الثاني شقة له ..

***

في إحدى السهرات الليلية، بينما يوسف منشغل بتنظيم مهام العاملين، يدخل إيثان متنكرا بقبعة جلدية تكاد تغطي أنفه، وبرفقته فتاة ترتدي فستان مفتوح يكشف أكثر مما يخفي .. استقبله يوسف بابتسامة عريضة تخبئ غيظه على غياب عامل الاستقبال والترحيب بالعملاء. طلب إيثان طاولة منعزلة .. أشار يوسف إلى طاولة في الطابق العلوي بعيدة عن أشعة الليزر البنفسجي والحشد الغفير والموسيقى الصاخبة والرقص الشبه عاري، و بعد أن جلس على كرسيه، رفع القبعة لأعلى كاشفا عن وجهه ليتفاجأ يوسف .. احتضنه ..

كل هذا يا رجل، ألا تشتاق لرؤيتنا ؟.

قال إيثان مبتسما الأعمال يا صديقي العزيز.

لكزه في كتفه وهو ينظر إلى الفتاة بجانبه يتأمل عيونها الزرقاء كالبحر وخصلات شعرها الصفراء كأشعة الشمس الطفيفة وأنفها الصغير وبشرتها الأبيض من الثلج، وقال بعد أن تأملها

- إنه عمل جيد بكل تأكيد.

قهقه إيثان طويلا ثم قال وهو يشير إلى الفتاة

- هذه " أديل " صديقتي البارسية.

صافحها يوسف وقبل يديها

- أهلا وسهلا بضيفتنا .. أهلا بك جوزيف ..

وجاء النادل يدفع أمامه نضدا، قامت عليه زجاجات وثلاث كؤوس وجردل صغير أنيق بنفسجي اللون ملئ ثلجا، وطبق نضد فوقه فاكهة علي هيئة هرم .. أومأ يوسف إلى النادل، فانسحب وراحت الفتاة تملأ الكؤوس .. وجاء النادل بعد قليل ممسكا ببعض السجائر المحشوة بأجود أصناف المخدرات. تصاعدت الدخان لتكتب لهم لذة ومتعة الخيال .. بعد أن ابتلت الكؤوس بالخمر والنبيذ وتطايرت العقول .أشار يوسف إلى فتاة ترقص تحت الأضواء،

وقال

انظر يا إيثان إلى تلك الفتاة إنها تجيد رقص البطريق. لكزه إيثان في كتفه وهو يقول ضاحكا

- هذه رقصة الباندا. أمسكت أديل بيد يوسف، وقالت هيا جوزيف لنرقص.. يبدو أن يوسف أثقل في تجرع الخمر فانتصب واقفا بصعوبة، وقال هيا بنا يا برج إيفل، وأطلق ضحكة عالية لا شك أنها جذبت انتباه الجميع .. رقصا تحت الضوء الأحمر تخالطه ألوان خافته، أظهرت أديل مهاراتها في الرقص فكانت مثل الثعبان بين يديه، وفي منتصف الليل قرر يوسف الانسحاب. ودع إيثان وأديل وغادر البار ثملا يترنخ.

بعد أسبوع من السهرات الليلية المتواصلة غادر إيثان الغردقة، وترك أديل تستكمل رحلتها. بعد أن أوصى يوسف على عنايتها، والحفاظ على سلامتها .. فأقامت معه. فكانت خير أنس، في النهار يتجولا الغردقة، وفي الليل يسهران بالملهى. علمته شرب الخمر، كما أيقن النارجيلة ، تعتز بالخمور الفرنسية. أمر مضحك أن تدافع على صناعة بلدها في الخمور والمسكرات. كان يوسف يدفعه فضول للتعرف علي قصتها مع إيثان، ولكن خشي أن يُحرج، ففضل أن تبدأ هي ، وفي ليلة كانا يتجولا بالسيارة التي تركها إيثان، قررت أديل أن تكون السهرة على نفقتها. قبل الأمر بعد إصرار بالغ منها، فتوقفت إلى جانب الطريق، واطفأت المحرك، لتشير إلى مطعم أسماك. وعقب انتهائهم من الطعام، دلفا إحدى المقاهي، فاقتعدا طاولة تطل على البحر، وبعد أن قدمت لهم المشروبات. بدت أديل تسأل عن قصته، فقص عليها حياته منذ أن بدأ عامل نظافة حتى وقتهم. وظهر

على ملامحها الإعجاب .. وقصت بدورها حياتها، ولكن ما أعجب يوسف أنها غير متزوجة.

بعد أسبوعين من الحفلات الليلية أخبرته بأنها ستعود إلى بلادها، فظهرت الخيبة علي وجه يوسف، حاول أن يعدل عن وجهتها، فأخبرته بأنها لا تمتلك نقود تقتاد أيامها المقبلة، فعرض عليها العمل في الملهى، فأبت ولكنها وعدته أنها ستأتي مصر قريبا إذا أتاح القدر لها مرة أخرى ، ورحلت إلى بلادها. تاركة يوسف يستكمل الطريق وحيدا، فأصبح يحتسي الخمر، ويضاجع النساء اللواتي يعملن في الرزيلة .. واتخذ النارجيلة صديقة.

غادرت أديل مصر وتركت يوسف يلهو وحيدا في أرض الغردقة، أحست بفقدان شيء، فكان اقترابها من يوسف خلال رحلتها يخلق لها أجواء عائلية بعد أن تفرقا والديها منذ سنوات، لتستكمل حياتها وحيدة وتتجه إلى أعمال الرزيلة لتجد ما تنفقه علي تعليمها، واستمرت هكذا حتى جاءت مقابلة إيثان في أحد بيوت الرزيلة واصطحابها لما رآه من وجه جميل و قوام رشيق، يستطيع إقناع أي شخص بالموافقة على إتمام صفقاته. لم تصارح يوسف بعملها مع إيثان، ولم تعرف لماذا طلب إيثان منها ذلك؟. لكنها ظلت تراسل يوسف عبر الرسائل الإلكترونية، تعلقت بحديثه وانطباعه الهادئ في مناقشة الأمور، وتريثه في المغازلة.

***

قلبي ينقبض عليه، فليس عادته عدم الاتصال، ولا أعرف لماذا لم يأتي كل هذه المدة؟، هل يوجد مدير بهذه القسوة؟، يمنعه لأخذ أجازته الربع سنوية بسبب حاجة العمل إليه، ولا أعرف لماذا يوسف منساق إلى ذلك؟، فالأرض خيرا من الغردقة ... هل حبه لفريدة يدفعه لذلك؟، أردت الاتصال به الأسبوع الحالي لأخبره بمفاجأتي إليه، وأبلغه بانتهاء أعمال التشطيب في شقته.

قالت زينب وهي تحاول تهوين الأمر

- حبه لفريدة دفعه للعمل واكتناز المال. ضرب حسن كفه على كف وقال
- أي حب هذا يجعله يغيب كل هذه المدة. لاذت بالصمت، وسرح خيالها كما سرحت كتاكيتها الصغر في فناء الدار تنبش على غذائها، وتذكرت وجهه الحزين وهو يغادر. فأردف حسن
- إن لم يأت نبأ حتى نهاية الأسبوع سأذهب للغردقة والبحث عنه. قالت زينب بحكمة العجوز

تبحث عن إبره في كومة قش ! فقال مازحا كعادته فلا يستطيع أن يكون جادا كل الجد

- سأجلب مغناطيسا. وأطلق ضحكة يسخر على قوله مثل أي رجل عجوز أعجب بمزاحه. فقالت متعمدة غضبه
- لن تكبر أبدا ولم يهذبك الشعر الأبيض. أمسك بعصا جريد، وضربها بخفه، وقال وجدتها

- سأذهب إلى الشط فهو أخبرني جلوسه في وقت فراغه. فأحست ضيقا عند سماع كلمة الشط، كما لو كانت تريد محوها من الذاكرة. فتابع حسن
- سآخذ أخاكِ، ونذهب إلى الغردقة الأسبوع القادم. فقالت بنبرة هجومية
- الرجل الذي يباشر الأرض يتركها، ويذهب معك لتفسده. نظر لها بحنق. خافت زينب من رد فعله، فرأى الخوف في عينيها. اقترب منها وربت على كتفها، وقال بطفولة لا تخافي لن أضربك يا حبيبتي وأطلق ضحكة ساخرة فزعت كتاكيتها، فثارت ثورتها، فقال ساخرا
- تعاملينهن كأنهن أطفالك.
- نعم .. إنهن أطفالي. فربت على كتفها مرة أخرى، وقال ساخرا قبل أن ينهض من جلسته
- الله يعوض عليكِ .

***

سأذهب إلى نجع حمادي اشتقت لرؤية أهلي. هكذا حدث فتاة روسية على فراشه. عقدت ما بين حاجبيها، وتغضن جبينها، وتقلصت عضلات وجهها.

وقالت

- ستذهب لأهلك وتتركني وحيدة. أشعل لفافة تبغ ونفس الدخان، وقال
- من المحتمل أن أتزوج. اتسعت عينيها ليكمل حديثه
- ما بك؟ ! .

اقتربت منه، وعانقته، وقالت بصوت خافت

- أنا سأرحل بعد شهر، وأنت ستمكث كثيرا، ولم أرك ثانية. نظر لقلادتها الذهبية التي تظهر أنها يهودية، وقال
- صديقي سيعتني بكِ. اقتربت منه وأعطته قبلة حارة. وقالت
- أنت جميل جوزيف.

في اليوم التالي سافر إلى قنا ولكن هذه المرة بسيارة إيثان، وصل الدار في الثلث الأخير من الليل. كان حسن وزينب يقرؤون القرآن، سمعا صوت يوسف من الخارج، فأسرع حسن ليفتح الباب، واستقبله بالأحضان والعتاب وجاءت زينب خلفه، وقالت متلهفة وهي تزيح حسن

- لا عتاب الآن. فضمته إليها، واذرفت الدموع دون استئذان، ورسمت على وجنتيه ستة قُبلات، جلسا في فناء الدار على أريكة خشبية يتسامرا، وزينب في المطبخ تعد الطعام رغم إقسامه أنه ليس بجائع .. مد بصره علي شقته فوجدها مطلية بالألوان، فحدثه حسن على تشطيبها، فأصبحت شقة على المفتاح، ولم يفته الإشادة بدور الرسام،

وحكا له على جمال السفينة فى حجرة الأطفال، وأخبره بالنقش الذهبي في السرير والدولاب .. فقال يوسف

- لو علمت كل هذا لما أطلت عليكم كل هذه المدة. فقال له حسن منزعجا
- اتصلت بك كثيرا لأخذ رأيك في بعض الأشياء ولم أمل من صوت تلك الفتاة التي ترد بآلية مسجلة " الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا أو غير متاح " وتسأل عن السيارة. فقال يوسف
- هذه سيارة مديري الأجنبي، قد ذهب إلى بلاده ولن يعود الآن. جاءت زينب حاملة الطعام ، تربع حسن على مسند، وسحب يوسف مسند وبدأ في تناول الطعام، وأبت زينب الجلوس فصعدت الدرج في سرعة ورشاقة، وراحت تنظف غرفة يوسف، وعقبها أعدت الشاي وجلست بجانب يوسف تتفحص جسمه، واطمأنت على صحته، وسرت بعافيته،

وقالت مازحة

- بدنك أتى على أكل الغردقة. وقال حسن مداعبا زوجته
- وكيف لا يأتي على رؤية الجميلات من الأجانب؟. فقالت بحنق وكيف ينظر ولديه فريدة؟ ، وتردت الهجمات ويوسف يستمع ويطلق الضحكات ... وبعد أن غلبه النعاس قال لهم
- سأذهب للنوم قبل هبوط أشعة الشمس.

– ليس قبل أن ترى الشقة.

نهضوا جميعا وصعدوا إلى الشقة، دار يوسف دورة استكشافية ، وكانت آية في جمال البناء ونفاسة النقوش فتولته الدهشة، وأدرك أنها لا تقل عما رآه في الغردقة. كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة، ففي مواجهة الداخل صالة، وهي تفتح على دهليز يؤدي إلى حجرة الجلوس وعلى جانبها الأيمن بابان، أحدهما لحجرة النوم والآخر لحجرة الاطفال ..

وبعد الانتهاء دلف يوسف غرفته قصاد شقته وهبط حسن الدرج وسارت زينب خلفه لتقضي مهام الدار، ودبت الحياه في القرية، وجاء الأخ الاصغر لزينب يطرق الباب متسائلا عن السيارة الموازية لجدران الدار فأخبره حسن، وذهب إلى عمله، وعاد في منتصف اليوم؛ ليجد يوسف ما زال نائم، فانصرف، وعاد في المساء، واستكملت طقوس الاستقبال. وفي اليوم التالي تحدث يوسف مع حسن حول خطبة فريدة، وبعد ثلاث أيام استعد يوسف لزيارة فريدة، فذهب للمدينة وابتاع الهداية، وعاد للدار؛ ليجد حسن يرتل القران، وزينب تمسك بقفص من الجريد تضع فيه الحمام، ثم كسته بقماش، وجلبت من غرفتها قفة كبيرة تكدست فيها أوراق اللحم الملفوف وأنواع الخضر المتباينة والفطائر السابحة بالسمن البلدي، وجاء طفل حاملا أكياس الفاكهة وضعها بجوار حسن، الذي دس يده في حافظته لينقده. تكدست شنطة السيارة واستقل حسن المقعد الأمامي وجلست زينب في الخلف. انطلقت السيارة في شوارع القرية الضيقة، وراح المارة يفسحون لها الطريق، عندما يرون يوسف من النافذة تنفرج أساريرهم،

ويغمغمون

– يارب أوعدنا.

تهيأت فريدة لضيافة يوسف كأفضل ما تتهيأ الفتاة لخطيبها، ووقفت بالشرفة تنظر كل حين علي ناصية شارعهم تترقب قدومهم. رمقت سيارة سوداء. راحت تحلم بقيادتها مع يوسف، وقبل أن تكمل خيالها، توقفت السيارة أمام البيت ، رأت الباب الامامي ينفرج فتوارت سريعا. سمعت صوت يوسف يتحدث مع حسن، فأطلت بحذر شديد فلمحت يوسف وأهله، فانفتحت أساريرها، وراحت تنادي والدتها، وطلبت من أختها أن تفتح الباب، ونظرت إليهم من الدرج، وهم يدخلون إلى حجرة الضيافة، وصعدت سريعا لحجرتها واقفة أمام المرآة تعدل من ثيابها ولفة حجابها، وراحت تعد الشاي، ودلفت حجرة الضيوف في حياء، وضعت الشاي على المنضدة، وجلست بجوار والدتها بعد أن ألقت السلام، وتصافحت مع أم يوسف، وحصلت على القُبلات الستة. دار حوار عائلي، وتفاجأ الجميع برفض والدها، فقال حسن بلهجة هجوم

– لماذا لم تقل هذا الكلام حينما جئتك من يومين؟

– لم أرد إحراجك أمام أخي، ظننت أن يوسف متفهم الموقف من المرة السابقة، التفت حسن إلى يوسف الذي نكس رأسه، فلم يكن يعلم بمجيئه من قبل،

وقال مواصلا، هجومه

- لا تدار الأمور هكذا يا عمدة، ظننتك أكبر من ذلك. فقال العمدة بوجوم
- لم اعتاد الإساءة لأحد في بيتي، فهذا ليس من كرم الضيافة، لك ما تقول، ولكن احترم جلوسك في داري. لم يرد حسن فقط نظر إلى يوسف وهم للمغادرة فقال العمدة
- أبعد يوسف عن ابنتي وإلا لم يلق طيبا. فقال يوسف وهو ينهض
- لن تكون لأحد غيري والأيام بيننا. استشاط العمدة غضبا، وعصر قبضة يده وهو يقول محذرا
- مثلك لا يحسن العواقب، فأنت ملئ بحماس الشباب، أحذرني أفضل لك، ونهض وهو يستكمل حديثه منهيا لقائهم
- خذ ما جلبت وأنت راحل.

حسنا أيها العمدة، لنرى ماذا ستصنع الايام القادمة؟

قالها يوسف وهو يغادر مع أهله. اشتق الطرقات بسرعة جعلت قلب زينب يعلو وينخفض، وحسن يجلس في الأمام واجم لا ينطق بكلمة حتي وصلا الدار ... لم يغمض له جفن في هذه الليلة، جلس القرفصاء على سريره يفكر فيما حدث، فحين أبلغه حسن بميعاده مع العمدة، ظن أنها موافقة مبدئية، أعتقد أن المال غير قرار العمدة، يرجع بذاكرته للقائه الأول مع العمدة وهو ماسك العصا " حين تمتلك قدرها تستطيع أخذها " إنه الآن يقدر على قدرها .. ظل حائر عن سبب رفضه. وفي دار العمدة تتحدث والدة فريدة مع زوجها وتلومه عما فعل، فهي تعلم أن ابنتها تتعلق به، ولكن

صلابة العمدة حدت من هجومها واستسلمت لقراره، بينما فريدة تجلس في غرفتها، والدموع تنهال علي وجنتيها، لا تعلم ما سبب رفض والدها، لماذا يفعل معها ذلك؟! .. صعب هذا الإحساس الذي يجعلك كالألة يتحكم بك الآخرون، حتي لا تستطيع المقاومة.

دخلت والدتها، فوجدتها جالسة على حافة السرير، والدموع تملأ عينيها، ضمتها إلى صدرها وربتت على كتفيها مواسية لها. ترفع فريدة عينيها فتتلاقى بأعين والدتها،

وهي تقول بنبرة يملؤها الحزن والأسى

- لماذا فعل ذلك؟، لماذا؟ وكررت سؤالها بانهيار عصبي ممزوج بدموعها، فارتد الحزن والأسى ليكسو والدتها لتتابع فريدة وهي تنظر إلى مرآة سريرها.
- حين أخبرني بمجيء يوسف، لم أتمالك نفسي من الفرحة، ففلتت مني صيحة، جعلتني أشعر بالإحراج أمامه، ألم تكن هذه الصيحة دليل على فرحتي، وإثبات إلى طريق سألقي به حبي، لما سايرني وأعطاني أملا في الحب وسلبه فجأة، لما يا أمي لما ؟... وراحت تلكم الوسادة ووالدتها صامته ساكنة كبقية جسدها لا يتحرك بها شيء سوى دموعها، فاستطردت فريدة
- كنت البارحة أعيش في صمتي وحبي الدفن فإن تألم قلبي انسدلت تحت فراشي، وعشت مع خيالي، فكيف أعيش الآن بعد أن أبصر النور وسلب مني !! ثم قالت بنبرة مغايرة تماما عن سابقتها

- وما ذنب يوسف الذي يسابق الأيام كي يصل إلي. جاء به وأهله ليمارس هوايته السخيفة فقاطعتها والدتها بنبرة حادة
- فريدة . لتصمت فريدة وتنسدل تحت فراشها بصمت، تغادرها والدتها وتتركها تعيش مع دموعها، وتسطر أحزانها تحت فراشها. أحيانا ندافع عن مذنبين، ونلتمس لهم العذر، ونعتقد بسذاجة أن هذه ليست طبيعتهم وهم في الأصل طيبون القلب ! لمجرد أننا نريد ذلك.

***

صار يوسف أكثر حزنا بعد خيبته الأخيرة، بعد جهده وتفانيه في العمل من أجل حبه، أصبح مرفوض، وعاد من نقطة البداية، ظل شاخصا في السقف يفكر فيما حدث، لماذا أراد العمدة إحراجه أمام ابنته؟، يعجز عن الإجابة ... نهض واقفا، وسار بخطوات بطيئة نحو المرآة وطالع وجهه، وكأنه يطلع وجه غريب عنه .. عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، وأنف ذو انحناءة لطيفة يتوسّط وجها مستديرا ظللته لحية خفيفة وبشرة لفحتها شمس الصعيد آفاق علي صوت رنين هاتفه،

أجاب في حياء، أتاه صوت أنفاسها في سماعة الهاتف وبعدها أجابت

- كيف أنت اليوم؟
- أنا .. لا أدري .. أتذكر نفسي آخر مرة قبل مجيئي إليكِ. أخذت فريدة نفسا عميقا كأنما تعيد ترتيب أفكارها، وقالت متماسكة
- أريد رؤيتك. نظر لساعة يده فوجدها الثانية بعد منتصف الليل فقال

- كيف ومتى؟ .. واعترض لما رآه في خياله من عواقب. فألحت عليه. فوافق بعد إلحاح مرير منها. استند على أقرب كرسي، ثم جلس ودفن رأسه بين راحته .. ثم بدأ في بكاء لم يعهده من قبل ثم نهض واستعد للذهاب... أخذ سيارته، واشتق الشوارع على عجل، وحين وصل الدار، رأى فريدة مطلة من شرفتها فأمسك بهاتفه، فأضاء هاتف فريدة، وتوسط رقمه شاشة هاتفها، فنظرت إليه والدموع تنهال على وجنتيها فأشار إليها بالرد، ليستمع إلى صوت تلك الدموع ، فقال لها محاولا التماسك وهو يقرب الهاتف من فمه
- لن تكوني لغيري أبدا. رأت ملامحه بعد أن أضاء هاتفه في وجهه، فقالت له
- ابق هاتفك هكذا، أريد التشبع برؤيتك وملئ عيني وقلبي بملامحك .. لتأذن عينيه بالدموع. رأت الدموع تملأ عينيه، فأردفت
- أنا أتشبث بقوتك فلا تخيب رجائي، نظر لها بيأس ملأ عينيه .. وأجاب كطفل مطيع
- لن أجعل الخيبة تسكنك .. ساد الصمت دقائق وكلاهما يتأمل الآخر. كان حديث الدموع يفوق كلامهما بمراحل. فلم تستطع فريدة التماسك. بينما يوسف أصبح هشا لا يقوى .. فقال قاطعا الصمت
- عملت في أوقات الفراغ لأقصر المسافات بيننا
- أعلم ذلك .. ولكن ... ولم تكمل حديثها فقال في رجاء

- لا أريد سوى عهدا بأن تبقي لي .. فقالت وهي تخبئ دموعها بطرف الطرحة

- فمثلك يضحى من أجله بكل غالٍ ونفيس.

ساد الصمت ويوسف يتأمل ملامحها التي بهتت من الأبخرة التي تكاثفت على زجاج النافذة إثر ملامسة أنفاسه الدافئة له، رفع أصابعه ورسم قلب وفي داخله " فريدة " . رأته يرسم قلب وكتب شيء بداخله لم تستطع تميزه فكان الاسم معاكس لجهتها، فسألته، وأجابها .وما أنهت قولها فوجدت يوسف يندفع بسيارته، جعلت الأرض تصدر آنين فظنت أنها أنين الفراق؛ ليحدثها بصوت عال، وهو يقول لها والدك سيأتي الآن، أغلقت باب شرفتها بسرعة، وما أنهت المكالمة فتناهى إلى مسمعها زامور سيارة والدها شعرت برعشة تسري في قلبها. ابتلعت ريقها .. أخذت نفسا عميقا كي تهدأ، ثم أغلقت إضاءة غرفتها، وأحكمت غلقها، واندست تحت فراشها يرتعد جسمها، وانطلقت دموعها لتواصل مسيرها على تلك الوجنتين .. وجد يوسف مسجد بالقرب من نهاية الشارع، فنزل من سيارته منتظرا صلاة الفجر، فوجد فيها إخفاء لسبب وقوفه أمام دار العمدة .. أذن الفجر، وأدى صلاته، وجلس يدعو إلى الله حتى أتاه صوت الشيخ ليخبره بأن المسجد سيغلق، فنظر حوله فلم يجد أحد غير الشيخ. نهض وهو يعتذر له بابتسامة خفيفة .. وبعد أن خرج تفاجأ بالعمدة يقف بجوار سيارته شاخصا في زجاج نافذته، نظر العمدة إليه بغضب، فارتبكت الكلمات علي لسانه .

فسأله العمدة وهو يجتز أسنانه

- ما هذا. مشيرا إلى الرسمة. نظر يوسف إلى الأرض وقال
- إنني أريد خيرا، نظر له وهو يكور يده، وقال وهو يلكمه
- خير !!

فصمت يوسف وراح العمدة يلكمه بعشوائية، كما لو كان صمت يوسف أغضبه، وبدت الدماء تسيل على وجه يوسف فجاء الشيخ بعد أن بلغ ذروته، وهو يراقب الموقف من بعيد وزج نفسه حائلا بينهم، ونجح في فك أثر يوسف هاجم العمدة على سلوكه، وهدأ من روعه، قبل أن يسحبه من يده ويغادرا المكان.

عاد يوسف إلى الدار ملتف بملفحة أخفت جروحه، ودلف غرفته وراح في ثبات عمي، وفي اليوم التالي قرر الرحيل إلى الغردقة. بينما ظلت فريدة حبيسة حجرتها حتى أتتها والدتها

قامت بسرد الأحداث لأمها .. تحكي وهي مضطربة حزينة لما وصلت إليه وأمها تستمع بإنصات .. تعلم جيدا صعوبة الموقف، فجعلت تهدئ من روعها، وأظهرت أنها في صفها فما دور الأم إن لم يكن في مثل ذلك الموقف. طمأنتها وحدثتها عن قصص مشابهة انتهت بانتصار القلب فقط لتريح قلبها .. ثم كاد قلب فريدة ينخلع من موضعه حين صاح صوت خشن مفاجئ، إنه صوت أبيها، التفتت إلى الباب ، كان أبيها يقف واجما، اقترب منها وسحبها من يدها بشدة، وهو يعنف والدتها، وراح يلقي

نصائحه المعتادة، ولم ينجرف إلى ما حدث ليلة أمس ... وأنهى نصائحه بمقولته المعتادة " لقد تربوا علي نظرة واحدة تجاه الأغنياء "

قاطعته فريدة وهي تختبئ خلف والدتها

- ألا تفهم سور لغة المال؟ وامتزجت تنهداتها بنبرات صوتها فما كان من والديها تمييز كلماتها، ولكن كانت نبرات صوتها و دموعها أكثر تعبيرا.

ركل كرسي أعاق طريقه في حنق شديد وغادر الغرفة. مسحت الأم بحنان على خد فريدة وقالت بإشفاق لا أنكر أن الحب يستحق أكثر من ذلك، ولكن ما حيلتي .. وأذرفت الدموع معلنة تضامنها مع ابنتها.

***

ضيعة

لم يكتف العمدة بما فعله بيوسف، فذهب إلى دار حسن وحذره من عواقب ابنه .. اكتشف حسن فعلة يوسف الثانية، يعرف اندفاع الحب جيدا. هاتف يوسف وأخبره بما حدث، فتنغص فؤاده وتعكر مزاجه، فلم تستطع الفتاة الأجنبية إصلاح ما أفسده العمدة .. أما حسن ظل يفكر في حديث العمدة، كيف استطاع أن يصمت وهو يحذره ويتمادى في إساءة تربية يوسف؟، كانت ثمة أصوات تعتصر رأسه

- ستظل ضعيف إلى متى؟، لماذا تركته يسيء إلى يوسف، ويتمادى حتى

قال لن يرى الشمس مرة ثانية.

- لم أرد تعقيد الأمور، متفهم جيدا شعوره الذي أوهمه وتماديه في الأوهام حتي أحس بانتهاك عرضه، لذلك صمت

- لا تخدع نفسك، من يطأطئ مرة إلى الإساءة لا يستطيع الوقوف أمامها، فالكرامة لا تتجزأ
- خوفي على يوسف من أخزاني، لا أريد أن يمسه الضر، فصمتي عن الإساءة قد تشفع له
- الصمت عن الإساءة يولد الاستهانة، فاحذر أن يستهين أحدهم بك.

ظلت تنهش أصوات المعارضة رأسه، وسيطر عليه القلق والتوتر وراح يتابع يوسف بلهف خوفا من مكروه يصيبه.

ضاق صدر يوسف من مكالمات حسن اليومية ونصائحه الواقية، فالدماغ العامرة من المسكرات لا تحتاج إلى من يعكر صفوها، فقرر إغلاق هاتفه، ليزداد قلق حسن كجزء من عقابه على ما فعله بيوسف فهو من أوهمه بأن " الحب حياة لا يعيشها إلا من في قلبه صفاء "

***

حين صار ظل كل شيء مثله، كان يجلس حسن رفقة أصدقائه يتسامرون، تنفرج أفواههم حين تمر امرأة أو فتاة أمامهم . يطالعونها بدقة، وهي تغمس جرتها في إملاء حتى إذا امتلأت رفعتها على رأسها، وتنهض تسعى بها رشيقة رائعة الجمال تسير أمام مجلسهم فتنفرج أساريرهم مرة أخرى، فيشكر أحدهما من اختار موضع الطرمبة.

ويرد عليه آخر قائلا

- الشكر لارتفاع فواتير المياه فلولاها لما لجأوا للطرمبة ... يلقي آخر بعض النكات والقصص الساخرة، لينفقوا باقي يومهم ضاحكين...

وبينما يعج المجلس بالضحك رن هاتف حسن ليرد في عجل آملا أن يكون المتصل يوسف .. تقلصت ملامح وجهه وهو يصيح

– ماذا تقول؟ ... ماذا تقول؟ وهمهم بكلمات لم يفهما أحد من رفاقه

وأسرع نحو دار العمدة متخطيا قريتهم الصغيرة سيرا على الأقدام. وقف أمام دار العمدة يخبط الباب في عشوائية، وهو يواصل صيحاته الغير مفهومة، وتجمهرت الناس من حوله فظنوا أنه مختل، أما رفاقه يحاولون أن يهدئوا من ثورته، وقد ظنوا أنه آتي لاسترجاع حق سلب منه. أقبل العمدة بسيارته بعد أن هاتفه أحد الجيران؛ ليجد حسن يتهمه بأنه زج بيوسف في السجن .. نفى العمدة الاتهامات الموجهة إليه .. وأمره بالمغادرة قبل أن يلحق بيوسف ... عاد المسكين مكسور الخاطر؛ ليجد زينب تنتظره أمام الدار في حزن وأسى فالخبر انتشر كالنيران التي تآكل في قش الشعير. وقف أمامها والدموع تملأ عينيه، يحجزها كمن يداري سوءته،

فسألته وهي تضع يدها على قلبها وتجيب في الوقت نفسه

– ماذا حدث ليوسف ؟ إنه بخير .. أجبني إنه بخير .. وبدأت تندب حتي أغمي عليها، ونقلت إلى المستشفى ورقدت بها يومين لم يعرف حسن أو شقيقها النوم .. وعادت إلى الدار وهي على لسانها .. أين أنت يا يوسف؟.

ذهب حسن إلى الغردقة بعد أن فشلت كل محاولات الاتصال بالرقم الذي أبلغه بأمر يوسف، ولبث يومين يسأل من مكان إلى آخر، لا يعرف قبلة لعمل يوسف وعاد منكسرا، يدعو الله بلطف القدر. ومرت الأيام، وظل اختفاء يوسف مسار الحديث في القرية، قبل أن يتلاشى يوما بعد يوم حتي صار كأنه أمر تناساه الجميع عدا فريدة التي بدا علي أفعالها لم ولن تنسى ما حدث أبدا في تلك الليلة التي حاولت أن تصالح والدها وتترجاه في الموافقة .. فنهضت وقتذاك، وسارت نحو المندرة التي اعتادت أن تشهد بقية ليلته، واقتربت من الباب بحرص مترددة، فوقفت تصوغ كلماتها، وترتب أفكارها، فتناهى إلى مسامعها صوت والدها، وهو يوصي أحدهم علي إيذاء يوسف فانقبض قلبها، وصعدت إلى غرفتها قبل أن يراها أحد، وراحت تدور في ذهنها أفكار عدة، حاولت الاتصال بيوسف من أرقام مختلفة فلم يجبها .. وخطت في الذهاب إلى دار حسن فلم تجد ما يهيئ لنجاح خطتها، فلا تعرف الدار، ولا مسموح لها ببلوغ أقصى من دكان البقالة، وما كان باديا أن الجهد التي ستبذله لاحقا من أجل حبها سيكون أضعافا مضاعفة عما سبق.

***

صارت الأيام تشبه بعضها لدى زينب حتى طرق الباب بأيدي رقيقة، فتحت الباب لتجد فتاة في عقدها الثاني، تتلفظ أنفاسها يبدو أنها قطعت مسافة لا بأس بها، أخبرتها بعد أن هدأت أنها صديقة فريدة ، فمصمصت زينب شفتيها وهي تشير لها بالدخول ، لاحظت الفتاة حنقها، ودلفت الباب

دون اكتراث واقتعدت كرسي خشبي في فناء الدار، وهي تتطلع إلى تلك العجوز التي أكل منها الزمن وشرب

وقالت بعطف

- ألم يأت نبأ عن يوسف؟ .
- جئتِ لذلك ؟ اضطربت الفتاة وقالت
- حال فريدة أصعب مما تتخيلين، إنها تحملت الكثير من أبيها وما باليد من حيلة. لحمت زينب كفيها ببعضهما، وحدقت إلى الأعلى لتخترق بنظرها فتحات السقف الخشبي، وتتمتم " حسبي الله ونعم الوكيل ... " فأردفت الفتاة
- نقلت فريدة إلى المستشفى، وتحتاج إلى رؤيتك .خبطت يدها على قلبها وهي تقول
- مستشفى!!
- بعد أن أحست بما مس يوسف من سوء لم تستطع السكوت أمام ثورة والدها وتفاجأنا جميعا بما رمته من اتهامات إليه، فقالت إنها سمعته يحرض أحدهم على إيذاء يوسف.

وامتنعت عن الطعام حتي فقدت وعيها، ونقلت للمستشفى، وبعد أن استرجعت جزء من عافيتها طلبت مني خلسة أن آتي إليكِ، وأخبرك بأن يوسف سيعود قريبا إلى حضنك، فعاهدها والدها بذلك

- لا عهد لمنافق يا ابنتي وتابعت بعد أن نظرت في أعين الفتاة.

- سامحيني فما رأيت منه خيرا. ابتسمت الفتاة وقالت
- لا عليكِ يا أماه، ونظرت إلى ساعة يدها وواصلت.
- يجب أن أرحل الآن .. وعند وصولها إلى عتبة الباب قالت لتذكرها
- لا تنس أن تذهبي إلى فريدة. أومأت زينب وهي تقول
- لم أتعرف على اسمك لأخبر يوسف حين يعود إلى سالما معافى ابتسمت الفتاة وقالت مؤكدة لكلامها
- سيعود إن شاء الله، أبلغيه أنني فتاة البقالة. تلاصقا حجبي زينب من غرابة ردها، واكتفت بابتسامة عريضة معلنة انتهاء عادة النساء المفضلة " حديث عتبة الباب " . أتى حسن بعد مغادرة الفتاة؛ ليجد زينب تقتعد الكرسي الخشبي واضعة يدها على خدها تفكر فيما نقل عن فريدة، وبعد أن رأت حسن، نقلت له حديث الفتاة، فسألها عن اسم المستشفى، فلم ترد. حينها أدرك حسن حقيقة أن " غالبا ما يكون حديث الإناث قليل الثمر.

***

تحت ستار الظلام الحالك أخذ يوسف يطوف بأركان الغرفة لا يعرف سبب تكبيله أتاه بصيص ضوء من خصاص الباب الحديدي. تشبث متطلعا إلى مصدره

وهو يقول منتحبا

- لماذا أنا هنا؟.. أريد أحد يجاوبني

ليكون هذا آخر سؤال عن سبب وجوده فمنذ أسبوع، وهو يطرح ذاك السؤال، دون فائدة

أتاه صوت خشن يعنفه ويتوعد له بالتذنيب. يطلب يوسف قضاء حاجته، فيزداد الآخر غضبا ويتوعد له بالعقاب أكثر لعدم تذكره موعد قضاء الحاجة الذي يتبقى عليه سبع ساعات، يئس يوسف، وتكور في أحد زوايا الغرفة وهو يتمتم بالدعاء إلى الله .. عاد إليه صوت الرجل بعد أن تذكر فيما جاء إليه، فإنه يحمل له صحن فول ورغيفين .. يدفع بهم عبر شراعة الباب الصغيرة، يحتك الصحن بأطرافها من شدة ضيقها، ينتصب يوسف واقفا مندفعا لإطفاء جوعه ... لولا الظلام ما كان يأكله. " قد يأتي الشيء الذي نبغضه في صالحنا فلا تنفر كل النفر " بعد سبع ساعات، أتاه ذاك الرجل ليغمض عينيه بلحافه وسحبه لقضاء حاجته، ثم أعاده مرة ثانية للغرفة. و بعد أن رآه مطيع قال له الرجل مشيدا بتفهمه

هكذا أفضل يا يوسف مما سبق وهو يقصد أيامه الأولى وثورته العارمة في معرفة لماذا أتى إلى هنا .. ؟! فبات يوسف مسالما في يده، حتي تطلعه في محاولة اكتشاف المكان وهو يرتدي الغمامة امتنع عنها .. استمر الوضع على ما هو عليه حتي أتاه الرجل وهو يحمل طعامه ليخبره بأمر هام.

***

فكرت أديل في السفر إلى الغردقة، اشتياقا إلى تلك العيون البندقية، وتغير الأجواء بعد موسم من العمل الشاق، فإنها لحقت بعمل في إحدى شركات الأدوية، بعد أن أنهت عملها مع إيثان فمن قواعد العمل مع إيثان أن لا تزيد

مدة العمل عن عامين. مع اقتراب موعد الأجازة تطلعت إلى هاتفها بحثا عن رقم يوسف، ولكنه مغلق مثل بقية وسائل الاتصالات الإلكترونية .. أرسلت رسالة عبر موقع التواصل الاجتماعي " الإنستجرام " عله يراها حين يفتح

" صديقي جوزيف .. أنا من باريس آتية، ولك مضحية بوقتي و موطني، وقلبي قبل الأولى والثانية "

راحت تتجول في هاتفها .. تتفحص صور جمعتهم في الغردقة .. تتأمل عيونها الزرقاء وعيونه البندقية، ترى فيهم تناسقا. إذا أحب أحدنا جعل قوانين الأرض خاضعة له، متناسيا ضرر قد يلحق به. خطر ببالها أن تتواصل مع إيثان فهو الأقرب إلى يوسف، ولكنها أجلت المكالمة تاركة فرصة الرد ليوسف.

***

يسر

وسط الظلام الدامس انبعث إلى مسمعه همسات أقدام. اقترب الصوت من غرفته. اشتعلت الإضاءة، ليرتجل يوسف ويراقب مقبض الباب وهو يدور ببطء، فتسرب إلى جسده الخوف، فتح الباب، وانطفأت الإضاءة في الوقت ذاته، فارتعدت مفاصله من الخوف، وهو يصرخ بداخله، ماذا يحدث لي ؟!! ثم سمع صوت إغلاق الباب، أمسك برأسه خوفا، وهو يضم قدميه ويديه متخذا وضع الجنين .. أشعلت إنارة الغرفة مرة أخرى فراح يحدق في الباب منتظرا دوران المقبض .. أتاه صوت من خلفه ، أطرق لثانيتين، ثم أدار رأسه ببطء نحو الصوت ليجد شخصا بدت على هيئته الهيبة وأضفى شعر رأسه الأشيب ونظارته السوداء مسحة من الوقار والرزينة، نهض على ركبتيه، فلفت نظره دراجة رسُمت بالطباشير على الجدار الخلفي.

فقال الرجل بصوت هادئ وابتسامة ماكرة

- تريد أن تقودها ؟ . لاذ بالصمت وهو يتطلع إلى الضابط، فأردف الضابط وهو يشعل لفافة تبغ
- يوسف حسن، ثلاث وعشرون سنة، مواليد نجع حمادي، يعمل كمدير ملهى ليلي في الظاهر .. توقف ونفس المزيد من الدخان، بينما توقفت حواس يوسف عن الحركة حين سمع " في الظاهر " ودارت برأسه هواجس كثيرة، لم يستطع إيقافها، أيقظه صوت الضابط، وهو يرفع نظارته كاشفا علي عينيه، متابعا قوله
- يعمل مع أخطر رجل في ألمانيا، فلا يحل ضيفا علي بلد إلا وعقبها عملية إرهابية. اتسع فوه يوسف، وهو يتابع حديث الضابط بإمعان بالغ وقال
- إيثان !! فأومأ الضابط، وقال
- إيثان السفاح.
- إيثان السفاح !! .. رددها وراءه مندهشا، ولم يستطع أن يزدرد ريقه وأردف مستنجدا.
- لا يجمعني به سوى العمل، لا أعرف شيئا عما قولت، وراح يلطم وجهه ويندب حظه، وهو يردد علي لسانه " سفاح .. سفاح " فلكمه الضابط وهو يقول
- اهدأ. فهدأت ملامح يوسف، والدموع رغرغت عينيه، فتابع الضابط
- نعرف كل شيء ولا نحتاج إلى اعترافاتك فقال يوسف بانكسار

- إذن لماذا أنا هنا؟. فقال الضابط وهو يحدق بعينيه
- مثل قضيتك يتورط به مغفلون كثر، وقد يظلم نفسه باندفاعه وتهوره .. فأنا أعلم أنك آلة استخدمها إيثان، أحتاج منك أن تقوم ببعض الأدوار، ولكن ستعرف كل شيء بأوانه. انصرف الضابط، وأغلق الباب، تاركا الإنارة مشعلة. أسند ظهره علي الجدار، وهو يتذكر سفر إيثان قبل ميعاده، و جلوسه مع بعض المجهولين في الملهى، وتنكره المستمر وراح يربط الأحداث ببعض كما يهيئ له عقله، ويضرب جبينه إذا فهم شيئا للتو.

***

ظلت فريدة حبيسة فراشها، ولكن تبدلت سرير المستشفى بسريرها. والدتها تشفق عليها. أخواتها يلتفون حولها، يحاولون تحريرها من الحزن والأسى، وبصمتها تكتب الفشل لجميع محاولاتهم .. ومع الأيام ضعفت فأحس العمدة نحوها بالشفقة لأول مرة، فإن ضعفها قد هز أوتار قلبه. فهاتف أحد ضباط الشرطة، وأخبره بأن يرفع العقاب عن يوسف ويفك أثره، فأجاب الضابط، وهو يرفع أكتافه مندهشا فهو لم يمس يوسف بعد " تحت أمرك يا عمدة " وظن العمدة بهذه المكالمة سيخرج يوسف وستعود العافية إلى ابنته .. ومرت الأيام والحال علي ما هو عليه، فالعمدة يعتقد أنه السبب في حبس يوسف كما يعتقد الجميع. بينما في قرية يوسف حيث اجتمع أهل القرية في الليل، كما اعتادوا أن يجتمعوا، وأخذوا بأطراف الحديث، وارتفعت أصواتهم، وحسن في صمته وسكونه. كان في عالم آخر

فاغتم وانقبض صدره، وأحس كأنما نارا تلسع قلبه، فغادر المجلس وعاد للدار والنار تنهش صدره.

***

مستلقى على سريره، تراوده أفكار وخيالات، يسترجع ما حدث له بداية من الحقنة التي طعنت بكتفه مرورا بالغرفة المظلمة، وحديث الضابط وتكليفه ببعض المهام، واكتشافه لحقيقة إيثان. كلها أمور أخذت حيزا من فكره، ينهض بتثاقل وهو يشعل آخر لفافة تبغ معه، تراوغه فكره العودة إلى نجع حمادي في أسرع وقت ليطمئن أهله، ولكن رؤيته إلى وجهه الشاحب وجسده الهزيل في المرآة، جعله يعيد حساباته والمكوث في الغردقة حتي يسترد عافيته. ذهب إلى الملهي ليتفاجأ بأن إيثان ترك عقود، تجعله يمتلك الملهي وسيارته. أبلغ الضابط بالأمر ليخبره الأخير بأن إيثان أحس بالخطر، واتخذ الحذر ولن يعود إلى مصر مجددا، فتساءل يوسف عن مصير الملهى والسيارة، وسعد حين أبلغه بأن لا أحد يستطيع المساس بهم .. وفي الوقت نفسه كانت تهاجمه هواجسه، يخش أن تكون هذه حيله من قبل إيثان في ثوب جديد، ولكنه أقنع نفسه بأن لا ضرر سيلحق به، فرحا برزقه. سأل الضابط عن الخطوة القادمة، فأخبره بأن التكليف انتهى مع مغادرة إيثان. فقرر العودة إلى نجع حمادي، وراح يفكر في سبب يجعل هاتفه مغلق حتى الآن، وبعد أن كون حجته وحفظ مبرراته، عاد إلى نجع حمادي.

***

في فناء الدار تعبث زينب بالراديو في محاولة لاستماع نشرة أخبار التاسعة صباحا. بينما يوسف يدلف القرية، ويشتق الطرقات بسيارته، سالكا الطريق الخلفي، متخفيا عن أعين الناس، صف السيارة أمام الدار وطرق الباب، لتفتح زينب مع أول دقة كما لو كان يدق قلبها، وفي الحقيقة هي استطاعت تمييز صوت سيارته فنهضت مسرعة نحو الباب؛ ولولا تعلق قلبها بيوسف لما ميزت صوت سيارته من صوت الراديو العالي، وقد يكون لتواصل القلوب تعقيب آخر. فتحت الباب، فرأت يوسف أمامها، فانقضت عليه حاضنة، ورسمت من القُبلات ما استطاعت، وراحت تميل بظهرها للخلف، لتتشبع من ملامح وجهه، وتعود حاضنه بعيون مدمعه ولسان حامد. قصت له ما حدث بالتفاصيل، واستطاع بذكائه أن يسايرها محاولا ربط الأحداث لصالح حبكته. وحين استيقظ حسن من نومه أخبر زينب من مرقده بأن يوسف سيعود قريبا، وكان لا يعلم بوجوده، فقد رآه في منامه، ليدخل يوسف غرفته فيطالعه حسن وهو يفرك عينيه غير مصدق، فقد صدقت الرؤية .. ارتمى يوسف في حضنه، والدموع ترغرغ عينيه، وراح يقبل يديه، وحسن يمتنع، وعيونهما تتحدث بلغة الدموع تاركا للسانهم كلمات اشتياق خرجت علي هيئة صرخات. جاءت زينب تحمل الفطور لتستعيد أيام زمان، وبعد الانتهاء سأله حسن عما حدث له فراح يقص عليه في بداية صادقة ونهاية محبكة

فقال

– كنت في المصعد في طريقي إلى مسكني، وجدت به سيدة فأعطيتها ظهري، وانشغلت بلوحة المصعد أترقب طابقي، وحين تخطينا

الطابق الرابع أحسست بطعنة في كتفي، لم أدري بعدها بشيء ... أفقت لأجد نفسي في غرفة مظلمة، استمررت بها أسبوع دون أن أرى أحد، فقط أتلقى طعامي من شراعة الباب وأتناوله علي الضوء المنبعث من خلالها. وظل يستكمل وزينب تتفاعل مع كل كلمة فتارة تدق صدرها وتارة تغمغم .. حتى وصل حديثه إلى دخول الضابط وهنا استعان بخياله لاستكمال قصته،

فقال

" طالبني الضابط، بعد أن عرف قصتي بفريدة بالابتعاد عنها، في البداية تمنعت، وبعد ذلك قبلت الأمر حين استخدم أسلوب العنف، فقدرت أن العناد لا يجدي نفعا، وأظهرت تقبلي للأمر حتي أطلق سراحي " . فقال حسن وهو يضرب كف على كف

- جاءكِ كلامي يا زينب، أن مثل العمدة لا يملك قلبا، فقالت زينب التي ابتلت عيناها من فرط التعاطف
- هذا يرجع إلى فريدة فهي التي أوقفت ثورته وكانت سبب في إخلاء سبيلك.

تغيرت ملامحه حين سمع اسم فريدة وقال وهو يتثاوب لا بد من أن أنام وحين اختلى بنفسه فعل هاتفه فلم يعد خائف على قلق أهله وهو يعيش معهم، وما أن عادت الحياة للهاتف، لتتوالي إشعارات الرسائل ، وكانت بينهم رسائل من فريدة، راح يقرأ ليكمل ما بدأته زينب وتكتمل له الرؤية. فحزن لفريدة، ولما مسها من مكروه. رد على أخر رسالة لها، ليدب فيها

الحياة من جديد، فكانت في رقدتها تعبث في صوره، تتأمل لحيته الخفيفة وعيونه البندقية، وفجأة ظهرت رسالته فردت عليه بلهفة، جعلت والدتها تلاحظ تغيرها فسألتها عما حل بهاتفها. فأجابت بخبس غير معهود وراوغتها كاذبة ... وراحت تستكمل حديثهم خلف الشاشات تحت لحافها بعد أن قامت بحركة التثاوب أمام والدتها التي ظنت أنها تتمهد للنوم وتركتها تتعايش مع غطاءها.

***

يستطيع المرء جعل معوقاته مقومات. هكذا بدت فتاة البقالة ليوسف، ففي البداية صنفها بحائل بينه وبين ما يتمنى قلبه " فريدة " ومع مرور الأيام أنقذته حين كان يهاتف فريدة من داخل سيارته أمام دارها، فهي التي أخبرته بقدوم العمدة. وفي ضيقته هي التي وقفت بجوار فريدة وهونت عليها، ونقلت رسائلها إلى زينب. هكذا تبدو لنا بعض الأشخاص نظن بهم الظنون، وفي النهاية ندرك قيمتهم. ليس لأننا سيئون ولكن لضيق رؤيتنا، وقلة تجاربنا.

يسترجع وصف فريدة لفتاة البقالة في آخر رسائلها

" كنت أبغضها أشد البغض، لما رأيته منها في بداية مشوارنا. بدت لي فتاة حقودة، تسيطر عليها غيرة المرأة، لم أكن أتوقع أنها تتقرب مني وتساندني في ضعفي. كانت تأتي لي المستشفى مرتين يوميا على الأقل لتطمئن على وتتودد معي، فلم يكن لدي أحد أفضفض لهُ غيرها رغم التفاف الجميع حولي، فكنت أرى في عينيها صدق مشاعرها تجاهي خالية من نظرة

الشفقة. طلبت منها الذهاب إلى والدتك وإبلاغها بما سمعته، فوجدتها تفعل مثل خيط فتيل يمتص الجاز ليضيء لمبته، فأضأت لوالديك الرؤية "

يأتي من الماضي وهو يعتدل في جلسته بحثا عن سجائره المخبأة من أعين زينب وحسن. يتحسس تحت وسادته، فتلامس أنامله مفاتيح سيارته. يلتفت جانبيه فيتذكر موضعها في باطن حذائه أسفل السرير. يرفع الغطاء بتكاسل، ويمد زراعه ليمسك بها بعد أن حسست يداه كل أحذيته. يستند بظهره إلى خلفية السرير، ويقبل لفافة تبغه، وهو يحدثها " كيف رضيتي بالحذاء مسكنا " يمسك هاتفه ويتطلع إلى رسائلها الغير مقروءة، يفتح أحدهم، لتنفتح أساريره، وتتحرك شفتيه لتردد كلمات الفرنسية أديل. يغلق هاتفه

وهو يحدث نفسه

" تضحي بوقتها من أجلي !!

هل يتيح لها الإرهاب فرصة لتنفق وقتها معي ! هل تحدثني بأمر من إيثان ؟ أم أنها تخطط لنيل نصيبها من الملهى والسيارة ؟ "

كلها تساؤلات طرأت في ذهنه. اتخذ قراره بعدم الرد عليها. يريد أن يتخلص من جميع الأشياء التي تتعلق بإيثان، يريد بدء صفحة جديدة يسلك بها طريقا آمنا، لا توجد به عثرات وغرف مظلمة. ينفس المزيد من الدخان، وهو يضع نفسه في مقعد إيثان وينظر إلى ذاته، يحاول أن يتوقع ما يصيبه .. يعود سريعا بخياله الذي تمادى فيه حتى هلاكه، ويطمئن نفسه وهو غير قانع بما يقول.

تصعد الدرج بخطوات مشابهة لرجال الجيش. تترامى إلى مسامعه صوت خطوات قادمة. يلقي بسيجارته من النافذة، ويسرع نحو الباب ليتأكد من غلقه. يضغط على زر المروحة في محاولة لطرد دخان تبغه المبعثر في أجواء الغرفة. تطرق زينب الباب بخفه ليفتح يوسف بعد الدقة السابعة وبيده معطر الجو. تدلف غرفته وهي تتابع دوران ريش المروحة.

فيقول يوسف بعد أن نظر لما نظرت إليه

- اختلط علي الأمر، وأنا أشعل اللمبة. تضحك وهي تقول ساخرة
- كثر النوم يفعل أكثر من ذلك. الساعة العاشرة صباحا وأنت حبيس فراشك، يبتسم وهو يحك عينيه ويقول
- مجنون من يترك سريره في هذا الشتاء. تضحك وهي تأمره بالذهاب إلى حسن لتناول الإفطار، وأمسكت بقماشة استعدادا لتنظيف الغرفة مانعها يوسف وهو يقول
- لا عليكِ، سأرتب كل شيء بموضعه ويتابع وهو يسحبها بيديه.
- تعالي معي، فأنا اشتاق لتناول الفطار معكِ.

نزلا إلى حسن وتناولوا الإفطار، وراحت زينب تعد القهوة الصباحية ويوسف يراقبها خوفا من أن تصعد غرفته، فتجد كل شيء تبغضه. وراح حسن يقص " قصص الصحابة " التي يعلم أنها تلمس قلب يوسف منذ صغره، ولم يعلم أنها أصبحت ثقيلة على قلبه وتنغص من صفوه، فمثله لا يريد أن يتذكر ما يجعله يترك ملاذه ويتوقف عن مواصلة طريقه.. استمع حتى أنهى فنجانه، وتهرب من مجلسه ذاهبا إلي الشارع ناحية الترعة؛

ليشاهد البط والإوز، وهم يسبحون بأقل مجهود، فيتذكر سباحته مع الأجانب، يتابع سيره متوقفا عند مصطبة الدكان الذي تربي علي رؤية أهل قريته جالسين عليها.. يتسامرون وينفقوا فراغ وقتهم.. وجدها خاوية مفتقدا أهلها. اقترب من باب الدكان وصافحه، وسأل عن أصحاب مجلسه، وأدرك جوابه بعد أن نظر إلى يده وهو يطوي سجادته، فأخبره البقال بأن الآن وقت صلاة الظهر، فتابع تساؤلاته عن بعض الأشخاص الذي اعتاد رؤيتهم فأجابه البقال وهو يصف بضاعته على الرف.

وأردف عقبها بسؤاله المتوقع

- سمعنا بما فعل العمدة. تغيرت ملامح يوسف وارتبك لسانه عن الكلمات رغم توقعه للسؤال فتابع الرجل
- لو كنت مكانك لم أكن لأتقبل ما فعله، وإن كلفني حياتي .. قال يوسف وهو يعبث بيده في علب البسكويت المعروضة
- لم أكبر على ذلك، وحين زادت الفجوة كنت سأفعلها، ولكن تذكرت وعدي لفريدة بأنها لي، وقدرت أن الأخلاق حتما ستنتصر. فقال الرجل وهو يضع كوعه بجانب علب البسكويت حانيا ظهره مسلما خده لراحة يده.
- بئس ذلك. الحب الذي يجعلك ضعيفا. صمت يوسف وهو ينظر إلى وجهه فأردف بكلمات متقطعة
- صغير... تغلبك العواطف... غدا ستدرك قيمة الحب. فقال يوسف
- تراني مخدوع !! فأومأ الرجل. فأردف يوسف

- أرى الحب في كل الأعمار. أراه في الطفل حين يعجز عن ملغاتي، فيبتسم لي أو يمنحني قُبلة على وجنتي أو يبصق علي. أراه في الشاب حين يحتوي عشيقته .. وهكذا في المشيب حين يدلل عجوزه، فيمشط شعرها أو يغازلها أمام أحفادها.. الحب كما قال لي أبي حسن حياة يجاوره صفا.
- ألم تحب من قبل يا عمي ؟ سأله يوسف، وهو ينظر إلى عينه؛ ليرى الحنين للماضي، وهو يتذكر زوجه، وقال بتأثر بالغ
- كانت مسكني. فضحك يوسف مقاطعا حديثه وهو يقول
- إذن.. أنت مصاب بالحب. تابع البقال قوله سريعا، وهو يلوح بيده
- بدت مسكن ضيق ،خنيق. فكانت ثقيلة على قلبي، تسألني عن كل خطواتي.. تأتي الدكان حاملة الطعام؛ لتطعمني بيديها.. وإذا أتت امرأة للشراء همت رشيقة؛ لتساعدها، وهي تترقب عيني فتطمئن أن وجدتني لا أنظر إليها، ولا تكتفي بذلك .. فإذا أنهت خدمتها، أسرعت إلى وهي تعيبها، وإن لم تجد عيبا قالت كما يقال عن الذهب إنه يبرق العين، ولا تهدأ حتى أشاركها الرأي .. خنقتني باهتمامها، فكرهت نفسي. رددت شفتا يوسف ببطء وخفوت
- كرهت نفسك !!
- نعم.. حينما ترى حبك لا شيء أمام حبها تكره نفسك .. حينما ينتابكَ الحقد لأتفه الأسباب، وأنت تمتلك حبا يغطي الكرة الأرضية،

تكره نفسك جعلتني أحس بوخز الضمير لمبالغة حبها، فأيقنت مهما وصلت للحب لن أصلها.

فقال يوسف متأثرا وهو ينظر إلى تلك الدموع التي ملأت عينه

- تحملا كل هذا الحب.
- وأكثر .. لذلك لا أريد أحد أن يحب، فيحس بما أحس، فلدعة الفراق لا توصف. قالها وأجهش بالبكاء. أدهش يوسف وهو ينظر للبقال يبكي !! لم يتوقع أن الحب يرتقي إلى تلك المكانة في الروح .. تذكر لهوه في الغردقة وسط نساء الأجانب، وتنقله بين أحضانهن، حينذاك لم يتذكر فريدة أمام شهواته.. هل سيكون مصيره كهذا البقال العجوز؟ .. يدرك الحب مؤخرا.. فقال العجوز وهو يجفف دموعه كما لو كان قرأ تفكيره
- أصعب شيء هو إدراك قيمة الشيء بعد فقدانه، كانت عبارته هذه نهاية المناقشة، فلم تعد توجد كلمات أخرى. هز رأسه وهو يواريه مستأذنا عائدا إلى الدار، وهو يقول في نفسه ما أكثر رسائل اليوم، وما تحجر قلبي أمامها

تبغ سلب حريتي أمام أمي،

وإحساس بالذنب حجر قلبي لما أحب سماعه من أبي حسن.

وحب جعلني أشيب شبابا من ذاك العجوز.

***

تطل من شرفتها وقد أطبق الظلام. تتأمل اللاشيء. يصرخ صوت بداخلها ليخترق صدرها

" لم أفهم قسوة ما فعله أبي بيوسف، ولا أعلم سبب كل هذا الكره. لا أعلم ما سينوي عليه الآن. هل سيوافق على يوسف أم سيثبت على موقفه، لا أعلم ما تخبئه لي الأقدار "

تقترب من درابزين الشرفة، وتحنو عليه قليلا، وتتذكر وعود والدها وهي راقدة. تحرك رأسها يمينا وشمالا برقة تنتصب، وتمرر يدها اليمنى ببطء على خصلات شعرها. وتكمل حديثها الداخلي

" لا أعلم إن كنت أخطأت أم ظُلمت بما فعله معي والدي، فجعلني أشعر بأنني فتاة عاصية، جالبة للعار. هل دفاعي عن حبي سيشفع لي وتشهد النهاية زواجنا أم سأعيش بقية عمري وحيدة مع شعوري المتناقض؟. أحيانا أشعر بما يشعر به أبي، وأمقت نفسي، وألعن الحب الذي جعلني عاله على أهلي، في فرحي قبل حزني .. لا أريد سماع ما يقلن النساء في الزقاق الدامس علي حصير تآكلت، وهي تتحمل مجلسهن المليء بالثرثرة، واقتحامهن أعراض الناس أو كلام المصاطب بين الرجال. فالناس لا ترحم ولا تلتمس الأعذار. أريد أن أعيش في سلام داخلي، دون إحساس بالذنب، أو تأنيب الضمير. أعلم أني فتاة سيئة، فخالفت وعد أبي حينما كنت حبيسة فراشي، وعدني بأن يوسف سيعود ووعدته بأن أصونه، ومع أول رسالة من يوسف ، لا أعرف كيف خانتني أناملي؟، ليطمئن قلبي لسلامة وصوله الدار، وحينها انتابني ضميري، فاتخذت مقاطعته وعدا،

بعد أن أبلغته سلامي بقلبي قبل أن يرى كلامي، وفي الدار يستطيع أن يبلغ مقامي. وها أنا يا قلبي التف بشال أمي، وفي البرد واقفة، أتمنى النوم يأتيني، فارتاح ولو لثانية من إلحاحك علي بالخيانة التالية. "

تنساب الدمعات من عينيها، ويزداد صوت داخلها صراخا.

" تريد يا قلبي معرفة أخباره، وما وصل إليه، وتثبت أني فتاة لا عهد لي "

تنسحب إلى سريرها، وتنسدل أسفل فراشها ليعتلي أنين الدموع صرخاتها.

***

غموض

حينما يخطئ الجميع تغمض الخطوة القادمة. يتمنى أحدهم الآخر تحريك المياه الراكضة، والبدء في فك قيود الموقف، ينتظر يوسف اتخاذ العمدة موقفا، بينما يعجز العمدة عن تحديد مصيره. يراقب حسن الموقف من بعيد، يخشى الاصطدام وعواقبه. تتصاعب المواقف حينما يلعب الطرفان على سياسة رد الفعل فينتظر أحدهما الآخر. يأتي اتصال من الغردقة ليجبر يوسف على العودة سريعا، تاركا الحيرة لأهل نجع حمادي .. ودع حسن وزينب بعد أن احتقب، واستقل سيارته قاطعا طريقه، غارقا في تفكيره، فيما أتت إليه تلك الفتاة الفرنسية " أديل " وما تخبئه ورائها.

تدلف أديل الملهى، وتدور عينيها في السهرانين فلم تجد يوسف فانقبضت، وسألت أحد العاملين ليرفع زراعه مشيرا إليه حيث يقتعد طاولة اعتلتها أنواع المسكرات... تقترب منه، فتجده يرفع قارورة خمر ويصب منها في كأس، ثم يرفعه وهو يحك القارورة، فقالت أديل وهي تميل عليه " في

صحتك "، ورسمت على خده قُبلة وسحبت كرسيا بجانبه، وهو ينظر إليها في ارتباك، ولكنه لم يشأ أن تلاحظ ارتباكه، فأدار وجهه

وقال وهو ينظر إلى الرقص

- أهلا وسهلا بكِ في مصر ... أتمنى لك أجازة سعيدة .. لاحظت تغيره، وقالت وهي تضغط على يده
- ماذا بك جوزيف ؟ فقال وهو ينظر لها بحنو بالغ
- ماذا ؟ قالها وهو يرسم نصف ابتسامة على شفتيه. أحست أديل بتغيره، وقالت برقة
- هل يضايقك وجودي ؟ ، فقال وهو ينظر إلى النساء
- لا يهمني الأمر. غامت عيناها بالدموع الرافض للانزلاق، وبخفة شديدة سحبت يديها، وقالت وهي تنهض بحزن بالغ
- لم أتوقع منك هذا، وأكملت بعد صمت قصير. هكذا يكون استقبال الأحبة !! نظر لعيونها الزرقاء وهو يقول
- أحبه ! ... ليتكِ تعي ما تقولين. زفرت تنهيدة كبيرة مكتنزة بغيظ وتبرم، وقالت مستأذنة
- أراك طيبا. قالتها وغادرت الملهى والدموع تنثال على وجنتيها. تابعها بنظره وهو يبتسم لنجاح خطته واقتصار جلستها.

سارت أديل بلا هدف، لا تعرف وجهتها، حتى بلغت البحر. جلست أمامه تفكر فيما غير صديقها جوزيف. تشكو البحر همها. تمسك بقبضة من الحصا وتلقي بها علي دفعات، ليبتسم لها البحر في دوامات متتبعة تتوسع حتى تتلاشي " حين تضحي من أجل أحدهم وتجني خذلان، انسحب بسلام "

تلتفت للجالسين في حضرة الشط، يلفت انتباهها شخص خمسيني بدت عليه ملامح يوسف، تأملته وهو يمسك بكتاب لم تتبين اسمه من تأبط راحتي يده، ظلت ثابتة عليه حتى أحس بشخوصها، فاقتربت منه وتطلعت علي ما يقرأ في حركة دعابية، فابتسم لها وهو يبعد الكتاب وألقاها بتحية، عرفت منها إتقانه للغة الإنجليزية ، فطلبت منه التطلع لما يقرأ بهدف الإطالة في الحديث معه، وملء عينيها بشبيه يوسف، امتنع وشرح لها أشياء لا بد من فعلها قبل مسه تسمى بالوضوء. أومأت متفهمه وهي لم تع إلا قسمات وجهه وعيونه البندقية. فقال لها سأسمعك آياته. أسرت بالفكرة، وجلست بجانبه منصته إليه، ومع نبرات صوته الخاشعة أحست بدفء الكلمات واعترتها الطمأنينة حتى ختم قراءته. فطلبت منه المزيد فأعطاها عنوان البريد الإلكتروني الخاص به، ووعدها بإرسال بعض المقاطع الصوتية التي يفضل استماعها قائلا أنها ستروق لكِ. ومع تدني الليل، جاء رجل بسيارته، يصيح من داخلها مناديا على نورالدين ، ومع النداء الثالث انتبه نورالدين، واستعد للمغادرة

فهمست أديل، وهي تمعن النظر فيه

- نورالدين وليس يوسف، لم يسمع نورالدين همسها. أودعها وهو يحمل حقيبته الصغيرة بعد أن دس فيها " المصحف الشريف " تاركا لها مفرشه الذي اعتاد الجلوس عليه، فطلبت منه أن يحمله، فهي ستغادر في الحال، ولكن أخبرها بأن تحتفظ به كنوع من الذكرى. ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة ومدت يدها ليصافحها وهو ينصرف نحو السيارة وظلت تتبعه بنظرها حتي انطلقت السيارة وغامت رؤيتها .. لملمت هديتها، وغادرت الشط وخلفها من يراقبها من رجال يوسف.

***

انطلقت السيارة على الطريق الأسفلتي الذي تحيطه الرمال المترامية على الجانبين .. يجلس هاني على كرسي القيادة وبجانبه يتابع نورالدين الخط الأسفلتي اللامع وهو يفكر في صاحبة العيون الزرقاء .. يبتسم علي حين غرة.. يضحك هاني،

ويقول مداعبا

- كانت تحتاج إلى أجنبية تلك المشاعر لتتحرك؟

رفع نورالدين أحد حاجبيه مستنكرا، وقال

- أبدأ .. ثم تابع وهو يحك ذقنه

- رمقتها تدقق في النظر، ثم جاءت، وجلست جانبي دون استئذان. رمقه هاني في نظرة عفوية تشيع بتشكيك صحة قوله فقال نورالدين

- روحها جميلة، فجاءت مداعبة تُظهر خفة دمها. هز هاني رأسه مؤكدا إنصاته ، فتابع نورالدين قوله
- أسعى لإبصارها النور. فهز هاني رأسه في جهل ليتابع نورالدين موضحا
- أسعى لدخولها الإسلام ، يبدو أن القرآن سكن قلبها حين سمعته.
- ثم تتزوجها ؟ . نظر نورالدين إليه، وهو يقول متظاهرا بالغضب
- لا يوجد لديك غير الزواج.

ضحكا سويا، ثم انتقل الحديث حول مشروع المدرسة الخاصة، وما وصلا إليه مع رجل الأعمال، وأحلامهم نحو النهوض بالتعليم ، والبحث عن أحدث طرق للتعليم عن طريق الشبكة العنكبوتية، فإنهم على مشارف العام الدراسي الأول للمدرسة، بعد أن أصبحت جاهزة لاحتضان أول دفعة من تلاميذها.

***

تجلس على حافة السرير بجانب ابنتها النائمة، تتأمل براءة وجهها، تمسك بالغطاء، وتسحبه نحو أجزاء جسمها المكشوفة إثر تقلبها. سحت دمعة انزلقت بين كرمشات خديها، مسحتها بكم عباءتها. مالت تقبل جبهتها وهي تتأسف نيابة عن العمدة، لم تتحمل فخطت إلى الشرفة وانتابتها نوبة بكاء، تستعيد بها أيامها، فهي اعتادت تقضي ليلها باكية نادبة حظها وحظ ابنتها. جلست و لم تشعر بنفسها، حتي أحست بحركة في الغرفة، فانتصبت واقفة بصعوبة ودلفت الغرفة لتجد العمدة يقبل جبهة فريدة. فأحس العمدة

بوجودها، فارتبكت الكلمات على لسانه. علقت بصرها نحوه لتجده يلتقط عصاه، وتوجه نحو غرفتهم دون أن ينبس ببنت شفة.

" يفيض الرجل بالحب والحنين، ويبخل بإظهارهم "

دلفت الغرفة، فوجدته نائما أو تظاهر بذلك، فمددت بجانبه، وهي تحدثه

- لما تقف أمام قلبها ؟
- رغم حنانك وأمومتك، فأنتِ لن تحبي ابنتي البكر مثلي.
- لا أرى حبا ولا حكمة في فعلك ! . تقلب ودار نحوها، وقال وهو يطالع وجهها
- ليتني لم انصاع وراء كلام الناس، فقالت مستغربة
- وما كلام الناس ؟
- لا يهم فأصبحت قضية ضارة أو عديمة النفع. فقالت في إلحاح
- تعرف أني لا أطيق حديث غير مكتمل، ومع ذلك تزيدني منه
- أحيانا أداعبك، وأصطنع حديث لأشاقتك للعدم ، ولكنكِ تعرفيني حين أحدثك الصدق، فالآن لا أستطيع إكمال حديثي، ولحبي لكِ سأعدك بأن فريدة ستنال ما تمنته. نظرت إليه وهي تغمض أحد عينيها وقالت

- تتحدثون عن كيد النساء، وتجاهلتهم دهاء الرجال. ابتسم وهو يقول نترك ابنتنا، وننشب معاركنا.. بلعت ريقها مرا، وأردفت بتحسر وهي تتذكر تعب ابنتها وسهرها.
- ليتك لم تنصاع وراء كلام الناس. فقال بحكمة
- وما فائدة الحسرة الآن، لا أحد يعلم أين الخير؟

علينا أن ننظر للماضي لتفادي الأخطاء والاستفادة منه فقط، لا نزيد من همنا ولا نبالغ في أحزاننا. أشاح الغطاء ليغطي أجسادهما وراح كل منهما يفكر فيما هو آت.

***

رأيتها تجلس على الشط، ثم اقتربت من عجوز كان يتلو القرآن الكريم، جلست بجواره تستمع إليه في إنصات، وبعد ساعة من تلاوته، جاءت سيارة تحمل لوحة مرور الإسماعيلية لتأخذه، تاركا أديل تلملم مفرش لم أتبين أن كانت دست شيئا به من عدمه، وغادرت نحو فندق إقامتها. هكذا قال الرجل الخاص بيوسف.

هز يوسف رأسه وطلب منه متابعة تحركاتها وإخطاره بأي شيء طارئ. أومأ الرجل، وانسحب تاركا يوسف لأسئلة دارت ولفت مائة مرة في رأسه حتى أنهك من محاولة الإمساك بإجابات لا ترى بالعين المجردة، إنما يشعر بها القلب. جلس أمام شاشات الملهى يراجع الكاميرات لحظة دلوف أديل ومغادرتها آملا أن يمسك بشيء يشبع شكوكه.. امتص نوبة

غضبه بفتح ثلاجة مكتبه، وأخرج قارورة الخمر. يتجرع وهو يفكر في لوحة مرور الإسماعيلية ! هل هي حركة تمويهية أم لها مغزى آخر... ؟

عجوز يقرأ القرآن على الشط ... ؟

تذكر جلساته على الشط فلم يجد عجوز قط يرافقه تلاوة القرآن . جالت بخاطره أن إيثان كان يراقب جلساته الماضية، والعجوز يحاول استكمال دوره ؟ ولكن يبقى ما وراء ذلك غير مفهوم، غامض، يحتاج إلى المزيد من الخمر لفك ثغراته واختراق شفراته. كلف رجل آخر يراقب حركات الشط، ومع مرور الأيام لم يأت العجوز مرة ثانية، وجاء الرجل المكلف بمراقبة أديل يخبره برحيلها إلى فرنسا، لتزداد حيرته ومع ازدياد اضطرابه، أمسك به اليأس، وزرع بذرته، وانتابه الخوف، ففكر في استبدال الملهى بمشروع آخر يبعده عن إيثان، فعرض الملهى للبيع، وبعد عرضه بأيام أتاه سعر مناسب، فوافق عليه، وتخلص من بقايا إيثان أو هيئ له كذلك. وعاد إلى نجع حمادي يفكر في اقتناص فرصة فراغه والاقتراب من العمدة وفهم ما يريده.

***

تطايرت أوراق الشجر المتساقطة علي الأرض أثر وقوف سيارته أمام دار حسن . يجلس حسن بفناء داره تحت مسطح خشبي كعادته، يسمع نفير سيارة بالخارج. يركض نحو الباب، آملا أن يكون يوسف جاء دون إخباره كعادته.. فتح درفة الباب ليري العمدة واقفا على قدم والأخرى بداخل سيارته، ملقيا عباءته على أكتافه.. ابتلع حسن القلق مع ريقه.

فقال العمدة بعد أن استوى على الأرض

- سنقف على الباب طويلا !

- اتفضل ..اتفضل .. اتفضل.

قالها حسن تباعا وهو يشير بيده نحو الباب. دلف العمدة الدار واقتعد الدكة، وجلس حسن علي الكرسي الخشبي وتعابير الترحيب تملأ وجهه. بدأ الحديث بعبارات الترحيب المعتادة

- حصلت ألف بركة يا عمدة.

- الله يبارك فيك.

- أنرت الدار.

- مُنار بأهله.

استشعر حسن أن العمدة ليس لديه من الأدوات التي تساعده على كسر الجليد بينهما، فاستبدل كلمات الترحيب، بسؤاله عن سبب الزيارة، فأخبره العمدة بالموضع الذي أتى من أجله، ولم يكن هناك موضوع غير يوسف وفريدة ، فبادره العمدة بعد أن تجول الدار بنظره، قال وهو يحني رأسه على ظهر يده التي احتضنت عصاه

- كيف حال يوسف. خفق قلب حسن وقال بتلعثم

- الحمد لله بخير. عاد العمدة بظهره إلى الخلف وقال وهو ينظر إلى أعلى

- الحمد لله دوما. وتابع بعد أن رد نظره إلى مستوى حسن

- الناس لا تشبع ولا ترتوي من القيل والقال. زادت دقات قلب حسن لعجزه عن فهم ما يرنو إليه العمدة، وقال والقلق يعتري كلماته
- هل مسني كلام الناس ؟
- أبدا.. يقولون أنك لم ترزق بالذرية بعد، وعرفت أن يوسف جاء نجع حمادي في سن السابعة أو قريب من ذلك. فأخفق حسن بصره وقال مقاطعا العمدة
- هذه إرادة الله، ولا نملك سوى الحمد على ما رزقنا إياه، فقال العمدة وهو يلحم كفيه
- الحمد لله على ما رزقنا إياه. وتابع سريعا
- أنا لا أعترض على شيء حتى الآن فكيف أعترض على سبب خارج نطاق البشر ؟، ولكن ما يشغلني هو أن أحدهم تنبأ بأنه ابن حرام وآخر يزعم أنه ابنك من سيدة تزوجتها سرا، وتعددت الأقاويل. فقال حسن وقد فهم مغزى العمدة
- لذلك رفضت يوسف. فقال العمدة
- الكريمتان هما العينان لذلك سميت البنت بالكريمة، ولم يرضني أن أضع عيني فيما أتى من حرام أو ما يشوبه الكلام. احمر وجه حسن، وقال وهو يتحكم في حركات يده من شدة غضبه
- كل هذا كذب وافتراء، وإليك الحقيقة يا عمدة أمام الله، وسرد له القصة من بدايتها حتى نهايتها، ليزداد العمدة حيرة. فقد أتى على ثقل

تغلبه عزة النفس، ولا يريد أن يظلم ابنته، فلا يعرف قبوله كزوج لابنته وتحمل كلام الناس أم يخضع للواقع في محاولة إثبات شرف مزيف أمام نفسه وتجنب كلام الناس في الحقيقة. فقال حسن وقد غلبه الحزن في نبراته

- لم يسلم أحد من كلام الناس حتي الأنبياء. لا أريد التحدث عن يوسف فأنت تعرفه جيدا. ولكن كيف سيكون الوضع إذا كنت في موضعه

الخلاف لا يحتاج إلى التسلح بالحجج، وزعم الانتصار. الخلاف يحتاج إلى استبدال المقاعد والنظر إلى أنفسنا من وجة نظر الآخرين. حينها قد تتراءى إلينا الحقيقة دون عناء. هز العمدة رأسه وهو يقول

- جئت إليك بعد تردد دام إلى شهور، فالنفس تأبى الانحناء حتي لو كانت على خطأ. والآن أقدم آسفي علي كل ما مر به يوسف، وأكمل بعد أن عم الصمت للحظات
- الدار مفتوحة لكم.

أيقن حسن رغبة العمدة في إتمام الزواج، وهذا تصريح برغبته. فقال

- هل تقبل يوسف زوجا لابنتك ؟
- أقبل سعادة ابنتي أينما كانت. وختم لقاءه حينما مد العمدة بصره لساعة يده وقال
- علي أن أغادر الآن ..

أودعه حسن وهو حزين منكسر لما حف يوسف من زيف وافتراء الكاذبين. وما إن أوصد الباب حتى طرق ليتفاجأ بقدوم يوسف. احتضنه والدموع ترغرغ عينيه، وقال وهو يتحسس جسده، الناس يستكثرون علي وجودك، وقص عليه ما أفاض به العمدة وأخبره بأن غدا سيذهب إليه، ويحصل على موعدٍ منه.. كان يوسف لا زال مذهولا مما سمعه. يفكر فيما حدث من العمدة، وضربه أمام المسجد .. وفتاة البقالة .. والسجن .. فقد أخطأ عقله وصدق كذبته. وتأثر بحزن على كذبته في وقاحة لم يرها ولم يشعر بها،

وقال لحسن بمرار كما لو كان كذبة حقيقة

- لكلام الناس أسجن ؟ .. لو رأيتني وأنا أطالع الحياة مرة ثانية. فتحت عيني فأغلقتها سريعا من ضوء الشمس الذي هاجمني فعماني. فكنت كالذي لم ير الشمس من قبل لو رأيتني وأنا أراني في المرآة، فحزنت على ما آلت إليه نفسي. صمت حسن لما لم يجده من رد.

فأردف يوسف كيف يفعل كل هذا بسبب كلام يعبث من أفواه الكاذبين؟. لا يعرفون غير الاغتياب والذم وهتك الأعراض. فقال حسن في نبرات حزينة يشوبها اضطراب

- الحب يستحق أكثر من ذلك.. مع أول لقاء يجمعك بفريدة ستنسى مرارة الحياة بأكملها.
- لقد طال انتظاره.

- كل شيء بقدر يا بني .. لا تتعجل
- اذهب إليه يا والدي، وكن عزيز النفس أمامه شامخا، فلم أعد أؤمن بالإنحناء لنحظى بما نتمناه.
- أعرف أنك سمعت بما حدث في غيابك، ولكنك لم تعلم أني سكت عن الإهانة خوفا وحرصا عليك يا ولدي.
- دع الماضي واترك شظاياه. فالنفس تغم بذكراه
- غدا سنضحك ونحن نسترجع ذكراه .. حين ننال ما رضيناه.
- قد !

***

دخلت عليها غرفتها، فوجدتها تعبث بمرآتها، ترسم بقلم أحمر الشفاه قلوب وحروف، ثم تعاود مسحها بمنديلها الورقي. تتراءى إليها صورة انعكاس والدتها في المرآة متكئة على الباب تطلع عليها بأعينها الواسعة. يعتريها الخجل، فتلقي بقلمها بسرعة وهي تضحك على أفعالها الطفولية. اقتربت منها والدتها وهي تغازلها

- القمر يبدو حيث أنتِ. تزيد فريدة من ضحكتها وهي تقول
- أنتِ القمر كله يا أماه. ضحكت الأم وقالت وهي تجلس على حافة السرير
- أبشرك بما يسرك، وينزع الحزن من قلبك. لعبت الحيرة في عينيها، وجال بخاطرها أمور عديدة، ولم تتوقع أنها ستبشرها بقدوم يوسف

بعد الغد لخطبتها. ظلت ثابتة مستكينة على غير توقع والدتها التي سألتها عن وجومها، فقالت فريدة

- أخشى فعلة أبي الماضية. لا أريد معاقبة قلبي مرة ثانية، فأصدقك، وأكتشف أني أتعلق بحبال مهترئة، وآمال من الصدق خالية. قاطعتها والدتها، وهي تربت على كتفها
- اردمي على ما فات وانزعيه من قلبك. ردت بنبرة يجتاحها الإعياء
- أخشى صفعة الواقع يا أماه. نظرت لها باستغراب بالغ، ولكنها غير قادرة على النطق فهي صادقة فيما قالت. فأردفت فريدة وهي تجفف دموعها
- قد يبدو لكِ أني استكنت الحزن. فهزت والدتها رأسها بالنفي. فتابعت قولها
- لا أخفي عليكِ شعوري بالغبطة والفرح ببشائركِ، ولكن يبقى الخوف وفقدان الثقة بأبي أقوى. تنازع خيوط الأمل بداخلي. تنشب المعارك مع أحلامي. تفقدني ثقتي بنفسي. ارتمت في حضن والدتها مع آخر حرف خرج من لسانها

***

بعد أن تمت الخطبة، سافر يوسف إلى الغردقة، فلم يعد يستطيع البعد عن ملاهيها الليلة وفتياتها الاجنبية.

في أحد " الملاهي" يقتعد كرسي سيقانه طويلة ورفيعة تجعله على مستوى واحد من حافة البار معتمر قبعة ذات ألوان فاقعة، عينيه سكنت نظارة سوداء. يرج كأس به بعض مكعبات الثلج، وسكب عليه النادل الخمر. رشفه دفعة واحدة، وانتشى متلذذا بطعمه اللاذع، وضع كأس الخمر على الحافة الرخامية ولفت انتباهه فتاة دلفت البوابة. لم يبال وضرب مؤخرة الكأس على الرخام كنداء للنادل ليصب كأس آخر. أحس بها تقترب منه. أدار رأسه ببطء نحوها، فوجدها تجلس على المقعد بجواره .. فعرف أنها روسية من تحيتها.. أشارت إلى النادل ليمارس عمله في صب الكؤوس .. لم يعط بالا لجمالها رغم تركيزه الملحوظ على عيونها التي لمعت تحت الإضاءة الخافتة. ارتشف الخمر وهو يطالع فستانها القصير ذا الألوان الهادئة. نظر إلى صالة الملهي، فوجد مجموعة من الفتيات قد توسطتها في رقص محموم، تحت الأنوار المتماوجة من كل لون، وكان يتحلق حولهن عدد من الرجال الممسكين بكؤوس الخمر، وظهرت عليهم الثمالة. نظر إلى الروسية، ودعاها إلى الرقص... وبعد أن انتهيا شكرها، وجلسا يتعرفان على بعض، فعرف أنها ستقضي أجازتها بالغردقة.. وحين دقت الساعة الثالثة صباحا استأذنته فأذن لها علي أن يتقابلا مرة أخرى في نفس الميعاد.. وتكرر اللقاء، وتعلقت به الروسية وبعد أن عرف كل منهم قصة الآخر، بادرته بافتتاح مشروع .. رحب بالمبادرة ولكن لم يرق له فكرتها إنشاء فريق مسرحي ولكنها أقنعته بعد أن أرته فيديوهات لبعض أعمالها في روسيا. تمت الإجراءات القانونية اللازمة، وكون فريق يضم فتيات من جنسيات مختلفة، ومعهم بعض الشباب، وخبرته بالغردقة ومعارفه في كل

مكان، أتت بالنفع عليه، فاستطاع أن يتعاقد على خمس حفلات دفعة واحدة.. وشهد أول حفل للفريق نجاح كبير ولاقت الفرقة ترحيبا وحفاوة من الجميع .. كان يقول لفريقه

" هدفنا بسيط للغاية، فهدفنا رسم الضحكة على وجوه الحاضرين.. وما أسهل من ذلك إذا كان جميع الحضور مغيبين.. فقد أنهكتهم الثمالة "

***

يجلس نورالدين أمام حاسوبه المحمول، يقرأ رسائل أديل، توقف عند إحداهم، كانت تحمل

- سمعت صوتك قبل أن أراك، كنت حينها حزينة على سوء معاملة صديقي العزيز، وفي قلبي غصة، وفي حلقي مرارة، وفي رأسي دوامة من التساؤلات.

لماذا استقبلني كذلك ؟

هل يوجد سبب وراء تغيره اتجاهي ؟

حينها التفت قلبي وراء سمعي، فلقيتك لأرى فيك صديقي، فأنت تشبه رغم اختلاف الملامح وهذه ملكة يختص بها كل عاشق.. تقربت إليك، فصوتك لمس قلبي وأحسست براحة وسكينة لم أعهدها من قبل. اليوم أنهيت سماع المقاطع الصوتية، وأتمنى إرسال مقاطع أخرى ليتجدد شوقي إلى سماعها.

يأتي هاني من المطبخ بعد أن أعد القهوة، وهو يقول

- ستبقى كثيرا أمام حاسوبك ؟ أتيت من ساعة، وأعددت القهوة، وأنت ما زلت تقرأ رسائل فتاة الغردقة ..

ثم تابع وهو يغمز بعينه

- يبدو أنك مغرم بها. قال ضاحكا
- أنا رجل بعيد كل البعد عن أن أروق للنساء. فقد نلت نصيبي، ورضيت به. قهقه طويلا وقال أشك في ذلك. بادله الضحكة وهو يمد يده ليأخذ القهوة من يده وقال وهو يهم بارتشافها
- الشيء يحلو في أيدي الآخرين. فقال هاني بلؤم
- لا تغير مجرى الحديث. أعطاه فنجان القهوة وقال وهو ينظر إلى صورة طلت من الماضي معلقة بالجدار. بعد وفاتها لم أخنها حتى في ذهني فكيف أفعلها بعد كل هذه السنوات ؟
- لم أر مخلصا للحب مثلك.
- من عاش معها لا يمكن أن يفكر في العيش مع غيرها، إني رزقت حبها. وما أنهى كلامه وهو يتفحص حاسوبه، فانتبه إلى رسالة واردة من باريس، تخبره بأنها قادمة إلى الغردقة الأسبوع المقبل .. ضحك هاني بعد أن أخبره نورالدين بما تحمله الرسالة، وقال متسائلا عن رغبته في الذهاب لرؤيتها
- ستذهب إليها ؟
- لا أعلم رغبتي. بداخلي صوت يدفعني للذهاب، وآخر يبقيني.

– قد وقعت في الحب يا صديقي، فلا يتصارع العقل مع القلب إلا في الحب.

ضحك نورالدين ولم يعقب، فقد صدق صديقه فيما قال.

***

تبقى ثلاثة أسابيع على موعد زفافه، ويوسف مازال بجانب الروسية منشغلا بمشروعه الجديد، نظر إلى جدول أعماله، وألقى نصائح للروسية فهي مديرة الفريق من بعده، وطلب من صديق مقرب أن يعتني بالروسية، ويتابعه بالاتصال إذا تطلب الأمر.

بينما في قنا عقد العزم حسن على أن يقيم فرحا عظيما يفرح يوسف، ويعوضه عن كل شيء رآه في طريقه لفريدة.

وجاء اليوم الموعود وتعلقت الزينات، وتأهبت الدار لفرح عظيم، وأقبلت الموسيقي تعزف ألحانها العالية الصاخبة، فاجتذبت أولاد القرية والقرى المجاورة ليشاركوا أهل الفرح في فرحهم؛ وأخذ كل يرقص على الأنغام بطريقته. هذا قبض على عصا يطوحها في الهواء في خيلاء، وذلك الشاب الذي جعل شعره كالديك يقفز على رجل واحدة، ثم يقفز على الأخرى في حركات أشبه بحركات القرود. وفي ركن النساء تحزمت هذه الفتاة بمنديل رأسها وأخذت تهز جسمها هزات مثيرة، تشف عن الأنثى الحبيسة في عباءتها الصعيدية، وتلك تحرك جسمها حركات موزونة على تصفيق الفتيات الموزون، وجاءت سيارة العرسان، مزينة بالورود والزهور على هيئة حروف يوسف و فريدة، ونزل العرسان منها، يوسف مرتدي بدلة أنيقة

اقترفها من إيثان قديما، وفريدة تطل بالأبيض. سارا إلى مقعد العرسان، وعن يمينهم ويسارهم فتيات وشباب يحملن الدفوف، وارتفعت صوت الأغاني بين دقات الدفوف العالية. وحولهم المدعوات يزغردن، وقامت فتاة من أهل العروسة ترقص على دق الطبول، فجعلت تهز أردافها هزا لا فن فيه، ولكن أعين الرجال تتطلع إليها في اشتهاء.. وجاءت الفتاة الروسية لتفاجئ يوسف، وكانت ترتدي فستان أزرق جذاب أبرز مفاتنها، فاضطرب يوسف وظهر عليه الارتباك.

فقالت فريدة وهي تنظر لها

- من هذه ؟ فقال لها في إنكار
- أتعرفينها ! . فنظرت له نظرة الست المصرية وقالت
- ابنة خالتي جاءت لتبارك. وأشارت إلى شاب وسيم يقف بجوار الروسية وقالت بدلال
- وهذا حبيبي السابق جاء معها. فغضب يوسف واجتز على أسنانه، فعاودت فريدة سؤالها بنبرة حادة
- من هذه ؟ وقبل أن تكمل حديثها، أقبلت عليهم الروسية، وباركت بلسان عربي مكسر. فاقترب يوسف من أذنيها وقال لها
- كيف جئتِ ؟

فأشارت إلى صديقه الذي نفذ مهمته جيدا، واعتنا بها أشد الاعتناء. فحدجه يوسف قبل أن يكتم الآخر ضحكته، ويتوارى خلف الناس. همست فريدة في أذنه

- وتدعي أنك لا تعرفها. فقال يوسف مداعبا
- النكد يملأ مصر، وإذا خرج منها عاد ليلا للنوم. فضحكت فريدة وصفق يوسف وهو يقول
- كنت أتساءل كثيرا عما يتحدثون فيه العرسان في مثل هذا الوقت والآن عرفت الإجابة
- فضحكت فريدة، وهي تضع يدها علي فمها. بينما هم يتسامرون.

سرقت الفتاة الروسية الأنظار، فتحولت أعين الناس إليها، و عزمت علي تهنئة العرسان، وقدمت هديتها علي هيئة رقصة. فطلبت بتغيير الموسيقى، وجاء المسئول عن التجهيزات الذي لا يجيد غير إبراز لافتة مدون عليها اسمه ورقمه، كما لو كان جاء خصيصا لضمان جودة الإعلان . أزاح الشبان وأفسح لها المكان ليروق لها الرقص، وراحت ترقص كل شيء فيها، وتتمايل على العرسان، وجذبت صديقها فلف ذراعه حول خصرها وضمها إليه وأخذا يدوران على الأنغام وقد لاحت الغبطة في حركاتهما. كانا يرقصان في رشاقة، ويتمايلان في دلال، فأشعلت الزفاف والتفت العمم والشيلان تصفق لهما، وانفتحت الشبابيك المطلة على الزفاف، وأطلقت الزغاريد وارتفع تهليل الرجال، وأعطاها أحدهم عصا لتبهرهم بالرقص الشرقي، وانفتح فاه الحاضرين. كلما مالت في رقصتها ناحية يوسف احتقن

وجه فريدة. وفي الشرف والنوافذ تطل النساء، وفيها من يمقتها، وفيها من استمتع بجمالها وأبهر برقصها. وقالت إحداهن أنها رخيصة، واعترضت أخرى، واشتد الجدال بينهم، وفي نهاية الرقصة قبلت الروسية يوسف وفريدة وارتفعت الصيحات، وخجل يوسف من الموقف، فتعجل بالدخول، وطلب حسن من المزمار زفافهم، وبعد نصف ساعة من غلق الأبواب عليهم. أطلق يوسف النار، واعتلت الصيحات. فتساءلت الروسية عن إطلاق النار.

فقال حسن لصديقها

- بماذا تتحدث تلك الفتاة؟. فوضح له معنى الكلام بالعربية. فقال له وهو يضحك
- قل لها أن يوسف اخترق البلدة واحتلها. ضحك صديقها وتساءلت الروسية عن الحوار فقال لها.
- دعكِ الآن، سأوضح لكِ لاحقا.

وفي الختام ودعت الروسية قنا بعد أن حصلت على القبلات الستة من الحاجة زينب.. وإذا أرادت اضحاكك لابد أن أوضح لك الموقف من البداية.. فحين اقتربت الروسية من الحاجة وقبلتها قبلتين، وتراجعت للوراء، جذبتها الحاجة مرة أخرى، واستكملت طقوسها، واستسلمت الروسية، وحين انتهت الحاجة من عملها أزاحتها إلى الوراء قليلا، وقالت في نفسها يكفي ذلك! إنها ليست حلوى المولد .. وجاءت لتقبل حسن فأسرعت زينب لمنعها،

وهي تصيح

– أين رجلك يا ست ؟

وقال حسن مازحا

– وكيف يعيش رجل معها دون أن يفقد عقله من شدة جمالها؟.

فاحتضنتها زينب، وأوصلتها إلى سيارتها، وهي تقول بصوت عالٍ

– إنكم رجال لا تعلمون شيئا عن الإخلاص. واستقلت الروسية وصديقها سيارتهم. انطلقت السيارة تجوب شوارع القرية الهادئة.

***

استمرت الأفراح في بيت حسن، وجاءت الصباحية، وجاء أهل العروسة بصواني تحمل من كل ما تشتهيه الأنفس، وترقصن النسوة مرة أخرى في فناء الدار، ليزاحموا كتاكيت الحاجة وارتدى يوسف العباءة البيضاء، وجلس أمام الدار تاركا العروسة لتتطلع عليها أعين النساء. وتأتي سيدة بالخمسين تتغزل بها، وأخرى تقول بصوت خافت أن عينيها عسلية، وترد عليها فتاة عشرينية وتقول وهي تضع يدها على وسطها في حركة نسائية بحتة واقتنصت دور محلل الطقس، أن عينيها ليست بالعسلية، وإذا أتيتي من اليسار عكس أشعة الشمس تجدينها أقرب للأخضر، وإذا جئتني من اليمين وقبل أن توضح وجهة نظرها قالت إحداهن، وهي ترفع يديها للأعلى " اللهم اجعلنا من أهل اليمين " وبعد أن قالت آمين بسرعة البرق، استكملت العشرينية حديثها، وقالت ستنتقضين نفسك وتعترفين أنها أقرب إلى العسلية .. وجاءت ضحكات السخرية من بعضهم، وقالت

أخرى، دعك من جمال عينيها، انظرا إلى قصر قامتها، وامتعضت إحداهن؛ لأنها رأت الحقد في وجوههم، وجاءت زينب بقنينة الملح، وقبضت بكفها على حبات الملح، وفتحت قبضتها للأعلى لتتساقط حبات الملح فوق رؤوسهن، وتصيح بصوت عالٍ " قل أعوذ برب الفلق " وتابعت " صل على النبي " .. وتكرر المشهد بعد ثلاث أيام، ولكن بشكل مختلف، فاقتصر الحضور على والدة العروسة وأخواتها، وتبدلت الحلويات بالحمام والبط، ولو تعلم والدة العروسة بأن مصير حمامها في معدة أصدقاء العريس لكانت أتت بهم، وضربت يدها في بطونهم، وأخرجت الحمام، وقتلت العريس معهم.

وبعد عشرة أيام من زواجهم، ذهبا إلى الغردقة لقضاء شهر العسل، وهو في الحقيقة أسبوع عند البعض أو أسبوعان إذا كان ميسور الحال، نزلا في قرية تطل على البحر مباشرة، تمتعت فريدة بالأجواء السياحية، رغم أنها كانت تفكر في ثمن كل شيء خوفا على مال يوسف، وكان يوسف يكذب عليها، فإذا كان الشيء ثمنه ألف يقول لها مئة، وكان دائما يخبئ حافظة نقوده، ويتذكر الرجل العجوز الذي أوصله إلى درسه وهو صغير، فقال له " لا تكشف حافظتك لامرأتك، فإذا كانت فارغة استحقرتْ وإذا كانت ممتلئة استقرضتْ " ويوسف لا يعمل بالنصيحة بل يخبئها لستر مصدر ماله، فلا يوجد مشرف في قرية سياحية يتنعم بكل هذا المال.. وبعد أن عاد لعمله من جديد، استرجع السهرات الليلية، والنبيذ المعتق، والسجائر الفاخرة، والرقصات الملتوية، والموسيقى الصاخبة.

عاد إلى حضن الأجانب مرة أخرى ليتذوق الأوربي، ويعقد مقارنته بالصعيدي .. والأكثر وقاحة أن قلبه يعشق فريدة.

يتهرب من هواجسه لا يريد الحقيقة بل أكثر أمانيه دوام ما هو عليه. لهو في الغردقة، وعشق في قنا، يجد الاهتمام أينما كان، وإذا كان المال متوفر لا حاجة للضغوط النفسية والتفكير فيما يعكر صفو الحياة. هكذا كان يبرر موقفه أمام المرآة كلما نظر لها.. يقضي أسبوع في نجع حمادي وثلاثة في الغردقة، هكذا يرى العدل والمساواة. فإذا جاء إلى نجع حمادي وجد الحب والعشق لا يزالان على قيد الحياة. يرى الاهتمام في فريدة، تعامله كطفل رضيع يحتاج للرعاية دائما. تقشر له الموز وتفصص الرمان وتقطع التفاح شرائح والبطيخ مكعبات. وفي يوم وهم يتابعان شاشة التلفاز، أكلت فريدة تفاحة وتناست وجود يوسف، وحين لاحظها أهمل متابعة الشاشة، ونظر لها بدهشة،

وقال لها مداعبا

- أول مرة تأكلين بدوني . نظرت للتفاحة بتأن، وكسا وجهها الخجل، وقدمت اعتذارها، وتأسفت كثيرا، وظلت طيلة الليل حزينة على ما فعلته ولعنت الشرود مئة مرة. وبعد هذا الموقف، أصبحت كلما أكلت شيئا سألته
- أنا أعطيتك مما آكل ؟

وتتأكد بأنه أكل بالفعل. هذا هو الحب الحقيقي، ليس رسالة عبر مواقع التواصل الاجتماعي أو منشورا راق لنا أن نشاركه بل علينا أن نمارسه ونتشبث به. وندرك إذا كانت الكتابة ممتعة، فإن الواقع ألذ بكثير.

***

في حفلة ليلية بأحد فنادق الغردقة تعد الأهم بالنسبة ليوسف، يقفز وسط العمال بخفة لإتمام التجهيزات، بجانبه الروسية منهمكة في مراجعة فقرتها، تقرأ أدوارها تكرارا، وتعيد إلقاءها على يوسف في محاولة للوصول لأفضل أداء .. تمت فقرة فريق يوسف وانزاح العبء من عليهم. وراح يوسف وفريقه يحتفلون، فانصهروا مع الحاضرين .. جذبت انتباه يوسف فتاة، لم يكن وجهها غريب عليه. عصر ذهنه، ومع ثمالته خاب في تذكرها، فلم يبال واقتعد طاولتها وجلسا يرتشفا الخمر سويا، وما كان يحسبها أنها أديل جاءت منذ شهر لمصر، ومرت بما مر به من دفع ضريبة العمل مع إيثان، فالثمالة أثرت على رؤيته، وعرف أنها أديل في اليوم التالي وهي راقدة على فراشه. فبوخها وهاجمها بما في معتقده أنها تعمل لصالح إيثان، ولكن مكالمة الضابط قصرت مسافات الخلاف وعرف أنها اسُتخدمت مثله كآلة تعمل لصالح إيثان في أيام معدودة، واستبدلت كغيرها من الفتيات اللاتي يجدن فن الإقناع، وإنهاء الصفقات لصالحه.. وحدثته عن العجوز الذي رأته على الشط ويوسف يتذكر ما آتى به المكلف بمراقبتها، وربط الأحداث ببعضها، فظهرت له براءتها من اتهاماته العمياء. فعزم على أن يصالحها، فقبلت العمل معه في فريقه، وفرحت حين علمت بأن الروسية لن تدوم رحلتها طويلا. ودام الوضع حتى حدث ما أغضب يوسف.

- لم أذهب إلى الغردقة يا صديقي، خشيت أن أضعف، وأكتب خيانة عهدي في سن الخمسين هكذا قال نورالدين إلى صديقه هاني. وماذا كان ردها ؟
- لا أعلم فإني اقتلعت الأمر من جذوره، وأغلقت حسابي، كي ينقطع حبل الوصل بيننا، و لا أضعف أمام رغبتي في الذهاب، كما أن عملي الأجدر بوجودي جانبه. فأومأ هاني متفهما موقفه. فأردف نورالدين بعد صمت قصير
- ذهابي إلى الغردقة للقائها كان سيأتي على حساب سفري إلى زيارة أسرتي، وهذا ما لا أستطيع التخلي عنه أبدا. فقال هاني بعد أن دعا إلى أسرته بالرحمة، مغيرا أطراف الحديث حيث يبعده عن ثوب الحزن
- ما أخبار المدرسة ؟ فسمعت ما أثلج صدري
- الفضل لله من قبل ومن بعد، فنصائحك الدائمة من أتت بذلك، وافتتاح مدرسة في القاهرة يجعلنا نفكر في استكمال المشوار، وجعلها سلسلة تنهض بالتعليم في مصر.. وأحس نورالدين بأن هذا الوقت المناسب لعرض العمل عليه بالمدرسة مرة ثانية، فكان جواب هاني كما عهده
- تعلم أنك صديقي، وأني أفضل الصداقة عن العمل. فهم نورالدين ما يرنو إليه. فحرصه على بقاء صداقتهم دفعه لرفض العمل " يخشى أن

تخترق خلافات العمل جدران الصداقة " فأبلغه بالعمل في القاهرة، ولكن ارتباطه بالمدينة الصفراء جعله يرفض.

***

وهن حسن، وانحلت قواه، ولكنه يغالب وهنه ويشد من أزر نفسه. إن جسمه أمسى ضعيفا، ولكنه لا يحب أن يعترف بعجزه، فأخذ يجاهد، ويخرج كل يوم إلى المجلس المعتاد، يتسامر مع أصحابه.

ورأت زينب في خروجه عناء، فقالت

- يكفيك الجلوس أمام الدار، فالسير على قدميك يتعبك. فقال حسن مكابرا
- لم أعود جسمي الراحة، والسير كثيرا مفيد للجسم ... ومع الأيام ضعف حسن، فعافت نفسه الطعام

وارتمى علي فراشه مبهور النفس، يظهر عليه الإعياء الشديد أنه يصارع الحياة، ولا يود التسليم، وجاء يوسف من الغردقة بأمر فريدة يساند والده في ضعفه فوجده متغيرا ضعيفا فجلس بجواره يشد من أزره، فقال حسن

- سأموت يا يوسف،
- بعد الشر عليك،
- أشعر بالموت يقترب مني. أغرقت عينا يوسف، وقال حسن
- لم البكاء والموت نهاية كل حي؟ ثم أردف بعد صمت قليل
- أوصيك بزينب وفريدة يا يوسف. فقال يوسف مجاريه

- اطمئن.
- إنهم أمانة في عنقك.

فسالت الدموع على خديه، وهز رأسه، وخشى أن يؤلم بكاؤه حسن، فهرع إلى حجرة أخرى؛ لينفرد بأحزانه، وعاد بعد أن استجمع أطراف شجاعته ، حاملا طعاما أعددته فريدة بأمر من الطبيب، وراح يغصب عليه الطعام، فأكل حسن مغرما بعد إلحاحه، وزينب تجلس في فناء الدار والحزن ينهش في جسدها، وتدعي الله أن تشارك حسن فيما هو عليه لتتقاسم معه المرض.

وبعد أسبوع عاد يوسف إلى الغردقة بعد أن أخبره الطبيب باستقرار الحالة. معتمدا على فريدة فهي ترعي حسن وزينب، كما لو كان والديها، ودائما تقول لن أوفي واجبي تجاههم فهم من أتيا بيوسف قرة عيني.

***

التعاسة

غادر قنا وهو حزين على حسن ولام الأيام على حاله، فقبل سفره لقنا، اصطدم بخلاف نشب بين أديل والروسية، واليوم ترك حسن مريضا في فراشه، ولم يعرف أن الصدمة الأكبر سيلاقيها في الغردقة، فالروسية أخذت ما جنته الشراكة بينهم من مال ورحلت ! رحلت في غيابه ليزداد حزنا. وقف مكتوف الأيدي، يحاول أن يصل إليها فلا يجد ما يعينه على ذلك.. ينظر في الحسابات فيجد أنه سيعمل لمدة شهرين دون أن يحصل على مالا. فقد تعاقدت الروسية على حفلات، وحصلت على المقابل مقدما.

تفكك قوام الفريق، بعد علمهم بما حدث ، فلا أحد عاقل سيعمل شهرين دون راتب !! وزاد الأمر سوء حين تلقى اتصال من نجع حمادي وهو يجالس أديل ليخبره بأن أيام حسن على الأرض انقضت، فذهبت روحه إلى حيث قدر لها أن تذهب. وكأن الأيام تعاقبه على فترة المرح.

فقال بعد أن أغلق هاتفه

- كنت أظن أن المصائب تتوالى، والأيام تعاقبني، ولكن لم أعرف أن هذه المكالمة هي الصدمة الحقيقية يا أديل. حاولت أديل فهم ما يتحدث عنه، ولكنه ظل صامتا، و تسلل إلى نفسه شعور بالعجز والخوف، وبدأت دموع غزيرة تنهار على خده دون أن يشعر بها. ونهض في تهور متجها نحو سيارته، وهو يقول أبي مات اليوم. لتعجز أديل عن مواساته فلا يجدي الكلام في مثل هذا الحال .. ظلت صامتة والدموع تملأ عينيها. تتبعته بنظرها حتى انطلق بسيارته عائدا إلى بلده. قابلته فريدة بثيابها الأسود وهي تقول
- بعد سفرك اشتد عليه المرض، وبدأ بريق عينه يخبو، وعلت وجهه صفرة الذبول.

فوجم يوسف، وأحس كأنما انهار جدار على رأسه، فما كان يحسب أن فقدان حسن سيؤثر عليه كذلك. وسالت دموعه على خديه، فاغرورقت أعين الواقفين من الأهل بالدموع.

انقضت ليالي المأتم الثلاث، وانصرف المعزيون والمعزيات، وخلا الدار من روحه، فبات يوسف حزين على فراقه، وراح يغوص في متاهات الأفكار ودهاليز الذكريات .. يسير في الشارع فيرى الأطفال يلعبون الكرة بأقدامهم الحافية وأظافرهم المتسخة، فيتذكر حسن حين كان يخترق ملعبهم الذي صنع في الشارع بمرميين من الأحجار، فيصوب الكرة في مرمي منهم، ليرسم الابتسامة على وجوههم. يتذكره حين يسير بجانب مصطبة الدكان

التي شهدت مجلسهم فترن في أذنه كلماته وضحكاته. يتذكره حين يمر بالزرع والخضرة التي أكلت من عمره ، ليترآى إليه جهده وتفانيه... كان يراه حيثما ذهب .. يراه في دموع فريدة، وندب زينب. فيشعر بهم ويحاول أن يواسيهم فيتوقف لسانه عند رؤيتهم، بعد أن كان رتب في ذهنه ما أملاه قلبه من كلمات مواسية، فينفرد بغرفته؛ ليخرج ما حبسته عينه من دموع.

يأتيه اتصال من أديل لكي يعود إلى الغردقة. تتشبث به زينب لكي يظل بجانبهم.

- دعك من السفر يا ابني، فمن بعد والدك سيملأ علينا الدار
- من اعتاد السفر، لن يوقفه يا أمي.
- لم البعاد يا يوسف، والدنيا زائلة؟
- لا تزيدي من وجعي، فأنتِ تعلمي قبلتي جيدا
- أخاف أن يزداد الأمر سوءا على قلبي
- اطمئني، فأنا سآتي كل أسبوعين لأطمئن قلبك

***

جاءته أديل إلى شقته بالغردقة، بعد أن حاولت الاتصال به كثيرا دون إجابة، فأيقظته من نومه فلم ينم منذ فترة كبيرة. ذهبت إلى مطبخه العارم بالفوضى؛ لتعد قهوتها، فيما اتجه يوسف ليأخذ حمّاما، لعل الهموم تتساقط كما تتساقط عليه المياه الدافئة، وبينما هي ترتشف القهوة في الشرفة أتى إليها ليتساءل عن سبب إصرارها علي مجيئه من نجع حمادي فأجابته،

والابتسامة تملأ وجهها

- تعلم أنك سافرت، وتركت الشركة في أزمة. أحس يوسف بأن ابتسامتها توحي لخيبة تنتظره أشعل لفافة التبغ، وهو يهز رأسه لتكمل أديل كلامها وهي ترتشف آخر ما تبقى من قهوتها
- كانت أيام عصيبة، لا أعرف كيف مرت دون أن أفقد أعصابي من برودة بعض العمال؟ وعلت بنبرات صوتها وهي تلوح بيديها في رقة ورثتها من أهل باريس
- كيف وافقت على ضمهم إلى الفريق. فقال يوسف بعد أن نفث المزيد من دخان لفافة التبغ وسعل ولاح على وجهه القلق
- ما الأمر يا أديل ؟
- لا يعرفون معنى للوفاء، فقد تخلوا عن العمل بعد أن علموا بفعلة الروسية.
- هذا حال الكثير منا الآن، يتولد انتماؤنا مع وجود المال، ونرى فيه التقدير.
- أنت تدافع عنهم !
- لا .. ولكن هذه حقيقة لا خفاء. سألها دون اكتراث
- ماذا فعلت معهم ؟
- أحصيت العمال، فوجدت ما يقارب من خمسين شخص يريدون إنهاء خدمتهم. تبقى عشر أشخاص مخلصون لك. فتحدثت مع

الفريق بأكمله، وشرحت لهم صعوبة الموقف، فما زاد عن العشرة إلا خمسة، لم أيأس حينها، ونشرت حاجة الفريق إلى عمال، فتكدست الأيدي العاملة، وعاد الفريق مكتمل صفوفه

فقال يوسف وهو يجتز على أسنانه

- كلاب، بل الكلاب تعرف عنهم معنى الانتماء،

- فقالت أديل بعد أن فلتت منها ابتسامة ساخرة علي تعقيبه. ما كان باديا للغاية أن الجهد الذي سأبذله لاحقا من أجل الوصول لنتيجة ترضيني ستكون أضعافا مضاعفة عما سبق ..

كان يحتاج الأمر إلى تدريبات متواصلة للوصول إلى المستوى المرغوب. فجعلت وقت فراغي لتدريبهم، كما تعاقدت على حفلات مدفوعة الأجر مقدما، لكي أدفع جزء من راتب الخمسة وأربعين المفصولين، وجزء للمنضمين حديثا، وسارت الأمور كما رتب لها، وتحسن الوضع حتى دفعت جميع الأجور المستحقة، ومازال الفريق يحتفظ باسمه في سماء الغردقة. صمت يوسف فلم يجد كلمات توفي شكرها، فكانت نظراته إليها تحمل شكرا علي مجهودها الخارق. ابتسمت

وهي تقول

- علينا مواصلة العمل عزيزي " جوزيف " ضرب كفه بكفها في إشارة إلى استكمال مشوارهم.

***

الهداية

سارت الأمور طبيعية بالنسبة ليوسف، الفريق يحقق نتائج مرضية. يجد الحب أينما تواجد، فريدة في نجع حمادي وأديل في الغردقة، حتى جاء اليوم الذي جمعه بنورالدين.

كان في سهرة بأحد الملاهي الليلية، يجلس علي البار، يتجرع الخمر، لا يبالي من رنين هاتفه. فإنه يريد أن يقضي ليلة دون وجود أديل بجانبه يريد أن يحتضن جسد غيرها. تزاحمه بعض الفتيات على البار، فينصهر بينهن، ويقضي سهرته في عقد مقارنة بين قبلاتهن.. ورقصهن وهو يتجرع الخمر معهن. راح بذهنه يرسم إلى استكمال احتفاله بمرافقة إحداهن، ولكن وجود أديل في سكنه أفسد مخططه، فعاد بذهنه إليهن، واستمتع بجلستهن حتى الثمالة، ومع اقتراب الفجر تحمل على أقدامه حتى خرج من الملهى بعد أن ودعهن بقبلات تملأها الشهوة، وقف أمام الملهى حائرا. لا يتذكر

أين صف سيارته؟ أو لا يعي الوصول إليها، فاستسلم إلى السير قدما بعد فشل محاولاته، يترنخ في مشيته، يستند على ما يقابله من أعمدة الإنارة أو صناديق القمامة. تناهى إلى سمعه صوت قرآن الفجر، فتوقف وظل يحوم حوله مجاهدا نفسه ليحدد مكان الصوت. فأقبل عليه مترنخا، ووقف على بعد مترات من المسجد. مسح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبات العرق. يتأمل بناية المسجد بلا هدف كالتائه لا يدري ما الذي دفعه للمجيء، ارتفع صوت المؤذن من مئذنة المسجد يهتك سكون المدينة، ويفتح القلوب فينزل بها أمن وخشوع، ووفد المصلون تباعا، وأقام المؤذن الصلاة، و يوسف ما زال يقف ثابتا، وبدأ منصتا لصوت الإمام، ترن الآيات في سمعه، وتمر أمام عينه لتعيده لأيام دروس القرآن وعند قوله تعالى

" ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله "

نبتت الدموع في عينه، وخر أرضا علي ركبتيه، وتسارعت أنفاسه، وأفاق من ثمالته وأنهار باكيا متشنجا، خرج المصلين فوجدوه جالسا على حافة رخامية من درج المسجد. فمال عليه أحدهم، ومسح بيديه على ظهره ليطمئنه. فلم يهدأ وسأله ؟ عن سبب البكاء. فخرجت رائحة الخمر من فمه قبل أن تخرج الكلمات،

فقال الرجل بنبرة ود

- لم الخمر يا أخي؟. فوجم يوسف وران عليه حزن عميق، ولم يجد لسانه فلم ينطق بكلمة، ولمح الرجل وجومه، وشعر بانقباضه، فأكمل

- كلنا مخطئين.. مذنبين.. ولكن إلى الله عائدون فهو الرحمن الغفور.

نكس يوسف رأسه، وأكمل بحزن

- حياتي كلها خطأ. حفظت القرآن في صغري، وتنبأ الجميع بمستقبل مرموق ينتظرني، فكبرت لأجد المصحف تبدل بنوتة صغيرة، أعقد فيها زواجي على فتيات الليل خشية من الشرطة رأى الدموع في عينه، فتوقف لسانه، وانفجر في البكاء بلا وعي. فاحتضنه الرجل وبعد برهة استكمل بتأتأة نتجت عن البكاء

- استبدلت الماء بالخمر، فأصبح هو مائي العذب، أصبحت شخص سيء القلب جيد السمعة، أكذب على الجميع، فجميهم يعتقدون بأني مشرف سياحي، وأنا في الأصل مشرف إبليسي. أقف على المنصة أمام السكارى، أمارس مهنتي في ضياع عقولهم، وبعد أن أنتهي أزاحم فتاة لفتت انتباهي أثناء عرضي بضحكتها التي حركت غرائزي وفمها العنبي، أو أزاحم أحدهم علي زوجه، فتميل إلي وينسحب هو ليمهد إلي الطريق، فأنظر بعيدا عن عينه، فلا أريد رؤية شخص لا يغار على أهله فأصاب مثله .. نحن يا أخي نعيش في عالم آخر لا يتحمل الجلوس بعقل واع، قد يزعجني صوت الأذان لأنه يذكرني بطريق الفلاح، فمثلي كل أمانيه دوام ما هو عليه... هل عدم وجود صعوبة لجني قوت يومي يجعلني هذا الشخص الذي أمقته؟

- كفى يا أخي كفى. هكذا قال الرجل متأثرا بقوله

فتابع يوسف، وهو يحرك يده كما لو كان يشرح لشخص أصم

– أنا خجل من الله.

انتصب يوسف متثاقلا، وقد هدأت نفسه قليلا، واتجه نحو الشاطئ؛ ليعتذر لوالديه عن انقطاع زيارته، ويعتذر عما وصل إليه من ذنوب وآثام، ومع تذكره لذنوبه كانت تزداد دموعه سيلا على وجنتيه .. سمع صوت قرآن فالتفت إلى مرتله، فوجد رجلا خمسينيا ممسكا بمصحف يقرأ في خشوع فاقترب من مقعده دون أن يصدر أي صوت، وراح يستمع إلى قراءته في إنصات والدموع تنهال منه، وقلبه يعتصر ندما على ما فات من عمره. جسده يرتجف فشعر الرجل به، ولكنه لم ينظر إليه، خشية أن يقطع حلقة قراءته ومع صفاء السماء، غادر يوسف الشط، واتجه نحو شقته، فوجد أديل تنتظره في الشرفة. استقبلته علي باب الشقة كعادتها، ووجدت أثر الدموع تحت عينيه، فسألته عن السبب، ولكنه لم يجبها ودلف الحمام، فاحترمت صمته المرهف حتي يخرج، وذهبت تعد له كوكتيل من الخمور المفضل لديه، وموجة من الحزن تعصف بمشاعرها وتجفف حلقها ... وسيل من الدموع لا تستطيع التحكم فيه، يجري على خديها. وتفاجأت به بعد أن خرج من الحمام واقفا في غرفة نومه على حافة منشفة استخدمها كسجادة صلاة، وسمعته يتلو القرآن في خشوع. لم يكن صوت القرآن غريبا عليها، فسمعته من نورالدين على الشط من قبل. سألته عما يفعل ولكن دون إجابه فاقتربت منه، وهزته ليفيق مما فيه، ولكنه أزاحها بيده، كما لو كانت طفلا يعوق صلاته، فاستسلمت إلى الجلوس على حافة السرير تنتظر انتهاء ما يفعله. تتأمل دموعه التي لم تنقطع على وجنتيه ونبرات صوته

التي مزجت مع بكائه. وإذا كانت تستطيع أن تري قلبه لرأت ندمه وحصرته على ذنوبه، وبعد أن أنهى صلاته راح يغسل دموعه، فهمت منتصبة خلفه تسأله عما فعل، وهي تقدم له كأسه. فرد يدها بلطف،

وأجابها

- كنت أصلي.. فأنا مسلم. كانت تعرف أنه مسلم، ولكن لم تره يصلي من قبل، فقالت متسائلة وهي تسند الكأس على المنضدة بعدما يئست من امتناعه
- ولم البكاء في الصلاة؟
- في صلاتي أقف أمام الله، أخرج ما في قلبي، أبكي وأتوسل إليه.

وراح يخرج مصحفا كان يعتليه التراب ، فمسحه وبدأ يقرأ وأديل تنصت إليه.

***

انقطع يوسف عن الذهاب إلى العمل، وتجاهل اتصالات العاملين، بينما كانت أديل تدير الفريق عن بعد، وتتابع العاملين. فولت شخصا مما كان يثق بهم يوسف شؤون الفريق، وفضلت مرافقة يوسف، دون أن تعرف مستقبلها معه. لم تنتبه لمخاوفها من فقدان عملها ، فكان شعورها بالخوف من الابتعاد عن يوسف يغلبه. تتلقى إجابات غير مقنعة حينما تسأله عن المستقبل. فتزداد مخاوفها، ولكن قلبها يوقفها عن افتعال أي إجراء تؤمن به مستقبلها، ولو كانت تعلم أن الشخص الذي ولته مسؤولية الفريق، سينفذ ما امتنعت عنه، وسينقل ملكية الفريق إليه لسبقته. وما كانت تركت

نفسها ضحية لمفاجأتين أولهما حين أعلن يوسف توقفه عن العمل، وتركه للغردقة. والثانية حينما صدمت بما وثقت به والأسوأ من ذلك فقدان ثقة يوسف بها بعدما رأى تصرفاتها. حينما حاولت اقتناص ما اقترفه هذا العامل مستغلا التوكيل الذي كان يساعده في الإجراءات القانونية. بينما يوسف ظهرت عليه علامات اللامبالاة، فترك الغردقة، وما امتلكه وراء ظهره، سيرا خلف قلبه الذي عاد إلى طريق الحق. وفي نجع حمادي ابتدع قصة إقالته من وظيفته أمام الأهل.

توقع أن الاختبارات ستتوالى عليه، ولكن ليس بالقدر الذي رآه، فالأرض لم تظل كما عهدها، وعجزت إمكانياته على تنفيذ ما أُملي عليه من مشاريع.. فطبيعة الناس الإبداع في الأفكار والعجز عند التنفيذ.. فكساه اليأس وتملكه، وكان سيضعف ويعود مرارا، ولكن قلبه أوقفه. ولم يكن يريد أن تعرف فريدة بما مر به، ولكن وجود الرجل في الدار كالمتهم في حجزه. الاثنان يران أن الاعتراف سيد الموقف، إلا إذا كان المتهم متمرس ! حينها ستفشل الأنثى في إقراره، ولو كان ميزان العدل على صدرها يتربعُ. ضميره أبلغه بأنها تستحق معرفة ما مر به من تغير، كما عرفت معه تغير الطعام والملبس والحلي، ولكن خوفه من خسارتها يغرقه، ومع تردده الذي دام أياما، استطاع أن يفصح عما بجعبته بعد تناول فنجان قهوته،

فقال وهو يسند فنجانه على حافة الشرفة، وعينه تراوغ الخضرة

– تظل القهوة أصيلة .. فمازالت ترافقني.

فقالت فريدة ساخرة وهي تنظر إلى عينيه

- لأنها مُرة

- ليت مرار الدنيا سار كالقهوة، كنت سأحبو لنيله، لم تعقب فريدة، ولكن انتبهت لنبرات صوته التي لمست فيها الحكمة. أريد أن أوضح لك حقيقة أخفيتها عنك، فتطلعت بعينيها دون أن تنبت ببنت شفة، فأكمل أبلغك قبلها بأن ما فعلته كان دفاعا عن حق. هزت رأسها مستفهمة قوله، فأردف بنبرة اجتاحها الإعياء

- حينما تقدمت لخطبتك، أوحى إلى والدك سبب رفضه بأنني لا أستطيع زواجك، فلا مال ولا نسب بجانبه. فعزمت على أن أصل إليكِ مهما عانيت في طريقي. سلكت طرق لم أعهدها، فعملت في ملهى ليلي بعد أن أنهكت في التنقل بين الفنادق والقرى السياحية بمرتبها الضئيل. وظننت أنني بهذا سأقتصر المسافات، ومع اكتشافي لمغزى والدك، كنت قد تعمقت في المعاصي والآثام، فما جعلت ذنبا إلا فعلته، ولا فتاة إلا رافقتها، ولا خمر إلا تذوقته، فاستقر بي الوضع، وأصبحت صاحب ملهى وشقة وسيارة، ومع زواجي بكِ، فكرت في ترك كل شيء، ولكن المال أعمى بصيرتي، والحرام أغرقني. تحجرت فريدة غير مصدقة قوله، وقالت وهي تلوح بسبابتها نافية

- لا.. لا.. أنت لا تفعل ذلك، كيف يوسف حافظ كتاب الله يفعل ذلك؟. وانهارت باكية

- صدقي إنني أتبعت طرق ملتوية مستعجلا في الوصول إلى هدفي. طرق دنيئة حقيرة غير مكترث بعواقبها أو حرمتها. طرق تعود بالأذى علي وعلى أهلي بسبب ضعف قلبي، ولكن فعلت كل ذلك من أجلك يا فريدة، قال عبارته الأخيرة بصدق شديد، وهو ينظر إليها
- من أجلي تغضب الله !
- استكف قلبي بحبك.
- الحب يبصر حقيقتنا . خفض يوسف رأسه، وهو يقول بنبرة حزينة
- لم أكن أتوقع منك ذلك. اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت بصوت متحشرج لا يزال على صدمته
- ماذا كنت تتوقع؟ !! وقوفي بجانبك، أم مساندتي لك.. ثم أردفت بعد صمت، وهي تشير إليه غاضبة
- هل من المفترض أن أشعر بالأمان مع رجل اتضح توا بأنه مخادع. قال يوسف بصوت مثقل بالهم
- كفى
- لا .. أنا لم أفتعل شيئا ولم أنهرك أو أجمع حقيبتي وأتركك، فإنني على قلبي باقية، ولقراري بقبولك مضحية، ولكن قولك صدمني فكيف أثق بك مرة ثانية؟
- يعلم الله توبتي .. لا أستطيع وعدك .. اعتقدت أن اعترافي لك يشفع لي

- تعلم أن حس المرأة يصيب وقليلا ما يجهل الحقيقة، ومع حبي لك وثقتي بك، لم أشك في تصرفاتك، ولم أتوقع منك ذلك.
- فريدة .. فريدة .. ساعديني. قالها كالغريق الذي يستنجد بغريق
- أنت الذي كنت أظنك سند لم تعد كذلك.. أنت لم تحترم أنوثتي في اعترافك، تقولها صريحة أنك رافقت غيري، هل تعتقد أنني سأثق بنفسي بعد أن جعلتني أشعر بأنني لم أعد تلك الأنثى التي ترغب فيها وتتمنى أن تكون بين يديها؟. صمت وصمتت. تنظر إليه. لترى ابتسامة حزينة تناضل على شفتيه للظهور اتبعها بقوله المتأسف
- كل هذا فعلته من أجلك
- كفاك تبجحا .. قالتها وهي ترتمي على سريرها، تدفن رأسها في وسادتها لتجفف دموعها
- أنا اليوم أعترف لك بخطئي فلا أحتاج إلى عتابك. أنا أبحث عن حضن يحتويني، عن أيدي من الخطايا تنتقيني .. نظرت إليه بطرف عينيها فأردف وهو يفتح ذراعيه
- أنا أحتاجك يا فريدة.
- أرجوك أتركني الآن .. لا أريد رؤيتك. خفض رأسه في حزن وغادرها.

ندت عنها آهة حزينة هزت كل كيانها. نظرت إلى صورة زفافهم واقتربت منها، ابتلعت ريقها الجاف وهي تتفحص ملامحه. لم تحملها ساقيها من فرط الصدمة، فهوت على الأرض وأغمضت عينيها بإعياء.

في اليوم التالي فاجأتها زينب بخبر سفره إلى القاهرة ... حاولت الاتصال به، فوجدت هاتفه مغلقا، راحت تبحث عن رقم هاتف آخر في أدراج مكتبه، فلم تجد شيء، ولكنها وجدت مذكرات وجمع من الصور وضع في الدرج بفوضى وإهمال.. تنظر إلى صورة وقلبها يطلق من شدة الألم آهات... وقع نظرها على ورقة تتوسط المذكرات كتب فيها بخط يده

" ..... "

ألم تري آلة قلبي تعزف في الحب ألحاني ؟!

ألم تسمعي لساني في الشعر يبوح بأشعاري؟!

ألم يخبرك البحر بأسراري؟!

أدعيت الشعر والتلحين، ووقفت في الليل على البحر كما لو كنت في عالم الحب أحد المؤسسين، وأنتِ على عرش قلبي تتربعين؟

أ تبادليني هذا الشعور العظيم

أم أنا واهم وعن فهم النساء عقيم؟

أخبريني بما يحمله قلبك

أهل يوجد حب قديم !! أم أنتِ عن الحب تصغرين؟

صارحيني، فمهما كان الرد سيشفيني ... سيكون أبرد من نار غليلي.

أعلى الحب أعاقب ؟

عاقبيني ولكن بربك في حبك أتركيني، فلن أجد مأوى ما تبقى من سنيني.

أخشى أن يقتلني صمتك، ومن بعدي يصارحك القمر بأنك الوريث الشرعي له كما أبلغته في آخر جدال خوضته .

أعذريني فلم أستطع الإمساك بك، ورفعك إلى السماء لتملئ العالم بالحب والأمان.. لذلك أبلغته بأنك الوريث، ولم أخبره بأن قلبك عن حبي ضرير،

كنت آمل بأن سيأتي الوقت و قدمك في الحب تغوص .. أعيش بين حروفك الخمسة .. لا أفكر بزاد فحبك يغني عن ألف زاد.

وآخر ما أكتبه لكِ

أراكِ خلف جدران قلبك تقفين ..علي جهل حبي تصرين، وأنا غارق في حبك إلى يوم الدين " أنهت فريدة القراءة والدموع تنهمر منها .. فلم تعلم قدر حبه لها .. نظرت إلى تاريخ الورقة وتوقيعه، فعلمت بأنها كتبت قبل خطبتها.. خجلت من حبه الشديد، وسامحته على كل خطء صدر منه حتى لو كان فيه مذنب عنيد.

***

بعد أن شهدت مدرسة القاهرة نجاحا فاق توقع كلا من رجل الأعمال " الصاوي " ونورالدين. أبلغه الصاوي برغبته في إنشاء مدرسة أخرى في القاهرة، ولكن نورالدين كان يفضل أن تكون بالإسماعيلية لقرب المسافة

ولكن الصاوي أوضح رؤيته وقال

- نحن نريد الاستثمار، هذه حقيقة لا بد منها، ولكن تقع على عاتقنا مسؤولية تجاه المجتمع . إصراراي على القاهرة جاء لسرعة انتقال العادات بها نريد القضاء علي فكرة الدروس الخصوصية، وزرع أفكار حديثة وسامية. فالمدرسة هي بداية النهضة بالمجتمع. أشاد نورالدين بتفكيره، ولكنه عارضه بشأن الدوس الخصوصية وقال
- لا أسمح بإهانة المعلم فهو لا يخطئ حين يقدم خدمة مقابل مال بغرض تحسين مستوى دخله. بدلا من أن يعمل طاهيا في مطعم أو عاملا في مصنع كما نسمع.
- لم أقصد ذلك. المعلم إذا لقي مرتب مناسب لن يفكر في الدروس الخصوصية. أما باختياري للقاهرة؛ فهي الأم يا صديقي، ومن الأم نتوارث عاداتنا، وأكمل بشغف بالغ بعد ضحكة خفيفة
- أنا لا أطمع في حصد المال، وهذا لم يكن طموحي قبل معاونتك في افتتاح مدرسة الإسماعيلية، ولكن العلم يجعلك تفكر بأشياء أثمن من المال.

إخراج جيلا متعلما يفيد المجتمع لا يقدر بمال. كان حديثه يكمل ما يقتنع به نورالدين. وفي نهايته اتفقا على إنشاء مدرسة أخرى، وجعل نورالدين مشرفا عاما للمدارس.

بينما كان نورالدين سعيدا، كان يوسف يأسا حزينا في قطار الصعيد ... وصل محطة مصر وجال في ميدان رمسيس وسط الزحام، يتنقل بين المحلات بحثا عن عمل. انقضى يومه دون فائدة. بات ليلته الأولى في موقف الأتوبيس مفترشا الجرائد والمجلات على أحد مقاعده. أيقظه صوت غليظ صدر من أحد السائقين. سأله عن سبب نومه، وبعدما عرف أنه من قنا وأتى القاهرة بحثا عن عمل، دعاه لتناول الإفطار وبعدها جلب له الشاي. كما ساعده في العمل بأحد المخابز بمدينة نصر. كان الراتب ضئيل لا يساوي ما كان ينفقه في سهره من سهراته. ولكنه أعاده إلى الصلاة وتلاوة القرآن، كما عادت إليه الطمأنينة. أحبه صاحب المخبز لما رآه من جهد وإخلاص في عمله. يرسل المال إلى أسرته مع نهاية كل شهر، وعادت الحياة تحتضنه .. حتى حدث ما غير شأنه.

***

بعدما تركها يوسف وعاد إلى بلده، لم تتحمل أديل رؤية الملهى تحت سيطرة غيرها. بعدما فشلت في الانتقام من موظفها المختلس.

استسلمت، وعادت إلى باريس واليأس يمتلكها. يجتاحها إحساس بالحزن الشديد على فقدان يوسف في حياتها. لم يبق لها أحد في الحياة غير عملها الجديد في إحدى شركات الاتصال بباريس ورفيقها من أرض الغردقة هدية يوسف " المصحف المترجم ". تتذكر يوسف وإمساكه بالمصحف وسماع تلاوته في خشوع بالغ .. يتجسد أمامها وهو ممسك

بالمصحف، ويقول بحب وشغف " جلبت لكِ مصحفا مترجما " وحين حاولت تذكيره بأنها يهودية

قال

- لا تحاولي إنكار شغفك في اكتشاف ما يدور حولك، فأنا قرأت في عينيكِ حب التطلع. لم تحر أديل جوابا، وقبلت الهدية في صمت. ولكن شغفها في التطلع قل بابتعاد يوسف، وفقدان الأمل في العودة إليه، فأصبح أكثر ما تتمناه هو الحفاظ على ذكرياتهم. تتذكر جوابه حينما نطق لسانها بعد أن رأت المصحف بين يديه
- تريدني أن أكون مسلمة .. فأجابها دون تفكير الله يهدي من يشاء من عباده. فابتسمت له ولم يتوقف الحديث عند ذلك، ولكن عقلها توقف كثيرا عند قوله. مرت الايام ولم تفكر في الإسلام حتى حدثت.

الاختبار

في ليلة كان المخبز مزدحما، ويوسف غارق في عمله. توقفت أمامه سيارة فارهة. بداخلها ثلاث فتيات، أشارت إليه أحدهن من خلف زجاج النافذة، ومع انشغاله بالزبائن لم يذهب إليها، فترجلت وسارت بوجه يفيض منه الغضب وقبل أن يرسم لها يوسف ابتسامته المعهودة لكل عميل، هاجمته على قلة ذوقه في عدم الرد عليها، وقالت صديقتها التي تبعتها بعد أن تصاعدت الأجواء بلكنة إنجليزية

- دعك منهم... فهذه بيئة لا يجب أن نحتك بها. نظر يوسف إلى صاحبة الصوت الرقيق،

وقال بعد أن تغيرت تعابير وجهه بنفس لغتها

- نحن لسنا بيئة، ولكنها لم تراع تلك العجوز التي كانت تقف معي، كنت سآتي إليها بعد الانتهاء من خدمتها .. وحول نظره إلى صاحبة المشكلة

– أما الذوق فلا أرى أدبا على تهجمك بشخص رأيتيه منشغلا مع غيرك.

فتلاقت أعين الفتيات والحرج يغمرهن. فقالت ثالثهن معتذرة لتفك قيود الموقف

– لم نقصد إساءتك .. أعذرنا.

– لا شيء يتطلب الاعتذار .. وقال وهو يرسم نصف ابتسامة

– ما طلب حضراتكن ؟

فأشارت أحدهن إلى أقرب حلوى أمامها، ولم يكن هذا مرادهن ولكن الموقف لا يتحمل الاختيار، فهي تريد أن ترحل ليعود الدم إلى وجوههن .. ومع أنها خدمتهن

قال للتي أساءت إليه صاحبة الصوت الرقيق

– لا تسيئي إلى أحد سيدتي، فقد تقع الكلمة في قلب أحدهم مثل الرصاصة.

وقبل أن ينطق لسانها جذبتها صديقتها، وغادرن المخبز وعيونهن مازالت تتعلق بيوسف الذي لم يكترث بانصرافهن، وراح يستكمل عمله مع باقي الزبائن. جاء صاحب المخبز مندهشا لما رأته عينه، وسأله عما دار بينهم، فشرح له الوضع فظهرت عليه علامات الغضب ولكم الحائط بقبضة يده وهو يقول

– لماذا لم تبلغني ؟

فقال يوسف وهو يهدئ روعه.

- لا حاجة إلى خلق مشاكل يا " معلم " نحن في غناء عنها، وتابع مداعبا
- الزبون دائما علي حق، فابتسم الأخير إلى دعابته، ومرت الليلة وجاءت أحدهن في اليوم الثالث تسأل عن يوسف بعدما ابتاعت ما تريده، ولم تر يوسف في المخبز. فقال لها صاحب المخبز بغضب
- تريدين إساءته مرة ثانية ! فقالت بلسان مرتبك فلم تكن تعلم أنه يعرفها.
- أريد الاعتذار عما بدر من صديقتي.
- سأبلغه اعتذارك.. هل من مساعدة أقدمها لك
- لا .. شكرا لك .. استدارت عائدة إلى سيارتها، فوقعت عيناها على رجل كساه الدقيق، فجعل شعره أبيض مثل المشيب وأغرق ثيابه .. فنادت على اسمه الذي عرفته من صاحب عمله.
- يوسف .. يوسف .اقترب منها، وتأكدت من ملامحه فقالت
- جئت لأعتذر لك، فلم نكن نستطيع الحديث معك حينها، فتعلم أن الحرج شل ألسنتنا
- مجيئك اليوم محا حزني ..

- أتمنى ذلك .. ولكن أريد أن أسألك كيف تعلمت اللغة الانجليزية؟، وما الذي يجعلك تعمل في مخبز وأنت تملك لغة تجعلك في وظيفة أرقى؟
- الحقيقة أنا أملك ثلاث لغات بجانب اللغة الإنجليزية ... اتسعت عينا الفتاة، وقالت هامسة
- عامل في مخبز لديه أربعة لغات !
- لا تتعجبي، فأنا كنت أعمل في السياحة
- ولماذا تركتها ؟
- حاجة في نفسي. احترمت عدم إفصاحه، وقالت
- هل باستطاعتك أن تعلمني اللغة الفرنسية ؟
- بالطبع يمكنني، ولكن أتوقع أنكِ تجيدين الإنجليزية والفرنسية مثل صديقتك.
- تحتاج إلى الممارسة لتنميتها وإتقالها.
- يسعدني تدريسك ولكن يظل الوقت عقبة لدي
- ساعتين في الأسبوع، لن تؤثر على عملك. اخترق صاحب المخبز " المعلم " حديثهم، وقال بود

يمكنك أن تذهب إليها في أي وقت. بينما انتظرت الفتاة إجابته، ولكنه لم يتكلم، فوجدته يتأمل " المعلم " الذي سألها باهتمام بالغ

" كم ستقاضيه يا آنسة ؟ "

– اسمي منى .. سيحصل علي ما يرضيه

رد المعلم قبل أن ينطق يوسف

عاشت الأسامي يا أستاذة منى .. ثلاث مئات في الحصة.

التفت يوسف إليه ولم يعقب فقالت منى

– اتفقنا

فنظر إليها يوسف غير مصدق فقال المعلم بصوته الغليظ

تبادلا الأرقام واتفقا على الموعد ..

وحين غادرت منى، قال يوسف للمعلم

– كيف وافقت على المبلغ دون أن تتردد؟

– مثلها يدفع آلاف الجنيهات مصاريف دراسية

– لا أعرف ماذا أقول لك؟، ولكني أرى المبلغ مبالغ فيه.

– هذا رزقك يا بني

***

تتحدث مع زميلتها وهي تنجز بعض مهامها خلف شاشة الحاسوب، جاءها اتصال تليفوني من إحدى مستشفيات باريس يخبرها، أن بواب العمارة مريض جدا، ويريد مقابلتها، تغيرت ملامح وجهها، وظهر الحزن عليها. سألتها زميلتها عن سبب تغير وجهها، فأخبرتها بمرض بواب العمارة التي تقيم بها، كما ذكرت لها لطف البواب معها منذ الصغر، ولكن

تبدلت ملامح وجهها حين مر من أمامها إيثان، حاولت أديل التحكم في ملامح وجهها. لاحظت زميلتها توترها، فظنت أنها على علاقة به، فقالت مداعبة

– أنيق مستر إليسون. قالت غير متفهمة قصدها

– إليسون ! .

أشارت إلى إيثان الذي وقف قصادها يتحدث مع أحد العاملين بالمركز وهي تقول بعد ضحكة خفيفة

– مستر إليسون.

ابتلعت أديل ريقها، وهي تعاود النظر إليه. إنه إيثان فالعمل لمدة عام لا يجعلها تخفق في التعرف عليه. ولكنها سايرتها في الحديث خشية أن تصيب الحقيقة.

عادت إلى سكنها وهي تفكر في ترك العمل خوفا منه، فهي تعلم مدى خطورة شخص مثله. ولكن إيثان لمحها حين رأته، ونظر إلى الملف الخاص بها وتأكد منها، وفي اليوم التالي طلبها في مكتبه، فلبت طلبه. اقتصرت المقابلة على تلقيها موعد في أحد مطاعم باريس. خرجت من مكتبه والخوف يعتريها من عواقبه، زاحمتها زميلتها التي كانت تراقبها في فضول متسائلة عن سبب المقابلة، ولكن خوف أديل لم يُسمعها ما يُشبع رغباتها، فسألتها عن البواب المريض لحفظ ما وجها، فاضطربت أديل وأسرعت في المغادرة متجهة إلى المستشفى.

في الموعد المحدد توقفت سيارة منى أمام المخبز، لم تكن منى بداخلها، فقد أتى سائقها بمفرده، وأبلغ يوسف بأنها تنتظره في الفيلا . استقل يوسف الكرسي الأمامي بجواره، وانطلقت بهم السيارة، ولم يشعر يوسف بحركتها أو توقفها أمام علامات المرور .. فمقاعدها فاخرة ومريحة.. توقفت بهم أمام فيلا كبيرة يحيط بها سور بديع تظهر من خلفه الزهور. فتح لهم " البواب " أوصله السائق إلى قاعة الاستقبال، حيث كانت تنتظره منى برفقة صديقتها التي مازالت تحتفظ بعلامات الحرج، وبعد الترحيب خاضوا في درسهم وتناسى نفسه ولم يفق إلا على رنين هاتفه .. إنه المعلم .. أراد الاطمئنان عليه، وفي مغادرته أبلغته منى بالموعد القادم،

واستمر يوسف هكذا ما بين المخبز ودروسه حتى عرضت عليه منى العمل بمدرسة والدها

- والدي يملك مدرسة خاصة، إذا أردت العمل يمكنني أن أحدثه.

ومع قولها ذهب ذهنه إلى المخبز وأصدقاء عمله،

فقال لها

- انتظري جوابي.

وحين التقى بالمعلم حدثه عن رغبته، ففرح له عكس ما كان يتوقعه فأعرب يوسف عن حزنه لترك المخبز فقال " المعلم "

- الحياة تفرض علينا الفراق بحثا عن رزقنا، فإذا أتيح إلى بيع المخبز لإنشاء مشروع أكثر ربحا سأفعلها .. توكل على الله يا ابني.

وفي لقائهم التالي وبعد الانتهاء من الدرس، سألته عن موقفه، فأبلغها موافقته، فشرحت له أشياء لا بد أن يفعلها كي تساعده في وظيفته، فوافقها الرأي، وخضع إلى برنامج تأهيل المعلمين من قبل أحد المراكز المختصة .. وكان ينتظر اجتياز اختبار الوظيفة كي يترك المخبز، ويستأجر شقة صغيرة تكفيه.. وفي الموعد المحدد للمقابلة كان يوسف ينتظر منى أمام المدرسة، فأصرت أن تكون معه لتساعده في اجتياز الاختبار. وبعد خمس دقائق من الانتظار أتت منى وصحبته إلى حجرة المدير. وهناك لم تجد المدير، فقابلهم أحد الموظفين نيابة عنه راسما ابتسامة على شفتيه،

وهو يقول

- " المدير" كان يتمنى لقاءكم لولا مرضه، أتمنى أن أوفي غيابه.. وراح يتحدث عن أهمية وظيفة التدريس. وبمكالمة والد منى، تم تعينه دون استكمال الاختبار.

وفي اليوم الأول من وظيفته دلف المدرسة وانتظر المدير في استراحة المدرسين. ينظرون له. عيونهم تسأله عما جاء، وعقولهم تجيب نيابة عنه، وجاءت السكرتيرة الخاصة بالمدير

تهتف برقة

" مستر يوسف ... مستر يوسف " فأجابها يوسف منتصبا في رشاقة وحماس

- أفندم .. أشارت إلى مكتب المدير وقالت
- المدير في انتظارك

دلف المكتب بعد أن أذن له. أشار إليه بالجلوس بعد أن صافحه. طالعه على عقده وحرص على إلقاء كلمة أخيرة يحثه على أهمية المدرس بالنسبة له

- في الدول المتقدمة المدرسون يتقاضون أعلى مرتب في الدولة.. تعرف أن قضاة ألمانيا قاموا بمظاهرات من أجل مساواتهم بالمعلم، لذلك حرصنا هنا على تقديركم. أتمنى أن تكون راضيا عنا

نظر يوسف إلى عقده وقال بنبرة راضية

- أعدك أنني سأكون عند حسن ظنكم. انتصب المدير وهو يصافحه منهيا لقاءه مختتما بتحية له متمنيا توفيقه.

****

حياة كل ناجح لا تخلو من قلب يحمل الحقد تجاهه أو حاسد، أو قد يداهمه الوهم .. فسير يوسف على نحو أفضل في وظيفته رغم أنه لم يحصل على شهادة " تعليم عالي " فتح عليه أبواب الجحيم من زملائه، إذ بلغ غيظ وسخط زملائه على التفتيش في ملفه ومعرفة مستوى تعليمه بعد أن قدم أحدهم رشوة إلى الإداري المسؤول، وعلت الأصوات منهم فقال أحدهم أن المدير لا يدري بملفه شيء، وقال آخر أن المدير تعمد الغياب وقت توظيفه متلاشيا مواجهة صاحب المدرسة .. وفي حجرة المدرسات كان الحال متماثلا حتى تصاعدت الأجواء فاقترحت مدرسة اللغة الانجليزية مبارزته متوعدة بتلقينه درسا قاسيا .. لتحافظ علي مبادئ وقيم المعلم. ولو كنت رأيتها وهي تعنف صديقتها، وتشير بسبابتها في غضب

لدعابتها ونصحتها بالتراجع عن فكرة المبارزة لأنها ترى فيه اللباقة في اللسان، والتمكن في اللغة، لقلت أن يوسف قتل عزيزا لديها.. ولم يحترموا زملاءه الرجال مشاعره، فبدأوا يرمونه بمستوى التعليم الهابط لوجود معلمين غير صالحين، وأنهم يشفقون على تلاميذ إحدى المدارس المجاورة التي يعمل بها معلم حاصل على (دبلوم صناعي) .. وكان يوسف يفهمهم، ولكنه يخجل أن يكشف قبحهم ففضل أن يكتم في نفسه حتى يتثنى له مخرجا... ولكن الكلام قد يكون أصعب من الآلام .. فظل يوسف مستكين في عمله حتى جاءت صاحبة المبارزة لتوفي بوعدها، ولم يكن يوسف يقبل مبارزتها لولا هجوم الجميع عليه.

حينها قال

- أعرف جيدا ما ترنو إليه، وأعرف جيدا ما يدفعكم لذلك. ثم أكمل وهو يتوسط قاعة جمعت المدرسين والمدرسات
- جميعكم جاء لرؤية التحدي التي دعت إليه الزميلة الفاضلة، وأشار إلى غريمته فرأى عينيها تحتضن الأرض خجلا. ثم أردف ملوحا بقلم سكن راحته
- لم أكن أقبل هذا التحدي، ولكن الشك الذي يملأ عيونكم، دفعني إلى ذلك. وأشار إلى غريمته التي كانت تسترق النظر إليه، ليبلغها بأنه جاهز. ولكنها لم تجاوبه رغم فهم إشارته، ولكن صديقتها التي تثق في قدرة يوسف، نهضت لتخطف أنظار الحاضرين

وقالت

بثقة وهدوء

- إليكم خمسة عشر دقيقة لوضع اختبار.. لنرى من الأفضل. فتشجع الجميع وذهب الحرج عنهم واقترب كل منهم إلى الآخر لاقتناء الأسئلة. بينما هم يضعون الأسئلة ذهب يوسف إلى مكتبه، وفتح ورقة، ودون بها بعض الكلمات، وأخذها معه إلى قاعة الحضور، ليرى الأسئلة جهزت وتبقى أن يقف أحد الحاضرين ليكون حكما بينهم. ووقف كل منهم على جانبي الحكم، وبدأ الأخير في عرض الأسئلة عليهم، وراح يوسف يجيب على ما يعرفه، وهي تجيب حتى انتهاء الحكم من الأسئلة الموضوعة والنتيجة مازالت تعادل. واحتار الجميع في إنصاف أحدهما.

ولكن كلمات يوسف جففت حلوقهم وصببت العرق في جبينهم

- طبيعي أن نجد التعادل بيننا لأن الاسئلة شائعة إليكم سؤال مني وسؤال منها، فقد تتغير النتيجة. فرفعت الفتاة صاحبة الثقة بيوسف يديها موافقة، واقتنع الجميع برؤيته. وراحت تسأله وهو يجيب وحين انتهت. تبدلا الكراسي ونطق أول أسئلته، لتصمد ويصمد الجميع، وظن بعضهم أن السؤال غير موضوعي، ولكن ابتسامة يوسف جعلت نبضات قلوبهم تتسارع، وأنفاسهم تحتقن، وأجاب على سؤاله وهو يسير نحو منضدة توسطت القاعة ليخرج ورقة من جيبه، ونطقت عينه بالدموع قبل أن ينطق لسانه ويقول

- هذه استقالتي .. ولكن أريد أن أوضح لكم أنني لم أنجح في الالتحاق بكلية، وأصل إلى مستوى تعليمكم؛ لأنني كنت في ظروف لا تسمح لي أن استكمل تعليمي .. وأحمد الله أنني لم أصل إلى مستوى تفكيركم وأسلوبكم .. تحدي ومبارزات كما لو كنا نعمل في مزرعة دجاج ! وحين اقترب من الباب قال وهو ينظر إليهم
- كنت أتمنى أن استكمل الطريق، ولكن يكفي ما وصلت إليه، سأبحث عن تحدي جديد. إلى اللقاء غادر، ولم يلتفت إلى ندائهم، وحاول معظم الحاضرين إقناعه بالتراجع عن قراره ولكن الدماغ الصعيدي تحجرت أمام رغباتهم .. وبعد أن غادر الجميع خلفه، ظلت صاحبة المبارزة " الخاسرة " في القاعة ترافق دموعها، لا تعي بما يحدث حولها، فقط توقف بها الزمن، وهي تقرأ أعين الجميع وهم ينسحبون خلف يوسف. ودارت صورهم وهم يطعنون يوسف في ظهره، والآن يسيرون خلفه.

***

في الوقت الذي دلفت فيه أديل المستشفى استقام خط تنفس البواب معلنا انتهاء آخر أنفاسه. قدمت أديل إثبات شخصية للموظف بعد أن طلبت منه زيارة البواب، تردد بنظره بين وجهها والبطاقة ولم تمنعه أديل من رؤية جمال عينيها وأخفضت نظارتها السوداء تلبية لدعوته هز رأسه وهو يرسم نصف ابتسامة، ومنحها تصريح بالصعود إلى الحجرة ٧٤ . استقلت المصعد الكهربائي في الصعود رغم قرب الطابق الثالث، ولكن التفكير في

إيثان جعلها في ضعف ووهن. أغمضت عينيها ونظمت أنفاسها لتتهيأ للزيارة، وفي الطابق الثاني شاركتها سيدة في المصعد تحمل باقة ورد. أدركت أديل مدى إيذائها الفكري بعودة إيثان إلى حياتها، فقد أنساها حمل هدية لمريضها. انفرج باب المصعد في الطابق الثالث لترى أديل حالة هلع بين أفراد الأطباء في الطرقة، مالت أديل إلى أحدهم، وسألته عن سبب الازدحام فأخبرها بأن مريض حجرة ٧٤ وافته المنية . خبأت وجهها بيديها وسالت الدموع من عينيها، وكانت الدموع تسيل بخفة، وتنساب لتشق سبيلها في وجهها الملائكي وفي عقلها، بدأت حرب العتاب على التقصير في زيارة من رباها... ظلت على هذا الحال شاردة حتي انتبهت على صوت رجل يقف في نهاية الطرقة، أقبل عليها وعزاها بحزن بالغ وطلب منها رقم هاتفها، وحين استفسرت عن سبب ذلك عرفها بأنه صديق البواب، ويحمل رسالة منه إليها.

عادت أديل إلى شقتها، والحزن يعتريها، تفكر في رسالة البواب والرجل الذي يدعي صديقه، فلم تره من قبل، ولكن التعب لم يمنحها التفكير طويلا في الأمر، وراحت في نوم عميق.

في اليوم التالي وبينما تجلس أديل على مكتبها منهمكة في عملها، انتفض جسدها عندما رن جرس هاتفها، ألقت نظرة سريعة على ساعة الحائط التي تشير عقاربها إلى الساعة السادسة مساءا، ويدها تعبث عن الهاتف في حقيبتها. تذكرت موعد مستر" إيثان " تبقى ساعتين على لقائهم. أجابت بحرص وهي تتلفت حولها بعد أن سمعت صوت إيثان

- حاضر. حاضر . ندت عنها آهة هزت آلامها تبعتها بوجوم بعدما رأت صديقتها تثبت النظر إليها، وعلي وجهها ابتسامة ساخرة. نهضت وهي تلملم أشياءها. ذهبت إلى مديرها، وأبلغته ما أملاه إيثان عليها

- مستر إليسون أبلغك بانصرافي.

هز رأسه من خلف حاسوبه سامحا لها بالمغادرة. غادرت الشركة وهي تحاول أن تخفي التوتر والقلق الذي كسا وجهها. استقلت تاكسي، وانطلق بها نحو المطعم حيث ينتظرها إيثان. كان إيثان يقتعد طاولة مدورة على شكل قلب، اقتعدت أديل دون أن تصافحه مكتفية بإشارة أصابعها الرفيعة. تلفتت نحو النور الراقص على طاولاتها محاولة السيطرة على نبضات قلبها. ابتسم إيثان وأشار إلى النادل الذي جاء بخفة ممسكًا بدفتره الصغير الذي يساعده في كتابة الطلبات، وبعد أن دون طلباتهم انسحب بخفة، وجاء بعد مدة قصيرة يقدمها لهم. تناولا الطعام في صمت، ومع مرور الوقت كاد أن يتوقف قلب أديل، تراقب نظراته، تحاول قراءة أفكاره. عجزت عن النطق حتى جاء صوت إيثان بعد أن جفف شفتيه بمنديل ورقي

يسألها عن رأيها في الطعام. قطبت حاجبيها بتعجب لكنها لم توال الأمر اهتماما، ثم مضت تلتهم وهي تمص أناملها الناعمة

ثم إجابته بحدة وهي تقترب منه

- أعتقد أن لحم الأبرياء أجمل بالنسبة لك. جال بنظره حول طاولتهما، وحين تأكد بأن لم يسمعها أحد اقترب منها، وقال ببطء شديد

- يبدو أنني سأتذوق طعمه اليوم، إن لم تسمعيني للنهاية. صمتت أديل قليلا، ثم نظرت إليه قائلة
- مثلك لا يستحق أن يكون على قيد الحياة. تنهد وقال
- أتفق معك.. ولكن عليك أن تسمعي الحقيقة.
- إذا كان كلامك سيوضح براءتك .. لا تتحدث. صدرت عن إيثان زفرة حارة قبل أن ينتصب واقفا وهو يقول
- لم أر أنثى عاقلة في حياتي، ثم قال مهاجما وهو يسير نحو سيارته
- لم أطلب منك غير الإنصات. فقالت وهي تطلق ضحكة ساخرة
- هل كلفك إجرامك بشيء يستدعي خدمتي أم جئت لتنتقم مني ؟
- لم تحومي حول تساؤلات عقيمة وعديمة النفع . هزت أديل رأسها وهي تنظر إليه قائلة أكمل ... دون أن ينطق لسانها. استند على سيارته وقال وهو ينظر للاشيء
- سأوضح لكِ حقيقة غابت عنكِ في مصر... كنت أعمل لدى المافيا الألمانية. إدارات أديل وجهها إلى الطريق وهي تردد عبارته.
- المافيا الألمانية !!
- بعد فشلي في مهمتي بمصر، أصبحت كارت محروق لديهم، وتم الاستغناء عني. طالعته بأعينها دون أن تنبث ببنت شفة، فأردف وهو يبتسم ابتسامة شيطانية وقال

- تعرفين طريقة الاستغناء لديهم ؟ . هزت أديل رأسها بالنفي، وهي تحبس أنفاسها، فأجاب إيثان ببطء شديد
- القتل.

***

بعد أن امتنع عن الذهاب إلى المدرسة، لزم يوسف مسكنه. لا يغادره إلا حين يذهب لإعطاء الدرس لمنى... أحست منى بتغيره، ولم تكن تعلم أنه ترك المدرسة ولم يعرفها يوسف، بل كان حريصا على ذكر تلاميذه في مجلسها والإشادة بقدراتهم .. وحين يغادرها، تغادره جميع أفكاره فتظل ذكريات تلاميذه، تنهش في رأسه. يستوقفه الندم على أسلوبه الحاد حين يخرج أحد الطلاب عن إطار الالتزام.. كان يفعل ذلك لاستمرار الاحترام المتبادل بينهم، والحفاظ علي المسافة الفاصلة بين المدرس والطلاب.

وفي يوم جاءه اتصال من قبل سكرتيرة المدير، طلبت مقابلته، ووافق يوسف بعد إلحاحا منها. أملته عنوان أحد المطاعم بمدينة نصر.

في اليوم التالي ذهب يوسف إلى المطعم قبل الموعد المحدد. جال بنظره بين رواد المطعم فلم يجدها، فعاد بنظرة إلى لافتة المطعم ليتأكد بأنه لم يخطئ العنوان. جلس بين المقاعد الخالية المطلة على الطريق؛ ليطلق نظره على العابرين أخرج هاتفه، وأخبرها بوصوله، وقبل أن ينهي المكالمة كانت تقف أمامه.

ابتسم لها فقالت وهي تصافحه

- تعمدت الإطالة في الحديث لأصل قبل أن تنهي المكالمة. بادلها الابتسامة، فأردفت معتذرة عن تأخرها
- آسفة على التأخير، ولكن مروري بالمدرسة سبب تأخري
- وكيف حال المدرسة؟. خرجت منها إجابة بديهية " بخير "، ولكن توقف لسانها بعد أن قرأت عينه، فوجدت الحنين يغرقها، وقالت بعد وهلة من الصمت
- المدرسة ! المدرسة تحولت إلي ميدان للتمرد بعد أن توالت طلبات أولياء الأمور على عودتك، وحين تسرب إليهم خبر استقالتك، حملت الطلاب صور وأعلام تحمل اسمك. كانت ملامح وجهه تتفاعل مع حديثها وبعض الكلمات الصعيدية التي تعبر عن التفاجئ والدهشة. سألها عن رد فعل المدير
- بعد أن قدمت استقالتك خشيت أن أقدمها للمدير، نصحني أحد الزملاء بإعطائك إجازة، والابتعاد عن مسألة الاستقالة إذا أردت معالجة الأمر دون أن أضر أحد. ومع اعتقادي بأنك قريبا من صاحب المدرسة خشيت أن المدير يتخذ قرارا يأتي بالضرر لأحد الأطراف. فقال يوسف مقاطعا حديثها
- المدير لم يعرف بطلبي .. " الاستقالة " ؟

أومأت مجيبة

- نعم.

اقترب النادل بابتسامة قصيرة مشيرا إلى لائحة الطعام على الطاولة. نظرت السكرتيرة وأملت النادل اختيارها، بينما اكتفى يوسف بإشارة تخبره " مثلها "، فهز النادل رأسه، وانسحب في تهذيب، فتثنى للسكرتيرة العودة إلى حديثهم

- لم أحاول الاتصال بك، فقط كنت أتابع توالي الأيام، أدعو الله أن يهديك، وتعود قبل انقضاء أجازتك، وقطعت وعدا على نفسي ألا أتدخل قبل انقضاء نصف مهلة أجازتك " أسبوعين " وما فعلت ذلك إلا خشية من خبر رفضك. حين نخشى النتائج نتمنى الهروب من الواقع حتى تنقضي . مثل الكابوس المخيف ننهض قبل أن نلقى مصيره.

ولكن مجيء أولياء الأمور يطالبون بعودتك أربك حساباتي، وجعلني أعيش في توتر وقلق فقررت أن أواجه المشكلة وأقابلك.

- لو رأيتيني في الماضي، وعرفتي ما حدث معي في المدرسة، وعقدتي مقارنة بين رد فعلي حين يتعمد أحد إيذائي، ستقولين بأنني تغيرت كثيرا، وأصبحت مسالما مع خصمي. كان النادل قد بدأ في رص الأطباق، بينما أكمل يوسف حديثه قائلا
- لم أرد أن أخوض حرب غير شريفة مع أشخاص يتسلحون بأسلحة غير شرعية .. هزت السكرتيرة رأسها غير متفهمة قصده. فقال وهو يتذوق الطعام
- كنت أسمع إساءتي والتشكك في قدرتي، ولم أبال

- أعلم جيدا أخلاقك... ولكن عدم عودتك سيضرني. أبطأ في سرعة المضغ كناية عن التوتر، فأكملت برجاء ألم قلبه وهي تناشده
- ألا تعود من أجل مستقبلي؟.
- أعلم أنني أخذت قرار الاستقالة في ذروة غضبي، ولكن التفكير بها سابقا جعلها هينة على قلبي. أخذت السكرتيرة شهيقا في محاولة لتهدئة نفسها قبل أن تقول بنبرة متوسلة
- لا تخيب ظني بك. هز يوسف رأسه دون أن ينبس بكلمة. امتلكها اليأس، وأحست بضيق في جلستها فأشارت إلى النادل وطلبت الحساب، فأتاها بحافظة منقوش عليها شعار المطعم تحمل بداخلها فاتورة، وبعد أن وضعت بداخلها النقود. ردتها إليه، ونهضت متبرمة بعد أن قبضت بيدها على حقيبتها الجلدية، وقالت مودعة
- كنت أتمنى مساعدتك .... سلام

ظل يوسف ساكنا يقاوم لسانه الذي عجز عن رد التحية. وبعد ربع ساعة من السكون سحب، وعاد إلى مسكنه، ألقى بجسده على السرير حاول أن يستدرج النوم، ولكن حديث السكرتيرة كان يعتصر ذهنه، هدّأ أعصابه، وأطفأ الأباجورة المرتكزة بجانب سريره، فربما الضوء المنبعث منها سبب قلقه.. أغمض عينيه، ورست أفكاره على حافة قراره بعدم العودة مجددا إلى المدرسة. أحس باختناق. تنفس. تقلب في الفراش كثيرا، لم يستطع أن ينام. رغب في الخروج إلى الشارع ليستنشق الهواء، تذكر أنه لم يتحدث مع

زينب منذ فترة، فكانت مكالماته بنجع حمادي مقتصرة على سماع صوت فريدة وهي تطمئنه بكلماتها المحدودة

" الحمد لله بخير .. الله معك .. وفقك الله "

ولم تكن صدمتها بيوسف هي السبب . بل حزنها عليه وشعورها بالتقصير في شدته، جعلها تشعر بالخزي والخجل، فأصبحت تهرب من حديثه بإجابات قصيرة توقف بها ما حاول أن يبدأه من لغة حوار.. اليوم مر على سفره تسعة أشهر هي المدة الأطول في غيابه عن داره. أمسك بهاتفه واتصل بزوجته. طمأنته على حال الدار، وتسرب إلى مسمعه صوت زينب بجانبها،

وهي تقول بحزن

- المال عمى القلب ! .. وحين أخذت زينب الهاتف من فريدة أكملت
- ألم تشتاق لرؤيتنا ؟ أجابت دموعه قبل لسانه، وألمت زينب حبال صوتها المتناثرة، فسمع صوت دموعها بوضوح. فقال يوسف بنبرة متماسكة لم تخل من مسحة حزن
- أنا أشتاق إليكِ أكثر مما تشتاقين .. سآتي مع نهاية العام الدراسي. وأنهى المكالمة بعد أن اطمأن قلبه بكلماتها الطيبة.

أسندت زينب الهاتف بجوارها، ووجدت لسانها يدعو كما لم يدعُ من قبل. طلبت من الله أن يحفظه لها، ويحفظ فريدة له وأن يرده إلى الدار سالما.

***

في فيلا الصاوي يجلس يوسف ومنى بعد انتهائهم من الدرس. تحدثه عن طموحها في مجال الإعلام ... أخبرته بأمنية والدها.

فقالت وهي تستحضر لحظة ظهور نتيجة الثانوية

- نصحتني أمي وقتها بالالتحاق بكلية الإعلام، وقالت والدك اختار اسم منى حبا في الإعلامية الكبيرة " منى الشاذلي " وسيكون سعيدا إذا التحقتِ بكلية الإعلام.
- سنراكِ على التلفاز بعد تخرجك ؟ هكذا سألها يوسف. فأجابت وهي تعدل في جلستها
- لا .. فأنا خيبت أمل أبي، واخترت قسم الصحافة.
- بسبب تدني درجاتك ؟
- لا .. ولكنني أحببت مجال الصحافة.. ولكي أكون صريحة معك .. قدراتي تؤهلني أن أصبح صحفية بارعة، ولا تساعدني على أن أكون مذيعة متألقة.

ظلت تسرد حديثها ويوسف يستمع لها، وفي نفسه يقول

- كم تساعد اللغة رجل مثلي على أن ينال هذه السعادة الهائلة بعد كل ما مررت به في حياتي؟!، فقد جعلتني مُعلم بعدما كنت صبي خباز، والآن أجلس مع فتاة تبدو كالقمر، استمتع بأنسها وأنوثتها، وهي تحكي عن طموحها. لم يفق يوسف بتوقف منى عن الحديث

والتحدث بهاتفها آفاق من شروده على سماع اسم السكرتيرة، وتردد اسمُه بعدها

مستر يوسف .. مستر يوسف .. دار بعينه ليستوعب ما جرى حوله، وهو يقول لمنى بعد أن أنهت مكالماتها

- السكرتيرة ؟ هزت رأسها وهي تسأله
- لماذا انقطعت عن المدرسة ؟ نظر في عينيها وسيطر الصمت عليه، فلم يحر جوابا، ولاح في وجهه الارتباك على غير عادته.

فقالت منى نحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سر.

- لم أرد أن أزعجكِ، ولكني رأيت أنني لا أروق للتدريس.
- ولكن السكرتيرة تقول عكس ذلك.
- ماذا قالت ؟ نظرت إلى عينه العسلية العميقة وقالت مداعبة
- لا تخدعني بسحر عيونك. ندت عنه قهقه خفيفة أراد بها أن يتمالك نفسه. عاودت منى سؤالها بإلحاح بالغ
- لماذا انقطعت عن المدرسة ؟

***

الخوف

تجلس على سريرها يراودها الشك في أمر إيثان ترن في أذنها كلمته الأخيرة قبل انصرافه متعجلا بسبب اتصال طرأ عليه ... (القتل) أحست أن القتل رسالته، وأن ما دار في المقابلة مدبر له. لم يكف عقلها عن التفكير، وكلما دققت في تفاصيل لقائه، وحللت أفعاله كلما ازدادت يقينا بما يدور في رأسها. وزاد توترها رسالة إيثان التي طرأت في جلستها، فهزت كيانها، وشلت أفكارها، تلعثمت في قرأت كلماتها وتداهمت الأفكار بعقلها، وأخذت تتساءل .. هل سيقتلني حقا ؟ هل عملنا في نفس الشركة صدفة أم مدبر ؟ لا مستحيل ! ولماذا يرسل إلى التحية في رسالة ؟

هكذا تحدثت مع نفسها قبل أن تلتفت إلى رسالته الثانية، فاستجمعت قواها، وقرأت محتواها " سأنتظرك الليلة في المطعم بنفس الموعد " أيقنت أن الليلة هي الأخيرة في دنياها، فحاولت إلمام أفكارها، وبعد أن

هدأت نفسها، وجدت في الهروب حلا لها، ولكن معرفتها لقدر إيثان جعلها تتراجع عن الأمر .. ومع حلول الليل كانت أديل لا تزال تقطع الصالة ذهابا وإيابا وهي تفكر في مقابلته، وقد اعتراها القلق، وتمكن الخوف منها. طرق باب شقتها، لتزداد قلقا، فهي لا تستنظر أحد، سارت نحو الباب بخفة ونظرت من العين السحرية فتبينت وجه ذاك الرجل الذي لقته في المستشفى " صديق البواب " فتحت أديل وهي تحاول إخفاء القلق والتوتر ورحبت به، فقال الرجل وهو يبتسم

آسف على زيارتي دون إخبارك، حاولت الاتصال بكِ ولكن هاتفك كان مغلقا. أشارت له بالدخول، ولكنه رفض وطلب منها المجيء معه لم تسأله عن وجهته، ولكنها وجدت من يبعدها عن مقابلة إيثان، قبضت على حقيبتها، وغادرت معه .. وفي السيارة حاولت تصنع الهدوء، وجاهدت لتخفي القلق الذي اعتراها.

لاحظ توترها فقال لها وهو يلقي النظر عليها

- لا تقلقي فأنا لن أبتعد كثيرا عن منزلك. أدارت رأسها جانبا بعيدا عنه وقالت
- لست قلقة. وبعد مسافة قصيرة ساد فيها الصمت توقف على جانب الطريق وأطفأ محرك السيارة دون أن يترجل منها، وقال
- أعرفك بنفسي. أنا " مالك " داعية إسلامي أقيم بباريس منذ عشرين عاما، تعرفت على البواب " مؤمن " منذ شهرين، وقبل أن يكمل حديثه، قاطعته أديل وهي تردد اسم " مؤمن" ! متعجبة منه، وقالت

- البواب كان اسمه ميشال. هز رأسه، وهو يقول
- هذا اسمه قبل أن يعتنق الإسلام بسببك
- يعتنق الإسلام بسببي ! كيف حدث ذلك وأنا لست مسلمة ؟ فقال وهو يتذكر أول لقاء جمعه بالبواب
- كنت في إحدى المكاتب أبحث عن كتاب في القسم الإسلامي، فوجدت " مؤمن " يمد حاسوبه الذي كان به صورة مصحف مترجم، ويطلب مني أن أساعده في البحث عنه، وبعد أن ساعدته في العثور عليه، أحسست أنني بحاجة إلى معرفة قصته، فسألته كيف اعتنقت الإسلام؟ وتفاجأت حين أجابني بأنه لم يعتنق الاسلام بعد، ولكنه وجد هذا المصحف في شقة بالعمارة التي يعمل بها حينما كان ينظفها، ولأنه شخص يحب القراءة والتطلع دفعه شعور بالقراءة، وإعادته مرة ثانية إلى مكانه، يقول أنه تردد في فتحه احتراما للأمانة، ولكن فضوله تغلب عليه، وفتحه وبدأ يقرأ فيه .. وفي كل مرة يصعد لهذه الشقة يذهب إلى المصحف أولا .. كان شعور بالراحة والطمأنينة يسكن جسده .. وبينما مالك يتحدث عرفت أديل سبب سعادة البواب والفرحة في عينه حينما كانت تكلفه بتنظيف الشقة.

أكمل الداعية

- لم أتردد حينها في أخذ عنوانه، وظللت أتردد عليه، وأحدثه عن الإسلام حتي شرح الله صدره واعتنق الإسلام قبل وفاته. وترك لي وصية. وما هي وصيته؟

- أوصاني بأن أحدثك عن الإسلام؛ لأنك كنت سبب في هدايته، وأنا الآن جئت تلبية لدعوته إذ لم تمانعي. ولكن قبل أن أسمع ردك سأعزمك على العشاء، أدار محرك السيارة، وانطلق حتى توقفت السيارة بهم أمام أحد المطاعم. نزلت أديل وقرأت لافتة المطعم بلسان مرتبك، وكسا وجهها شحوب الموتى، إنه المطعم الذي ينتظرها إيثان فيه.

***

عاد يوسف إلى المدرسة قبل نهاية الشهر، بعد أن استطاعت منى إقناعه. استقبله الجميع بحفاوة بالغة، كانت عيونهم تظهر فرحتهم بعودته، والفرحة الأكبر كانت لتلاميذه فحين دلف الصف، تهافتت عليه التلاميذ، وألقت عليه كلمات الترحاب، وطرحت عليه أسئلة الغياب. حدثوه عن فترة غيابه، ومدي تأثيره عليهم، وحدثهم هو على فقدانهم ومدى ارتباطه بهم .. وتوالت الأيام، ويوسف يعانق السماء بتقدم مستوى تلاميذه. حتى جاء موعد مسابقة أقامتها الإدارة مع مدرسة الإسماعيلية، وكان الرهان علي تلاميذ يوسف. ولم يخيبوا آمال المدرسة وحققوا تفوقا كاسحا. وجاءت الامتحانات النهائية للعام الدراسي. استعاد يوسف فيها شعوره الطفولي بالخوف الشديد، وخشي على طلابه بأن يتسلل الخوف والقلق إلى نفوسهم، ففضل الابتعاد عنهم حتي إذا ما انتهوا من مادة، راح يطمئنهم، ويحثهم علي الاجتهاد أكثر في المواد المتبقية. وفي الأجازة أبلغ فريدة بالعودة إلى نجع حمادي، وفرحت زينب بالخبر، وألقت نصائحها إلى فريدة، وهي تستعيد ذكرياتها حينما كانت تتأهب إلى عودة الصياد حسن

من الغردقة. وقبل سفره سمع يوسف بتكريمه من قبل المدير الأول " نورالدين "، لما وصله من علاقة فريدة تجمعه بتلاميذه، وجاء تكريمه؛ ليكون قدوة للمدرسين. فأجل سفره، وانتظر أسبوع؛ ليحضر حفل المدرسة الذي يتم فيه تكريم الطلاب المتفوقين والعمال المخلصين والعاملين المتميزين. ولكن مرض زينب لم يسعفه على الانتظار، وغادر القاهرة قبل إقامة الحفل بيومين.

وفي نجع حمادي استقبلته فريدة على عتبة الدار بلهفة الأطفال ولم تعبأ بجلوس زينب في صحن الدار التي لم تعد تقوى على القيام والتنقل وراء كتاكيتها الصغار، وغاصت في حضن، ولم تدر بالوقت قصر أم طال .. لمحته زينب. صرخت فرحا بقدومه، وفتحت زراعيها؛ ليرتمي يوسف تحت قدميها وبأنامله، يجفف وجنتيها،

ويجيب لسانه عليها في ردود أسعفته لإخفاء الدمع والكتمان.

- أمي .. أمي .. سامحيني يا أماه.
- لم البعاد يا يوسف ؟.. لم يا ابني ؟.. ألم تعرف أن ذلك البعاد أقسى من الموت ؟!
- حفظك الله، وبارك في عمرك يا أماه. ونظر إلى فريدة وهو يقول
- أمي بخير عافية. ابتسمت زينب في ضعف وقالت مداعبة
- وما فائدة الأم إذا كانت الزوجة بخير ؟.

- لولا العمل في التدريس لما غبت كل هذا؟، ولكنك تعلمين كم تعبت لأجل ذلك!.
- رؤيتك أنستني عناء الابتعاد ومرارة الانتظار.

***

هل ما زلت تفكر بالماضي حين تخليت عنك ؟ هكذا كانت تحاور فريدة نفسها حين ترى يوسف، وفي جلسته تلفها أسئلتها بقيد من حرير، مما يجعلها تقترب منه أكثر، ربما تصل إليه أوضح. لا فائدة .. نظراته الحنينة تدمي روحها، فتتمالك زمام أمرها، وتغير وجهة كلامها، لكنها تحس بأنه يخترق كيانها .. تهزها كلماتها كلما حاولت تجاهله، فتجد نفسها مشدودة إليه أكثر من ذي قبل، تهمس بداخلها معاتبة ماذا فعلت به؟ .. ماذا علي فعله لتسكن الراحة جسدي وأحس بكلماته وأشعر بوده؟.. لماذا أحس كلماته جروحا ونزفا بداخلي؟ . فتشجعت وقالت له ما عاشت شهور غيابه تكتمه وحزن لشعورها وطول مدة عقاب قلبها، وقال لها بأنه لم يحزن من ردود أفعالها، وكان ما يشغله حينها أن ترضى بالعيش معه وكتمان سره، فلولا أنه يحبها لما اعترف لها. فرحت فريدة لكلامه

وقالت

- كنت أرتب أفكاري قبل أن أجري اتصالي بك ومع سماع صوتك تتبعثر أوتاري، واتساءل هل كان يوسف من اختياري أم جاءت به أقداري؟ فأنا لا أستطيع إلا اطمئنانك عن حالي، وما يتيح به بالي من

سؤال عن صحتك. عملك. طبيعة يومك .. كأنك ليس زوجي بل ابن عمي أو ابن خالي

- أنا أحببت فيكِ الطفلة إلى روحها هشة، أنتِ لحن موسيقي، أنتِ في السماء طيف، أنتِ في الأحلام يمامة .. قالت فريدة والسعادة تنضح علي وجهها
- اشتقت لكلامك. همس وهو يصوب نظره للفراغ كما لو كان يؤنب نفسه
- أعلم مدى تقصيري تجاهك. أوعدك بأنه لن ينقطع بعد اليوم. تسللت إليها سعادة غائبة، وانعكست على يوسف الذي أردف بحنان
- بعد ما أصبحت معلما كنت سعيدا... سعيدا ومتشوقا لرؤية الفرحة في عينيكِ، لما وصلت إليه تتضاعف فرحة النجاح برؤية الفرحة في عيون الأحباب فقالت بحنق طفولي
- أنت سعيد لأنك تتوقع سعادتي بذلك .. ولم تعلم أنني مثل بقية النساء، خشيت أن تأخذك امرأة غيري. انفرجت شفتيه وهو يقول ساخرا
- حقيقة أني أشفق عليكم .. نطلب منكم الكف عن النكد، وتجاهلنا أنكم أول المتضررين. ضجت بالضحك وقالت
- لو تعلم ما فكر به عقلي حين انقطعت عن الذهاب إلى الغردقة وحالفك الحظ السيء، وضاقت بك الدنيا ..

- ماذا حدثك عقلك ؟! رفعت إصبعها إلى شفتيها منذرا مثل طفلة في السابعة، وقالت برقة
- ليس الأمر سهلا كما تظن. انفجر يضحك علي طريقتها وقال محفزا
- سآخذك إلى الغردقة. ضربت فريدة كفيها في انبهار، وهي تهتف
- اتفقنا .. ثم أردفت بعد أن هذبت ملامحها
- بعد أن ضاقت الدنيا، واجتاح القحط حياتنا، وضعفت نفسي، وتأففت من حالنا، قلت في نفسي لو يعود يوسف إلى الغردقة كما كان دون أن يتعامل مع النساء لسار الوضع أفضل .. ثم أضافت بنبرة حكيمة،
- تقبلت أن تكون صاحب كأس وصاحب ملهى وبعيد عني وبعيد عن طريق الحق... تقبلت كل شيء، ولم أتقبل أن تشاركني إحداهن فيك .. حتي لو كان ذلك بعيدا عن عيني.

***

كان الفجر يشق ثوب الليل، ويتسلل بخيوط ضيائه من خلف النافذة، حين استيقظت فريدة من نومها فلم تجد يوسف بجانبها، وعرفت أنه ذهب لصلاة الفجر بعد أن صوبت نظرها نحو شماعة عباءته الزاهية فلم تجدها. نهضت لتأدية الصلاة، وعقبها جلست في الشرفة تنتظر مجيء يوسف .. وحين رأته قادما همت تعد له القهوة، وقدمتها مع طبق يحتوي على قطع من الكعك، وجلسا في الشرفة يتمتعا بالنظر إلى عقود الورد التي قامت بزرعهم في الشرفة، ورؤية الفلاحين وهم ذاهبون إلى الأراضي الزراعية.

قال يوسف وهو يتأمل المشهد

- إني أجد لذة حارة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل القرى حين يخرجون من أطوار الخمود والجمود، ويفنون في طبيعتهم هذه، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج.
- هكذا اعتاد أهل القرية. في القاهرة لن تجد ذلك المشهد أبدا ..
- في القاهرة لا تشعرين بالناس نيام، في النهار والليل تجيدين الشوارع بالسكان زاهية. ضحكت فريدة، وهي تلف كتفها بشالها، فنظر لها يوسف مبتسما، وهز رأسه في إشارة يستفسر فيها عن سبب الضحك. فقالت فريدة بعد أن سيطرت على ضحكتها بصعوبة
- لم أضحك منذ فترة هكذا، ولا أجد سبب مقنعا لضحكتي غير وجودك بجانبي. لا أعتقد أن الذي طرأ بخيالي يستحق هذا الضحك. فقال بلهفة طفولية، وما الذي جال بخيالك ؟ نظرت له، وهي تخفي ضحكتها بطرف شالها، وقالت ساخرة من نفسها
- ماذا تنتظر من خيال طفلة. ثم استطردت وبنبرة هادئة
- بكم تقدر ثمن المعرفة ؟ انفرجت شفتا يوسف عن ابتسامة ساخرة وقال
- وهل أدفع ثمنا في معرفة خيال طفلة !

اختلج وجهها بحركة احتجاج عارضة، ثم عاد إلى صفائه الذي يضج بالابتسامة، وقالت

- إذن لا تعاود سؤالك مرة ثانية. فقال يوسف كما لو كان الكلام غير موجه له
- إذن علام تضحكين ؟ ثم أضاف بلؤم
- هل في مظهري ما يوحي بالضحك ؟
- أبدا .. وأقسم لك لو أردت. وقطع حبل إقرارها صوت زينب. ذهبت إليها، وتركته تنتزعه هواجسه، وكان يقف في نهاية كل منها بتساؤله المحدد والواضح " ما سبب هذه الضحكة؟ " ولو أرسل أذنه خلف فريدة، وسمعها وهي تقول لزينب ..

" جاء نداؤك لينقذني من تساؤلات ابنك حول ضحكي. فقالت زينب التي تحاملت على نفسها، ونصبت ظهرها وهي تبتسم

لا تدخري دعواتك لي.. فأنا صاحبة هذه الأفكار، لابد أن تفعلي شيئا يجعل زوجك يفكر بك كثيرا، أتذكر حين كنت أسأل حسن تلك الأسئلة الغير مكتملة، ثم أتركه حائرا .. وبعد أن يعتصر ذهنه، ويعود ليستفهم مني عما سألت ادعي النسيان، واتركه في نار الحيرة يصطلي " لو سمع يوسف ذلك لخمدت هواجسه.

***

أصبح لقاؤها بإيثان حتما لا مفر منه، حاولت الامتناع، ولكنها رأت إصرارا من مالك على دخول المطعم. استسلمت للأمر، ودلفت خلفه ببطء وهي تتلفت حولها بحثا عن إيثان، فتلاقت عيونهم في لحظة قصيرة لبثها ابتسم لها وأشار إلى كرسي بجانبه، ولكنه فوجئ بها تعطيه ظهرها، وتجلس مع الذي دلف أمامها. شك في أمرها، وفهم أنها خائفة بأن يكون مصيرها على يده، وأتت بذلك الرجل لينقذها من شره ..

وقال في نفسه

– جئت لأوضح لك سلامي، ولكنك تصرين على رؤية انتقامي ..

وكانت أديل تجلس أمام مالك الذي بدأ يلتهم طعامه، ويحدثها عن " البواب " وهي تهز رأسها دون أن يميز عقلها ما سكن أذنها. ظل إيثان ينظر إليها، لا يرى إلا شعرها الأصفر فلمحها تسترق النظر إليه من انعكاس المرآة عليه. ولكن تنحنح مالك في جلسته حجب التقاء عيونهما.

وبعد الانتهاء من الطعام، أسرعت أديل في المغادرة، وخرجت تجتاز المسافة بأشد خطواتها اتساعا. اتبعها مالك الذي لم يع سبب انصرافها. أوصلها إلى حيث تقيم .. أودعته بعد أن أعطته عنوان البريد الإلكتروني، ليرسل لها أشياء تحدثها عن الإسلام .. انطلق بسيارته، وخلفه إيثان يتتبعه.

ارتمت على سريرها، تفكر في إيثان ورد فعله وما يشغل باله .. لماذا لم ألتق به ؟ هل بذلك سيتركني ؟ وكيف سيكون غدا لقاؤه؟.. ظلت مرتمية على وضعها تداهم الأفكار رأسها. دلف مالك سكنه، وكان إيثان يتتبعه بخفة، يحاول استنتاج أي شيء عنه. فكر في القضاء عليه لكتم سره. تتبعه بنظره

حتي استقل المصعد، ووجد فتاة تصعد معه، فأسرع الخطا أكثر وبدا مهرولا، ولم يلمح سوى جانب من وجهه، ثم أخفى الباب وجهه بالكامل، ووقف إيثان مكانه يراقب صعود المصعد الذي توقف عند الطابق الثاني عشر، وجاء البواب يسأله عن سبب وقوفه، فرمقه إيثان قبل أن يجيبه بأنه أخطأ في وجهته، وغادر العمارة وهو يرسم مصيدته. وفي عودته لسكنه جاءه اتصال من العمل يخبره بموعد سفره إلى لندن للحصول على دورة تدريبية، ولأن العمل يُلزم بها، تعكر مزاج إيثان، وحاول الإفلات منها، ولكن جاءت أوامر الشركة لتقصي أحلامه .. فجاء اليوم الثاني إلى العمل يحمل حقيبته، وأخذ أشياء من مكتبه قبل ذهابه إلى مطار باريس، ورأت أديل حقيبته، وعلمت من زميلتها بسفره، فهدأت وارتاح عقلها من التفكير بأمرها.

وجاء اتصال مالك بعد جهد خارق في عملها؛ ليحدثها عن الإسلام لعل يرق قلبها، وكانت مرغمة على لقائه والجلوس لسماعه، فهي تريد تلبية رغبة البواب، ولكن نظرتها إلى الإسلام على أنه إرهاب، جعلتها تلتقي بمالك، وهي عازمة على عدم الخوض في الحديث. وبدت لمالك أنها تخشى الإسلام، فإنها مهما حاولت إخفاء خوفها لن تستطيع إخفاء حركات جسدها. ورأى مالك أن التقاءها بفتيات مسلمات، سيجعل الأمر أيسر، فدعاها إلى محاضرة في المركز الإسلامي

وقال لها

- ستجدين هناك فتيات مسلمات. لم تستطع الرد عليه، فاكتفت بالصمت وهي تترقب إعلان انسحاب دعوته، ولكنه زاد قوله

- ستكتشفين نفسك من جديد.

وفي منزلها لم تستطع النوم، فكانت لكلماته تأثيرا قويا على إرادتها، تتساءل في نفسها.

لماذا أخشى شيئا قراره بيدي ؟ وإجابة سؤالها شجعتها على اللقاء. ولم تكن تعلم أنها ستلتقي بفتيات مسلمات كانوا على دين اليهودية ماضيا، وهنا اختلف الأمر معها، وجدت نفسها تريد معرفه سبب اعتناقهن للإسلام، وسمعت من إحداهن أنها كانت تعمل في المعبد اليهودي، فاقتربت منها، وقالت لها

- لماذا تخليتي عن اليهودية ؟ ولماذا اعتنقتِ الإسلام ؟ أليس ذلك دين الإرهاب !! كما تقولون لنا.

- لم يكن الأمر سهلا علي، امتلاكي للثقافة اليهودية التي رأيت فيها أمور غير منطقية، جعلتني أبحث عن الحق. في البداية كان التفكير بالأمر صعب للغاية، كنت أنظر إليها، أنها فكرة معقدة صعبة التنفيذ، وأن مشاعري ستعود كما كانت مع مرور الأيام، ولكن عقلي لم يهدأ أبدا. وفي يوم رأيت كتاب يتحدث عن الإسلام فاقتربت منه على مضض، وبعدما قرأت بعض السطور أغلقته، وابتعدت عنه، فكانت لدي مخاوف تجاهه، ولم أكن أريد التعلق بدين السيف والدم تسببا في نشره. كانت تنظر إليها أديل، وتُسر كلما تحدثت عن اليهودية

بشكل جميل، وقالت وهي تمني النفس بحديث يروق لها كل حديثك حتى الآن جميل.. أكملي.

- هو ليس جميل لأصله بل نحن من لصق به الجمال. رغم أنني قرأت سطور ضئيلة وجدت رغبة بداخلي تدفعني لاستكمال قراءته، نظرت إلي أديل التي أخفت الابتسامة عن وجهها، وحلت تقاطيع متهجمة
- لا أتذكر اسم الكتاب بالتحديد إنما أتذكر جيدا تلك السطور التي تفسر سورة الإخلاص. هذه الآيات البسيطة جعلتني أبحث عن شيء صعب لأجده، أبحث عن أي خطء، أعوق به الطريق قبل توغله. ومع تكرارها لم أجد أيسر منها إنها سورة تدعو إلى وحدانية الله. هزت أديل رأسها فواصلت الأخرى حديثها
- بعد أن أنهيت الكتاب حاولت قراءة القرآن وفهمه والبحث عن أخطاء . وبالرغم من أنني كنت إنسانة قوية نادرا ما أبكي، أتحمل المشقة وأدعم الآخرين. أحسست بأنني مُلك الله، وأنني أَمَة لله، هذا هو الإحساس القوي الذي أشعر به وأننا قد نكون أقوياء، ولكن لا قيمة لنا بدون الله. كنت أتخيل أنني في زمن، لم أر فيه المعجزات قبل أن أكتشف معجزة الله، وأشارت إلى المصحف، وهي تتأمله، وندت الدموع من عينيها، فرأت أديل عيونها تلتمع بالدموع، فتأثرت بموقفها، وقالت لها

- لا أنكر الراحة والسكينة والطمأنينة التي سكنت جسدي حين استمعت إلى القرآن، ولكن تظل في ذهني كلمة الإرهاب ملاحقة للإسلام.
- لا تأخذي صورة الإعلام فإنها مشوهة، إذا أردتِ الحق فقط أقرئي القرآن، فإنكِ سترين مدى الرحمة والحب والعدل في هذا الدين .. فالإسلام ليس دين نقل، الإسلام دين يعرف بالعقل.

دوت في رأسها كلماتها الأخيرة، وظلت ترددها في شقتها، وهي تقف أمام المصحف المترجم، تتذكر البواب ومالك وتلك السيدة التي تربعت في قلبها سريعا. ترددت من الاقتراب منه، ولكن جملة الإسلام دين عقل، جعلتها تتناوله وتتمعن في قراءته وفهم معانيه، وإذا تعثرت بشيء تحدثت مع مالك... ظلت هكذا حتى جاء اليوم الذي تشجعت فيه، وأعلنت إسلامها بعد محاضرة لمالك التقت فيها بالفتيات، وبعض الشباب المسلم الذي اعتادت على لقائهم

- أريد أن أعتنق الإسلام. هكذا قالت لمالك وهي تقف في منتصف القاعة. تحولت أعين الجميع نحوها، وارتسمت الفرحة على وجه مالك الذي طلب منها أن تردد الشهادة خلفه. بعدها وقفت أديل والدموع ترغرغ عينيها وقالت بصوت عالٍ لتسمع كل الحاضرين.
- كنت حزينة وأنا ألبي دعوة مالك في حضور محاضرة بها فتيات مسلمات. ولكن مع مرور الأيام وتكرار المحاضرة علمت أن مالك

كانت غايته الدعوة، وأنا وقعت في هذا الفخ الطيب والحمد لله. ونظرت إلى مالك في إشارة أنه المعني بكلامها القادم

- كما علمت الآن أن البواب كان يريدني أن أدخل الاسلام. كنت أعتقد أنني لا أملك حظا في هذه الدنيا، ولكن يكفيني الإسلام حظا ورزقا ودينا .. فاعتلى صوت مالك بالتكبير الله أكبر. الله أكبر.. والتفت حولها الفتيات، وحضنتها إحداهن وأديل تذرف الدموع فرحا .. وعمت الفرحة بالمكان. وفي العمل تفاجأت بعودة إيثان كما تفاجأ هو باعتناقها الإسلام.

***

" من منطلق حرص إدارة المدرسة علي الرقي بالمستوى المهني للمعلمين، والعاملين ومواكبة التطورات العالمية... عززت الإدارة وجهتها بتنظيم ورش عمل ودورات تدريبة تستهدف تنمية قدراتهم وتوظيف أحدث التقنيات بصورة فعلية. على جميع الموظفين إرسال الموافقة أو الرفض بشأن الجدول المحدد أدناه " قرأ يوسف هذه الرسالة، ثم هز كتفيه وحك جبينه، وهو يرتب أفكاره،

ورد على زينب التي سألت عن سبب تغير حاله.

- هذه رسالة من المدرسة، تبلغنا بموعد عملنا فقالت وهي تضع يدها على فمها في استغراب
- ستعمل في الأجازة !! ضحك يوسف وقال

- هذا تدريب للمدرسين استعدادا للعام الجديد سيتخذ مدة قصيرة وأعود إليكِ مرة ثانية.
- وما العجلة في ذلك؟ .. وأكملت بنبرة حزينة
- لم أشبع منك بعد. ربت يوسف على كتفها وقال بنبرة مطمئنة
- الله يقدم الخير.

وبعد ساعة من تلقي الرسالة، رقد على الكنبة في الصالة وهو يفكر

" هل سترضى زينب بالعيش في القاهرة ؟.. هل ستترك دارها بعد أن أفنت فيه عمرها؟ !! " زاد من صعوبة هذه المسألة أنه يخجل أن يبوح بتفكيره.

- صنعت لك كوبا من الشاي ستظل تذكرني به إذا غابت عني. هكذا أخرجته فريدة من شروده، وهي تحمل صنية الشاي . تناول كوب الشاي من يدها، وطلب منها الجلوس بجانبه .أحست بالقلق عليه وقالت بلهفة الأطفال.
- ماذا بك؟ .. بالله عليك يا يوسف ماذا بك ؟ ضحك وهو يستند برأسه إلى الجدار، أغمض عينيه، قال وهو يمسح بكفيه على فخذيه
- اليوم تلقيت رسالة من المدرسة، تطلب مني السفر إلى القاهرة بعد أسبوعين من الآن.
- أنت لم تكمل الشهر ! هز رأسه وهو يقول
- أعلم ذلك ولكن ليس هذا ما يشغل تفكيري، إنما الاستقرار في القاهرة ما أخذ حيزا كبيرا في عقلي. قالت بسذاجة

- وما الضير في ذلك ؟ أستطيع نطق مثل أحاديثك التي يلتوي فيها لسانك بلهجة أهل القاهرة في تأنق وتكلف لا أعرف سببا لهم. أفلتت منه ضحكة وقال ساخرا
- أثق بقدرتك .. انتصبت فريدة ضاحكة، وقالت وهي تدلف المطبخ
- أنت تريد إرضاء غروري يا لئيم . قهقه قليلا. ثم جاءت إلى الصالة وهي تحمل صحنين، وضعتهما على الطاولة، ولم تهتم لضحكته الشيطانية، وأتت بصنية اللحم الذي فاحت رائحته الطيبة، وهي تقول بتباهي
- هل تجد هذا في القاهرة !! ضحك يوسف وقال وهو يقعد على كرسي المائدة
- هذا من ضمن الأسباب التي دفعتني بالتفكير في الانتقال للقاهرة، ولكن أمي سترفض ذلك. فقالت فريدة وهي تضع آخر صحن على الطاولة
- لا يستطيع قلبي التخلي عن أمي .. ثم تابعت وهي تجلس على الكرسي
- يمكنني التخلي عنك .. إنما أمي .. لا .. لا أستطيع، فهي مثل أمي تماما. وقبل أن ينطق يوسف أردفت
- لا تحاول يا يوسف، لن أقبل ذلك .. أفهمت؟ فقال يوسف ضاحكا وهو يشير بيده لتتوقف. فهو يعلم مدى ارتباطها بزينب ومدي قوة

العلاقة بينهما إنه يخشى من الجلوس أمامهم فيصاب بألاعيبهما الشيطانية.

- ما هذا .. ماذا حدث لكِ ؟ .. أهدئي وتريثي .. أنا لم أقل ذلك. ثم تابع مازحا
- سآخذ زينب واتركك .. قهقهت وردت بثقة أمي لا تستطيع التخلي عني. ضحك يوسف وهو يقول بلؤم
- ستغير كلامها حين أبلغها بأنك اليوم كسرتي القاعدة، ولأول مرة تطعميني بدونها. ضحكت فريدة وهي تخبط كف بكف، وقالت
- الآن عرفت سبب ضحكتك الخبيثة أثناء جلب الطعام. ضحك يوسف، وقال وهو يغرس الملعقة في الأرز
- لم أفتر عليكِ. أمسكت بالملعقة كالسيف، وقالت
- هي من طلبت ذلك .. أريني كيف ستفلت مننا؟. رد مداعبا
- تتفقان على .. لن أقول غير " حسبي الله ونعم الوكيل " ضحكا.. ولم ينسه ضحكهما، عبارات الشكر التي اعتاد قولها بعد كل وجبة.

***

التقى إيثان بمالك وطلب الجلوس معه لبضع دقائق، لم يمانع الأخير، وجلس يستمع له.

فقال إيثان

- كنت في لندن منذ أيام، وهناك تعاملت مع شخص مسلم. جعلني أغير جذور أفكاري، وآخذ انطباع جديد عن الإسلام. أتذكر حين حدثني عن الدين .. فقلت له الله لم ينشئ دينا، هو خالق العالم وحسب .. ثم أطلقه .. فسألني أن سبق لي قرأت شيئا عن الإسلام فأجبته بالنفي، وقولت له. سمعت بعض الأشياء السيئة عنه .. فقال ما سمعته غير صحيح، فطلبت منه أن يخبرني عن الإسلام، ولكنه امتنع لأنه يرى نفسه غير مؤهل لذلك، وأخبرني أن أتواصل مع داعية إسلامي إذا أردت معرفة الإسلام .. التقط أنفاسه وأخرج آخر لفافة تبغ .. أشعلها ..

بتأن وتابع قوله

- منذُ ذلك الوقت وأنا أتردد على المواقع الإسلامية، أتابع المقاطع المرئية لأشخاص اعتنقوا الإسلام، فيحن قلبي للإسلام، وأشعر بالحماس نحوه.. ولكن سريعا ما يتلاشى هذا الشعور بعد رؤية الأفلام التي تبرز أن الإسلام يهدف إلى العنف والكراهية ! نفس المزيد من الدخان، ثم واصل كلامه

- هذا التناقض جعلني في حيرة.

- ولأن انطباعي عن الإسلام كما حدثتك من قبل جعلني أنحاز أكثر إلى الجانب السيء بأنه " دين الإرهاب "

بعدها كنت أظن أن الصراعات بداخلي ستنتهي، ولكنها ظلت تراودني ومع الوقت أصبت باليأس، فدعوت إلى السماء بأن أصل إلى الحق، وجاءت الرسالة سريعا.

فقال مالك الذي كان منصتا إليه حريصا على عدم قطع حديثه

- وما هي الرسالة ؟ قال إيثان وفي عينيه بوادر دموع
- مع عودتي إلى العمل، رأيت زميلة ترتدي الحجاب، فعلمت بأنها اعتنقت الإسلام.. فقدرت أنها رسالة السماء .. بعدها أخذت القرار، وقمت بالبحث عن داعية إسلامي، وها أنا الآن أقف أمامك. أود معرفة المزيد عن الإسلام... أريد الوصول إلى الحق.
- ألم تقابل شخصا طيبا التعامل غير مسلم من قبل ؟
- بالطبع قابلت الكثير، ولكن لم أر دين يُحَارب مثل الإسلام .. هذا جعلني أتساءل. لماذا كل هذا ؟ لماذا الجميع يتربص له ؟
- الجميع يعلم أين الحق؟، ولكن الآراء تركض خلف الأغراض. هل تستطيع المساهمة بوقتك في حضور درس مع مجموعة من المسلمين ليصل إليك الإسلام؟ وهناك يمكنك أن تسأل على ما تريد.
- سأضع وقت الدرس في خطة أسبوعي القادم. ابتسم إليه مالك في سعادة، وأعطاه كتاب صغير يتحدث عن الإسلام، وقال له

– تفضل هذا. قد تجد إجابات على أسئلتك. تقبل إيثان منه الهدية، واتفقا على موعد قادم.

***

الحادث

في ميدان الكونكورد الشهير الذي يبعد قليلا عن مسكن إيثان، تقف سيارة مالك بالقرب من المسلة المصرية الشامخة في أرض باريس، ينتظر قدوم إيثان الذي جاء يمد الخطا، وبيده ذاك الكتاب الصغير .. لقاه مالك بحفاوة. جلس إيثان في الكرسي الأمامي، ومالك علي مقعد القيادة.. تبادلا الحديث حتى وصل إلى المركز الديني، وهناك التقى إيثان بأديل التي ارتجفت أهدابها، وتبدلت أحوالها، ولم تستطع تميز قول الشيخ، فظلت تسترق النظر إليه حتى أنهى الشيخ درسه ولكنها هدأت بعد أن علمت سبب زيارته. بدت له مشجعة ومساندة إليه، عبرت عن سعادتها بتغيره وتفكيره بالإسلام، وفرحت حين أبلغها بأن حجابها يستحق الفضل والامتنان.

فقالت بصوت واضح أسمعت الحاضرين

– أرحب بمستر إليسون وأتمنى دخوله الإسلام، فمن الجميل أن تصبح سببا في دخول أحد إلى الإسلام، ولكن قبل أن أحكي لكم قصة

إليسون سأتحدث عن معاناة مررت بها، إذ لم يمانع أخي مالك. ابتسم مالك، وأشار إليها بمواصلة الكلام،

فقالت وهي تعيد النظر للحضور

- عشت صدمة حين رأيت شخص يطل من جديد في حياتي (تقصد إيثان، ولكنها فضلت عدم البوح بذلك) كنت أشعر بالخوف لمجرد وجوده، ولكن هذا الخوف والقلق تلاشى بعدما اعتنقت الإسلام، وبدأت في التعلم قليلا، وأصبح الأمر بالنسبة لي علامة الرضا والقبول من الله، قد تكون هناك صعوبات، لكن قدرتي التي منحني الله إياها، ومن حولي ستمكنني من التغلب عليها، حتى ولو بدت لنا مستحيلة .. أعلم بأن الله قد وعدني في سورة البقرة بأنني قادرة عل التغلب عليها، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ومهما حدث سأكون مطمئنة .. قناعتي بقدر الله جعلت التهديد اطمئنان. حتى في ارتداء الحجاب، قالت زميلة لي مسلمة من دولة الجزائر بأن كلمة الحجاب ليست في القرآن، فلماذا تتشددين وتريدين ارتداءه ؟ ولم تعلم صديقتي أن الحجاب فرض على كل مسلمة. فأخبرتها بأن الأمر ليس صعبا بالنسبة لي، وأنا أريد إرضاء الله، ولكنها حكت لي بأن المجتمع ينظر إلي الحجاب بشكل مختلف، والأعين تحدق كثيرا فيه، وحين ارتديته كنت أرى أن هذا يؤلمها؛ لأن زميلتها كان ينظر إليها بشكل سلبي .. وتابعت وهي تنظر إلى ركن النساء.

يمكن أن تكون الخطوة الأولى إلي الحجاب صعبة، وكأنك على قمة جبل كبير، والجميع ينظر إليكِ وينتقدك، ولكن سبحان الله إذا اتخذتِ هذه الخطوة ستجدين أن ذلك الجبل ليس عاليا.. وها أنا الآن أشعر بالفخر؛ لأن الله كافأني، وجعل ارتدائي للحجاب سببا في هداية مستر إليسون للإسلام إن شاء الله. أنا أثق بذلك.

اجتمع مالك بإيثان وأديل وعلم بعلاقتهما الوظيفية، وأخبر أديل أنها ستكون ضيفة مع أحد الشيوخ في برنامج إسلامي، سعدت أديل بذلك.

***

منذ الصباح الباكر ويوسف في الغردقة، يتمتع بشروق الشمس التي تغازل المارة علي الشط، نسائم حالمة ومبهجة، يتابع تراقص أمواج البحر، فينزلق في الذكريات، ويكتم الآهات، يقدم الأعذار عن قراره الذي بأثره انقطع جلوسه على الشط كعادته بالليل والنهار. يحدث البحر

" قد أبدوا لك شخصا آخر أيها البحر، فلم أعد أبوح بأحزاني.

أو لم أعد أتقن ذلك... ذلك الحزن الذي تقف أمامه حواسنا عاجزة التعبير هو أشد الأحزان حزنا.

أنت لم تر إلا آلامي، كنت الملاذ الوحيد لدفن أحلامي.

آتي إليك والخمر يفوح مني، وأنت تخلص إلي، وتحمل في أعماقك أسراري.

شهدت فراق غاليين وأحباب لي، وأنا لم أشاهد غير عبق الذكريات يأخذني؛ لأسهر في أعذب الليالي والمساءات وأتجرع الخمر والملذات. وإذا أردت أن أكون مثالي، سأعطيك حقك، وأقول أنك شهدت طفولتي وسعادتي مع الصياد ومساعده .. كنت طفلا لاهيا، ألعب مع الأسماك أضحك على النكات .. لم أع بأن الضحك سيتبدل بالآهات بعد أن آتيك بمفردي بدون أبي وأمي والصياد .

اليوم جئت إليك بمفردي قبل سفري للقاهرة، أعتذر عن غيابي، ولم آتي بفريدة لأنك تصطاد أحبابي.

***

- أنهيت كل ما سافرت من أجله بنجاح، يتبقى سفري للقاهرة، لن أطيل عليكم الغياب هو أسبوعين أو أقل. لم تطل زينب الحديث كثيرا ولكنها قالت
- متي سيكون سفرك الميمون ؟ فقال وهو ينظر إلى فريدة
- غدا إن شاء الله. فقالت والحزن بادٍ عليها
- بالسلامة إن شاء الله. وبعد دقائق كانت تزوده بالنصائح الجليلة وتقول
- أوصيك بتقوى الله. وراحت تناوره مناورة، كان يفهم مغزاها بأن النساء تعرقل طريق الفلاح، ويوسف يستمع إليها في طاعة ويطمئنها وقال لفريدة التي بدت صامتة

- أوصيك بأمي، ثم تابع الحديث في نفسه، وهو ينظر إلى زينب
- موت أبي حسن عجل بعجزها وهرمها، وكأن الزمن سحب منها عشر سنوات في آن واحد.

فقالت فريدة وهي تربت على كتفه

- لا تقلق .. عد أنت إلينا بسلام.

وفي اليوم التالي كان يجلس في محطة نجع حمادي على مقاعد الانتظار، يراقب وصول القطار ، يتجول بنظره بين حقائب المسافرين وعقله مع فريدة آباء مخافة العهد وسقوط اليمين.

***

قضى اليوم الأول في زيارة للمخبز، ولقي هناك صاحب المخبز والأصدقاء. كانت زيارة تحمل حبا وتقديرا للأيام.

ومن هناك جاءته منى، تناولا العشاء معا، أخبرته بأنه سيكرم من قبل السيد " نورالدين " ووالدها، وأنه تسبب في تأخير سفر الأسرة لفرنسا؛ بسبب إصرار والدها على إعداد حفل تكريم خاص به بعد أن علم بسفره لمرض والدته.

بات ليلته الأولى محتضن الفرح، وفي الصباح الباكر أعد قهوته رغم بدائية طريقته، وأخذ ينتقي بعض الكلمات، ويرددها أمام المرآة في ثبات.

وفي الميعاد كان يقتعد الكرسي الخلفي لقاعة الاحتفالات يردد المصطلحات. يتابع السكرتيرة وهي تتحدث في لباقة فوق منصة التكريم،

لم يكترث من ملل المقدمات، ولكن ما لفت انتباه إشادة الصاوي وونورالدين

وفي نهاية حديثها تخبط قلبه على نطق لسانها

– أقدم لكم الآن مستر " يوسف ".

استجمع قواه، وقبض على كفه، وانتصب في خفة، وتقدم بخطا ثابتة إلى منصة التكريم. صعد الدرج بأناقة، وسار حيث قدم له الدرع التكريمي من قبل نورالدين، تلقاه مبتسما، ثم اتجه حيث الميكروفون ليلقي كلمته.

جاء صوته واضحا قويا

السلام عليكم، أود تقديم الشكر للسادة المدراء، علي اهتمامهم بإحياء هذا الحفل العظيم ..

وتطرف الحديث عن الإشادة بحرصهم الدائم على التطوير، واختتم كلمته بإهداء الدرع لتلاميذه المميزين .. اعتلى التصفيق والصفير إرجاء القاعة .. وعاد إلى مقعده وسط تهنئة الزملاء.

مضي باقي اليوم في ترتيب مواعيد الدورة التدريبية بين الإدارة والمعلمين. أعجب بشخصية نورالدين في التعامل مع الآخرين. وكان محظوظا بالجلوس معه .. وفي جلسته تناقش في القضايا المعاصرة ولم تفتهم أزمة تدني التعليم، كما أشعل القدر اللهفة في قلوبهم بمشاهدة مقطع فيديو تظهر فيه الفتاة البارسية " أديل ".

***

تحت بناية المركز الإسلامي تجلس أديل منتظرة مجيء مالك وإيثان، تلقت رسالتين من يوسف ونورالدين في تهنئة بمناسبة دخولها الإسلام. سعدت بتواصلهما وردت على كلاهما بتحية طيبة. ثم أبلغت نورالدين بوجود يوسف على قيد الحياة، وقطع مجيء مالك وإيثان حبل الإرسال بينهما. فقدرت شرح التفاصيل يحتاج إلى تمهيد وخلوة بالذات. أغلقت هاتفها، وردت علي تهنئة مالك بنسبة المشاهدة العالية التي حققها لقاؤها في البرنامج الإسلامي، وقالت له

- لم أتوقع أن أحقق تلك النسبة العالية، ولكن هذا الأمر جعلني أشعر بالحماس تجاه معرفة ديني أكثر .. أريد أن أصبح سفيرة للإسلام في الغرب. توعد مالك بأنها ستحقق ما تسعى إليه، بينما لم يبد إيثان أي اهتمام.

لاحظت أديل تغير إيثان فسألته باهتمام

- ماذا بك ؟ .. نظر إليها، ثم نظر إلى ساعة يده، وقال في نفسه يتبقى عشر دقائق، ثم رد على أديل التي كررت سؤالها بإلحاح
- ماذا بك يا إيثان ؟
- مشكلة صغيرة مع أحد أصدقائي تحتاج إلى وقت وسيكون كل شيء على ما يرام، ثم قال لهما.
- هيا بنا. مضوا نحو المركز الإسلامي، وفي الطابق الثالث وقبل دخولهم إلى القاعة، طلب إيثان من أديل هاتفها لإجراء مكالمة، أخذ الهاتف، ومع دخول مالك وأديل القاعة انسحب إلى الخارج. وقف

بعيد عن البناية، ورفع بصره لإلقاء النظر إلى الطابق الثالث. ثم أعاد النظر إلى ساعة يده، وهمس يتبقى خمس دقائق. .

دوى انفجار هائل هز الشارع .. تحطم زجاج البناية، وتفككت النوافذ، وتساقطت الأحجار، وأصابت الكثير من الواقفين تحتها. تعالت صيحات الجرحى، وسال الدم في كل مكان. وحالة فزع أحاطت بالمكان، فر إيثان وسط حالة الهرج والمرج، وصعد سيارته ، تحدث في هاتفه.

وقال وهو يتلفت حوله بعنف

" تريدون التخلص مني !! ماذا فعلت لكم كي تخدعوني بوقت الانفجار ؟ .. هل كان ينبغي أن أكون ميتا الآن !! .

ومع سماع صوت سيارات البوليس والإسعاف ترجل من سيارته، وهو يطلق السباب والشتائم، و بسط قبضة يده، وقذف على الأرض بهاتفه وداس عليه بقدميه كما يداس علة حشرة بغية سحقها، وراح يراقب النيران وهي تلتهم الأحجار قبل الأشجار. أغرقت سيارات البوليس والإسعاف المكان، وتقدمت سيارات المطافئ في محاولة يائسة لاحتواء الانفجار المهول .. أشعل إيثان لفافة تبغ وفي عينه تتراقص النيران علي بوادر الدموع. وفي أذنه تصك صرخات الجرحى. إحاطة رجال الأمن المكان وانتشرت رجال الإسعاف تحمل المصابين إلى المستشفيات، وجاءت الصحافة تلتقط الصور، وتذيع الأخبار ويوسف يسند ظهره على سيارته ينفس الدخان فتح باب سيارته بإعياء، ارتمى على المقعد وقدميه تلامس الأرض

.. مد يده إلى مؤشر الراديو أمامه، وأداره باحثا عن محطة إذاعية. ثبت المؤشر على أحد المحطات وهو يردد

تستمر عمليات الإرهاب بباريس مهددة للاستقرار.. صرحت الشرطة الفرنسية منذ قليل، بأن الانفجار حدث نتيجة قنبلة بالطابق الثالث حيث يتواجد المركز الإسلامي، وكشفت مصادر سرية بأن الانفجار حدث من قبل أشخاص مسلمين كان قد نشب بينهم خلاف مما أدى إلي الانتقام. كما أعرب أحد رجال الشرطة عن حزنه الشديد للحادث، بينما أعلنت إحدى المراكز القومية بمقتل وإصابة العشرات من بينهم أشخاص أبرياء .. ترجل إيثان وهو ينظر إلى الكاميرات وهي تلتقط صور الجرحى يصرخون يستنجدون برجال الإسعاف. تساءل في نفسه بدهشة عن السبب الذي جعل وكالات الأنباء تلفق جريمته إلى جماعة الإسلام .. تابع بنظره فرأى آخرون يزحفون إلى جانب الطريق وينزفون في صمت ودهشة مما حدث، وهم يتلفتون باحثين عن أحبائهم الذين كانوا معهم. أغلق سيارته بإحكام بعد أن أخذ كل أشيائه. مضى وسط الجرحى، وهو يتلفت حوله، فالبقاء الآن في المنطقة هو الموت بعينه .. العصابة لن تتركه على قيد الحياة.. وبعد أن وصل إلى نهاية الشارع انفجرت سيارته، واشتعلت بها النيران التفت إيثان خلفه، فلمح النيران توقف عن السير وهو يتنفس الصعداء... شعر بأحد الأشخاص يلاحقه بنظره، فغاص وسط الزحام، ثم مضى قدما، وأطل من خلال فرجة بين الجموع المحتشدة فشاهده. ظل يراقب تحركاته وبسرعة البرق غير مساره، ودلف إحدى الطرقات الجانبية. مضى مسرعا والشخص مضى في أثره .. يجري والآخر يجري

وراءه، حتى دلف منزل متنقل " كرفان " وجد شخص راقد في الفراش وبجانبه رداء مهندسي الصرف الصحي، أطل من النافذة، فلمح أحد العمال يقدم نحوه، فأسرع في الاختباء، وبعد أن غادر العامل، خرج من مخبئه وارتدى قميص أصفر، وساعدته القبعة البيضاء التي تميز المهندسين عن غيرهم في اتقان الخفاء. خرج وهو يتلفت حوله وفوجئ بوجود ذاك الرجل الذي يطارده، فسار نحو موقع الأدوات ورأى بالوعة تبتعد عنه أمتار، فأخذ بطارية من صندوق الأدوات وزودها بالشحنات، فالتفت إليه الرجل، وارتسمت على وجهه ابتسامة رضا وخبث، وقبل أن يصل إليه وبسرعة بالغة ألقى إيثان بنفسه في بالوعة منزوعة الغطاء، اقترب الرجل من البالوعة، وألقي نظره فوجدها تبتعد أمتار في عمق الأرض، فأطلق ضحكة انتصار، وألقي فيها الحبل الذي نزل به إيثان، واختبأ خلف برميل بعد أن لمح أحد العمال يجهر بصوته بأن العمل سيتوقف أسبوعين بسبب حدوث انفجار في المنطقة. خرج العمال من جحور عملهم يجمعون الأدوات، وآخرون يغلقون الفتحات، فانسحب الرجل من موقع العمل بعد أن أحكم العامل إغلاق الفتحة بالغطاء.

***

يقف نورالدين أمام البحر ... يتذكر لحظة رؤيته لرسالة أديل، يتذكر حروفها جيدا

" لقد أخبرتني عن حادث أسرتك، وأنا الآن أخبرك بوجود يوسف على قيد الحياة .. لقد تعاملت معه في الغردقة "

يذرف الدموع وهو يصرخ بصوته القوي الذي يرتطم بالأمواج، فيرتد إلى مسمعه، يخبره بأنها كاذبة. يذكره بأنه لم يترك شبر في الغردقة إلا وسأل فيه عن يوسف. وإذا كانت صادقة في كلماتها

لماذا قطعت اتصالها ؟

ثمة عارض قاهري منعها من مواصلة كتابتها ؟ أم أنها مداعبة سخيفة لا يتحمل بشر مزاحها ؟ كلها تساؤلات دارت في ذهن نورالدين وهو يمسك الحجارة بأطراف أصابعه، ويلقي بها في البحر بغلٍ، كما لو كان يلقي سخط الناس حين رأوه وهو يجوب الشوارع، يسأل عن ابنه بعد عشرين عاما من فقده... يلقي بادعاءات عيونهم بأنه شخص مجنون. ونظرات الشفقة التي تجعل الدمع يتراقص على الجفون.

لماذا يا أديل بعد مرور كل هذه السنين تجعلين الحزن يتأرجح بي كالطفل البريء ؟

في الماضي كنت أرى طول الوقت وتراخي الأيام، كنت أعيش مع وحدتي بين جدران منزلي. أتألم في صمت علي فقدان أسرتي.. كان هاني يأتيني ومن بين الحزن ينتقيني.

قال صارخا وهو يركل قزازة المياه الغازية بقدمه

" من الآن يا أديل يداويني .. من سيدفع ثمن أيام العذاب؟"

ثم هدأ وسأل نفسه كيف لازال يوسف على قيد الحياة ؟ ألم يخبرني الطبيب بسقوط اسمه من صفحة الأحياء ؟ وكيف رأته أديل ؟ .. هل رأته عاملا في إحدى القرى السياحية أم عامل نظافة في البلدية ؟ ماذا فعلت بعقلي يا أديل؟ وكيف سأعيش المتبقي لي من السنين؟.

سأل في المستشفى فقال له أحد الأطباء بنبرة يشوبها الاستهزاء

منذ عشرين عاما .. تعني أن طبيبك تقاعد أو فارق الحياة.

غادر المستشفى وهو يردد نصائح الطبيب

" أنا متعاطف جدا معك، ولكن لماذا أخبرتك صديقتك في هذا الوقت ولم تخبرك حين رأته ؟ ألم يميز عقلك فارق الوقت ؟ والسؤال الأهم

لماذا

لماذا انقطعت عن الاتصال ؟

***

احتل حادث الانفجار صدر صفحات الصحافة، وأشعل القنوات الفضائية، كما أنه أصبح محور حديث الشارع. وعلى مواقع التواصل الاجتماعي أثار ردود أفعال متضاربة، البعض دافع عن الإسلام وبراءته من تنفيذ الانفجار والبعض الآخر اعتبره مصدر الإرهاب. أما العالم العربي

استقبل الحادث بنشر صور الضحايا في مواقع التواصل الاجتماعية في محاولة يائسة اعتاد عليها، تعتبر أكبر قدراته.

حزنت فرنسا على الضحايا كما أبدت أوروبا حزنها، وكان النصيب الأكبر من الحزن المزيف لدى مركز الاتصالات، فقد أعلن عن فقدان اثنين من موظفيه، هما " إيثان و أديل " .. وأقام لهم شعائر حداد. سمع يوسف بخبر الانفجار، ولكنه لم يتوقع بأن الضحايا تقع من بينهم أديل. بعث رسالة اطمئنان على منى وأسرتها فهي الآن في فرنسا، أخبرته منى بأنها لم تزر باريس حتى الآن، فمنذ مجيئهم أقاموا في مدينة نيس، كما أخبرته بحزنها لفقر المحايدة في الإعلام... وقالت في آخر رسالة أنها ستبدأ رحلتها هنا مع الإعلام. أرسل يوسف رسالة اطمئنان إلي أديل، وبعد ساعات من الانتظار المرير تشجع وقرأ عن الضحايا، فعلم أنها من الأبرياء الذين اجتاحهم الموت بسبب الانفجار فدعى إلى الله بأن يتقبلها من الشهداء.

ساءت حالته النفسية، وظهر الحزن عليه، وظهر ذلك في رسائله لمنى التي أخبرته باهتمامها بالتحقيق في الحادث، فكان مساندا للفكرة وأخبرها بأن مواقع التواصل الاجتماعي أصبح لها تأثير بالغ، ويمكنها بدء المشوار من ذلك.

مرت الأيام وهدأت الأجواء، كما لو كان البشر يحملون ذاكرة السمك إذا كانت الضحية من القوم الأضعف.

وإذا كانت الأيام تمر سريعا فوق أرض باريس، فإن في باطنها من يزيح الوقت لكي ينجو أو يلقى الموت.

فبعد أن ألقى بنفسه في البالوعة باستخدام الحبل ورقد في غرفة الصيانة التي تبتعد عن المياه، ظل يراقب بصيص الضوء الذي ينبعث من فتحة البالوعة وعينه على الحبل الذي ينوي تسلقه، رأى ذلك الشخص الذي يطارده ينظر في أعماق البالوعة فاندس قبل أن يراه، وبعد دقائق سقط الحبل بجانبه، ولكنه لم يتحرك من موضعه، وعقبها سمع صوت إغلاق الغطاء، فارتسمت على وجهه ابتسامة وهو ينظر إلى البطارية وقال في نفسه بأن يومه مليء بالصعوبات ولكن ما أقرب الغد، سيستكمل العمل، ويفتح الغطاء، وحينها سيعرف مصيره معنى النجاة.

نهض من مرقده وأطلق ضوء بطاريته متفحصا شبكة الصرف التي تتكون من ثلاث طوابق، وبين كل طابق وآخر حلقة وصل من البلاط، يصعب تسلقها فهي سهلة الانزلاق. في الطابق الأعلى غرفة الصيانة حيث يقف إيثان، وفي المتوسط مواسير المياه وفي القاع شبكة الصرف.

بات ليلته الأولى، ولم يذق طعم النوم، من نقيق الضفادع وارتطام الفئران بجسده وانشغال عقله بالتساؤلات

هل هناك اتفاق بين المافيا والحكومة الفرنسية؟، فالأخبار أذيعت قبل نشب النار !

هل سيتركونني أم سأدفع ثمن الاختيار ؟ إذا كان الإسلام دين الإرهاب. فأين هو منا ؟ وبعد أن تملكه اليأس، وضع رأسه بين راحتيه وأخذ يئن في

ألم، لم يتأثر لوجوده بقلب ذلك الظلام الدامس، بقدر ما تأثر من كل هذه الذكريات التي رجمت عقله دون هوادة، فكيف هو المجرم والأخبار تعلن الإسلام ؟!! يتمنى الموت؛ لينقذه من ذلك الضغط العقلي المستمر الذي يسببه تدفق تلك الذكريات، ومع مرور الوقت، وشعوره بالاختناق كما بلغ الظمأ ذروته وشعوره بالاقتراب من حافة الهلاك، دون في هاتفه حقيقة الحادث وشهادة تبرئ الإسلام. وحين غلبه الظمأ التفت بضوء بطاريته، ليبحث عن دلو كي يغرف به ماء، فلم يجد سوى حبل، أفرغ ما في جيبه من هواتف وأوراق، وجاء بالحبل وربطه في إحدى المواسير بإحكام ولف طرفه الأخير على خصره، وأمسك ببطاريته ثم بدأ في النزول إلى القاع ... نزل رويدا رويدا ووقف على شبكة حديدية، وسلط ضوء بطاريته على الماء، فظهرت له البقع السوداء والخضراء والقاذورات التي تحمل رائحة كريهة وبويضات للحشرات. سمع صوت خرير مياه. أدار بطاريته، وكشف ضوؤها أنابيب الصرف المعلقة، ووجد فتحة من أحدهم تنهمر المياه، سار على الشبكة الحديدية بحرص متفاديا الفتحات، بعد أن فك الحبل. ضم كفيه تحت الماء المنهمر حتى إذا امتلأتا، شرب الماء والدموع تنهمر، وهو يربت صدره مرتويا والحزن ينهش في ضلوعه. تهالك على قطعة حديدية بإعياء، ولم يقو على القيام. صرخ بصوته الجهوري الذي ضاع في الإنفاق، لا يسمعه سواه. أغفل من الإرهاق، فانسابت البطارية من يده، وانزلقت في المياه، ومع استيقاظه لم ير إلا ضباب، فزحف على قدميه ويديه متحسسا طريقه على الشبكة الحديدية.

ثم هوى في إحدى الفتحات، واحتضنت جسده المياه، ولم يستطع طلب النجاة، فاستسلم إلى الغرق .. في مشهد أقرب إلى الانتحار.

***

البراءة

ذهبت منى إلى باريس برفقة أخيها بعد أن رحلت بقية عائلتها إلى مارسيليا.

- جئت إلى هنا لمعرفة ردود أفعال البارسيين عن حادث انفجار المركز الإسلامي، ما رأيك في النزول إلى الشارع وعمل حوار مع الناس ؟ نظر لها أخوها بخبث، وقال وهو يضحك
- لذلك أقنعتني بالمجيء معك ؟
- لا تقل ذلك... أنا لست استغلالية بل الفكرة هاجمتني حين جئنا إلى هنا. رمقها أخوها بشك ثم قال
- أخبريني ما الذي تنوين على فعله ؟ تأملت نظراته، ثم قالت وهي تلملم حقيبتها
- سأوضح لك كل شيء لاحقا .. هيا بنا.

اصطحبته إلى إحدى المتاجر الإلكترونية، وابتاعت كاميرا، وقالت له هذه أول أداة للعمل، ثم أكملت شراء بقية الأدوات، وعرف أخوها أنهم سينزلون الشوارع، ويعرفون آراء الناس. ولكن منى ظلت تفكر في طريقة لإيصال تلك الآراء إلى العالم ؟ وبعد مناقشات مع أخيها وافقت على اقتراحه وإنشاء " قناة على YouTube " وبعد أن اكتملت كافة التجهيزات، وعمل بعض التدريبات مثل كتابة الأسئلة والاستفسارات وتعليم أخيها حمل الكاميرا، ومحاولاتها في الوصول إلى أعلى درجات الإلقاء، وترابط لغة الإشارة بينهم .. نزلوا إلى الشارع.

جلسا في ركن مقهى واجهته من الزجاج، وراحا يحتسيان القهوة وهما يتطلعان إلى المارة في مراقبة لسلوكهم. تهادى في المقهى صوت موسيقى، فحرك الحماس بهما. غادرا المقهى، متطلعين إلى شارع المركز الإسلامي، وحين دخلاه، وقع نظرهما على عمال يقومون بإعادة البناء. جلسا على مقعد خشبي، راحت منى تراقب المارة بينما أخوها يتابع حركة العمال. حدثت أخاها على بدء تسجيل آراء الناس. وقفت أمام عدسة الكاميرا بحجابها تلقي مقدمة كانت قد استغرقت الكثير من الوقت في إعادة صياغتها. ثم أشارت إلى أحد المارة. كانت فتاة عشرينية. سألتها عن حادث الانفجار.

فأجابت الفتاة بحماس

– الحكومة أدانت الإسلام .. وأنا أحترم ذلك. زاغت نظرات منى واحتقن وجهها، لكنها لم تكترث، وألقت سؤالها الثاني

- هل أنتِ من الذين يحتاجون إلى دليل أم لديكِ ثقة في الحكومة وتكتفين باستماع التقارير ؟ أجابت الفتاة
- لا بد من تحري الأخبار. هزت مني رأسها، ولم تهتم بتناقض قولها، وألقت سؤالها الأخير.
- إذا كان المسلمون من قاموا بذلك. هل الإسلام من دفعهم، أم هؤلاء أشخاص متطرفون ؟
- آسفه ولكن هذا العذر لا ينفع .. حينما نسمع عن عملية إرهاب ونرى في الشاشات أن أصحاب اللحية وحاملي راية الإسلام هم من قاموا بذلك، يقولون أن هذه فقط الجهة المتطرفة في الإسلام. ونتجاهل آيات في القرآن تحرض علي القتل .. أليس هذا من دوافع الإسلام !!

وجمت منى ولم تستطع التعبير عن مشاعرها بغير ابتسامة شاكرة ضيفتها، التي بادلتها الابتسامة وهي تقول أعذريني، فأنا أبديت رأيي دون الالتفات إلى حجابك .. ولكن تلك الكلمات التي تخرج دون تكلف، تضيء حروفها كالشمعة في عتمة الليل.

ابتسمت منى بامتنان يشوبه نفاذ صبر، وهي تشير إلى رجل خمسيني، فأشار لها أنه لا يحب الحديث مع المسلمين، وقال وهو يغادر بعلو صوته كما لو كان حريصا على إيصال صوته للميكرفون

- ما أخاف منه، وأقول لكم صراحة أن تصبح فرنسا دولة مسلمة. ثم أكمل بصوت خافت وهو يتلفظ أنفاسه

– إن بدأنا نفقد كل تقاليدنا وقيمنا، وهذا ما أخشاه.

نظرت منى إلي أخيها، وهي تكتم ضحكتها بيدها، وعقبت

– ما يحزنني أن يتحدث أهل الباطل بلسان لبق وحجج وهمية، قادرين على أن يجعلوك تفكر في مرجعك، وتعيد حساباتك مرة أخرى.

ضحك أخوها وهو يقول

– ليس من البعيد أن تجدي مظاهرات ضد الإسلام تجوب شوارع باريس، وتطالب بإنقاذ فرنسا مما يسمونه الخطر الحقيقي والفعلي على قيم البلاد. ضحكت منى، ثم قالت مكملة لحديثه

– سيجسدون معنى التناقض، سيحملون لافتات تؤكد أن المشاركين في المظاهرة ليسوا عنصرين، ومع ذلك سيردد بعضهم شعارات تستهجن وجود المسلمين في فرنسا.

قطع حديثهم مجيء رجل عجوز تفوح منه روائح كريهة تبعث على الغثيان، فطنت منى إلي سبب مجيئه، ودست يدها في جيبها لتنقده، ولكنها تراجعت حينما رأت في يده كيس به هواتف.

وقال لها بحكمة وتدبر

– أنت مسلمة. أومأت منى بالتأكيد، فأردف

– جئتِ لإنصاف دينك أم جئتِ لإنصاف الحق؟.

نظرت منى إلى أخيها الذي وجه عدسته إلى الأرض

وقالت بتردد

- إنصاف الدين والحق معـًا. ضحك العجوز وقال
- إذن لا تحزني من أحد، إذا كذب أو نافق لأجل إنصاف عقيدته. ثم قدم لها الكيس وأردف
- أنا رأيت الحادث. ثم أشار إلى أخيها الذي وجه العدسة عليه، وهو يقول
- لا أريد أن تسجلني الكاميرا. ثم عاد إلى حديثه وقال
- كانت لحظات من الحزن الخالص لا أستطيع وصفها كما لا أستطيع نسيانها. في هذا الكيس شيء قد يجعلك تنصفين الحق. أخذت الكيس وهي تتفحصه، وقالت بعد أن رأت الهواتف
- ما هذا !!
- هذا ما تبحثين عنه. قال ذلك متأثرا، حتى أنه قد أطلق تنهيدة مع آخر كلمة.

مدت يدها بالنقود ولكنه فاجأها عندما أجهش بالبكاء، وهو يمسك النقود التي أعطتها له، بعد أن هدأ قليلا، قال لها بصوت متهدج لا أحتاج إلى نقود. فأنا مهندس متقاعد، وهذا الثياب لأحد العمال الذين أعرفهم، جاءني ليبيع لي تلك الهواتف، وحين علمت أنه وجدها في إحدى البالوعات، اشتريتهم منه، وأنا أنوي إعادتهم إلى أصحابهم، كنت أظن أنها ملك أصدقائي المهندسين. وبعد أن كشفت السر الذي بهم. تمنيت لو أن أكون صاحب منصب إعلامي كي أنشر كلمة الحق. ولكن القدر أتى بكِ

كي تحملي عبء الحق عني. كان الحزن يسكن حروفه وتعبير وجهه، أحبت منى أن تفعل شيئا لكي تواسيه، وتخفف إحساسه بالحزن، فقال لها

أنتِ فتاة طيبة أتمنى أن تكوني علي قدر المسؤولية والأمانة. ولكن عديني أن تنصري الحق. شعرت بأن من الواجب أن تفعل شيئا آخر لتبدي تضامنها معه. فأخرجت بعض النقود

وقالت وهي تمد يدها له

- هذا ثمن الهواتف، أرجوك تقبلها. هز رأسه بامتنان وقال
- لا يا عزيزتي ..هذا سيؤذيني .. سيجعلني أشعر بالخزي لأن أخذت مقابلا لفعل الخير. نظرت مني إلى أخيها والخجل يعتريها .. لم يكن لديها ما تقدمه سوى كلماتها الطيبة التي سكنت روحه النقية. غادر العجوز وهو يقول ضاحكا
- سأغادر من أجل تبديل هذه الثياب .. فأنا ارتديتها خوفا من أن ترصدني كاميرات المراقبة في الشوارع، وحرصا علي إيصال الحق. أودعته منى بامتنان، وراحت ترد على هجوم أخيها الذي قال لها
- قد يكون مأجور لتجسيد تمثيلية تضلل طريقنا. ابتسمت منى، وقالت ساخرة من نفسها
- أنا لست " منى الشاذلي " كي يتربص أحد، ويضلل طريقي. بالتأكيد تعرفني أنت وبقية عائلتي. ضحك أخوها وقال مداعبا
- لا تهوني من قدرك. ثم أكمل ساخرا

- ستتخرجين العام القادم من قسم الصحافة، وتعملين في جريدة تهتم بالحوادث. ضحكت منى وقالت
- أحلم أن أكون مجرمة قلم في صفحة الحوادث " .. ثم ربتت على كتف أخيها، وهي تقول
- ليس وقت تحقيق أحلامنا الآن .. ضحكا سويا ثم عادت إلى حديثها، وقالت
- أنا أثق في هذا الرجل، ثم أننا سنرى ما في الهواتف ونحكم. كاد يقولها في سخرية " ومن أين جاءتك هذه الثقة؟ " ولكنه كبح لسانه، وقال
- سنرى.

***

يوسف ونورالدين على تواصل بفتاة تسمي أديل مجموعة إرهابية ألمانية هي من ساعدت إيثان على نشب العنف وتفجير المكان.. هذا ما استنتجته منى بعد إطلاعها على الهواتف. ولكن ظلت أطراف القصة منفكة تحتاج إلى من يربطها.

ما علاقة أديل بيوسف ؟

أين التقيا ؟

هل هم أصدقاء ؟

رسالة واحدة بينهما تحمل تهنئة اعتناقها للإسلام لم تجدي في استنتاج شيء. تذكرت عمل يوسف في الغردقة، وقالت في نفسها

" من الوارد التقاؤهم في الغردقة " ولكنها احتارت حين نظرت في الرسائل الأخيرة، ووجدت نورالدين

فأين التقيا ؟

أتكون الغردقة هي من شهدت لقاءهما !! لا .. لم تقتنع بما خطر بعقلها، وراحت للرسائل الصادرة، وقرأت الرسالة التي كتبت فيها أديل وجود شخص اسمه يوسف على قيد الحياة تساءلت من يوسف ؟ هل هذا المستر يوسف حسن أم شخص أخر؟ لم تكترث، وانتقلت لقراءة الرسائل الواردة من نورالدين جميعها يتحدث عن يوسف... عرفت أن نورالدين فقد ابن منذ عشرين عاما اسمه يوسف.

وبعد مجيء أسرتها إلى باريس، أخبرت والدها بما حدث لهما في الشارع، وحكت له عن ذلك المهندس العجوز، كما أخبرته بالأسرار التي تحملها تلك الهواتف. تعجب والدها من وجود يوسف ونورالدين في هذا السر العظيم،

وقال لها بعد تفكير واتصالات بأصدقاء فرنسيين

- سنرسل نسخة لشخص من الرجال المخلصين وهو يتولى بدوره تقديم البلاغات في المجرمين. ولم يصارحها بتنفيذ خطة تجعلها تنفرد بنشر الأخبار .. فظلت منى حزينة خائفة على ضياع مجهودها .. طمأنتها والدتها، وقالت لوالدها بعد تناول الغداء
- ماذا ستفعل مع منى ؟ أتتركها دون أن تنفرد بالأخبار!

- تسأليني أنا الذي أحلم بأن ينير وجهها الشاشات، ويلمع قلمها في الصفحات ! ثم أردف وهو يشير إليها بأن تناوله بعض المناديل الورقية
- اطمئني لن أضيع مجهودها .. ولكن لن ألقي بها في دائرة الهلاك.
- ماذا ستفعل؟ جفف يديه وفمه، ثم رمى المناديل في سلة المهملات، وقال
- ستقوم بتسجيل الفيديوهات في باريس، والنشر سيتم في مصر بلد الأمن والأمان، ولكي تحقق الانفراد سيتم النشر قبل تقديم البلاغ.

كانت تستمع منى إلى حديثهم، وكلما تحدث والدها، رقصت طربا لنجاح ما دبرته، وبعد أن توقف والدها عن الكلام، هرولت إليه مسرعة وعانقته بحب وامتنان. وهي تغمز لأمها وراحت تهمس في أذنها بأنها ستنفذ وعدها بجلب سلسلة ذهبية كانت أعجبت من قبل بها.

***

بعد أن عادت منى هي وأسرتها إلى القاهرة. تم نشر الفيديوهات، وتوالت عليها الفضائيات، حازت على الكثير من الإعجاب، كما وجه لها الكثير من التساؤلات .. فظهرت في أحد برامج الفضائيات، وأجابت على جميع التساؤلات بالمنطق والدليل.

أما في باريس. كُشفت الحقيقة، وأظهرت الحكومة تواطئ بعض المسؤولين مع المجرمين، وتوعدت بتنفيذ القانون وإعادة حق كل بريء مظلوم.

اتصل يوسف بمنى بعد أن شاهد لقاءها، وعبر عن إعجابه بدورها، كما حكى لها عن تفاخره بها وسط أهل بلدته في قنا.. كما أبلغته منى بأنها تريد الحديث معه، ولأنها ترى أن الحديث لا ينفع عبر الهاتف، أخبرته بأنها ستنتظر مجيئه قبل بداية العام الدراسي الجديد. حاول أن يستدرجها في الحديث؛ ليتبين سبب دعوتها، ولكنها رفضت أن تبلغه.

ووسط سعادة الجميع بنشر الحقيقة، كان يجلس نورالدين في بيته بالإسماعيلية حزينا. فبعد عودته من الغردقة، حدثته نفسه أن يعود إلى منزله القديم.

يتأمل أثاث منزله البسيط الذي كان من ذوق زوجه الرفيع .. ينظر إلى الجدران. يحدق في الصور التي أطلت عليه من الماضي. يحدثها بأنين. أيقظه رنين هاتفه من دوامة الأحزان. نظر إلى شاشة هاتفه فوجد صديقه هاني المتصل، فبرغم انغماسه الشديد في عمله وتأسيس سلسلة من المدارس، وابتعاده عن أصدقاء مقهى الاسماعلية القديم، يظل هاني الصديق العزيز، يهاتفه في كل حين، يطمئن على حاله، ويزوره إذا نزل القاهرة حيث يقيم. ولكن حزنه لم يمهله الحديث. أغلق الهاتف وجلس على كرسيه يسبح في حلكة شديدة إلا من بصيص انبعث من إضاءة الشارع عبر زجاج النافذة القاتم. يفكر في رسالة أديل، يبحث عن إجابات لهواجس رجل فقد ابنه منذ عشرين عاما والآن علم أنه على قيد الحياة.

دق جرس الباب، نظر نحوه وهو يحاول توقع الزائر. نهض تاركا كرسيه القديم يتأرجح مصدرا أزيزا أزعجه. فتح الباب بعد أن عدل ثيابه، وخبأ

حزنه خلف ابتسامة مصنوعة، وجد هاني فاتح ذراعيه. تلقاه بين ذراعيه وقبله، لم تتماسك دموعه، وانثالت من عينيه تتناثر فوق تجاعيد وجهه. أجلسه في حجرة الاستقبال، وانسحب دون أن يكشف وجهه، وعاد بعد أن مسح دموعه. سأله هاني عن عدم الرد على اتصاله فتهرب منه بحجج غير مقنعة، لكن هاني يعرف ما في قلبه من حزن يراوده بعد كل زيارة للغردقة.

- كنت أجلس على المقهى فأبلغني الصبي برؤيتك. هكذا كسر هاني حاجز الصمت والركود
- بعدما حدثتك في الغردقة، جئت إلى هنا .. لم أتحمل وحدة القاهرة. ندت عن هاني قهقة خفيفة ثم قال
- وهنا ليست وحدة !
- لا يا صديقي ليست وحدة، فهنا عبق الذكريات ومنبع الحكايات. هنا أتحسس أثاث منزلي، وأسترجع منه رائحة الأحبة.

واساه هاني ببعض الكلمات ودعوات مباركة، اجتر معها ذكريات محببة عن يوسف. فقال نورالدين كما لو تذكر شيئا للتو

- تتذكر الفتاة البارسية " أديل " ؟ هز هاني رأسه بالإيجاب فأردف نورالدين
- لم أخبرك برسائلها. نظر إليه هاني وهو يقول

أنت مازالت تحدثها !

- هذه قصة كبيرة، ولكن سأخبرك بالجزء المؤلم منها، فأنت خير صديق...أخبرتني بوجود يوسف على قيد الحياة.
- ماذا ؟ خرجت منه كما لو كان الفقيد ابنه.
- كما سمعت .. ولأن الحظ السيء حليفي، رحلت عن عالمنا في حادث انفجار مرير.
- لا .. لا أصدق هذه الخرافات
- بل صدق. ثم تابع
- لقد تبدل حالي بعدما قرأت تلك السطور، لم أعد ذاك الرجل الهادئ الصبور، بل أصبحت أكثر حزنا وكآبة. أتذكر أول ليلة في الغردقة بعدما تجولت الشوارع بحثا عن ابني المفقود. عدت إلى الفندق أجر قدمي .. كنت خائفا من النوم وحدي في الليل، خرجت إلى حديقة الفندق وجلست بين الناس .. ولأول مرة في حياتي، طلبت كأسا من الخمر، وتجرعته بسرعة قبل أن أعود في قراري. كنت أريد انتشارا سريعا يسكت عقلي ويخمل وعيي، ويحمل إلى روحي حالة خدر ناعمة. لم يصدر هاني أي رد فعل كان منصتا إلى أبعد حد. فتابع نورالدين
- أتعرف لماذا حدثتك ؟ لأني أعرف أنك لن تخطئ كما أخطأ أحد نزلاء الفندق، حين نصحني قائلا " لا شيء في الدنيا يجعلنا نحبو نحو الثمالة " صرخت في وجهه وقلت

" أنا لا أحتاج إلى نصائحك ! لا أحتاج إلى حلول .. دعني ارتطم بين الجدران .. أعافر مع التيار .. أتأرجح بين تقلب أوتار الزمان.

ضحك هاني، وهو يقول مازحا كي ينتشله من عنق زجاجة الأحزان

- مخطئ من يعارضك في ساعة توترك. ثم أضاف بحنكة
- العتاب يحتاج إلى هدوء أعصاب وتقبل الآراء
- يعجبني سعة صدرك. ضحك هاني، وقال
- كما يعجبني اندفاعك وعنفك.

رن هاتف هاني فنظر في شاشة هاتفه، ثم أسنده على الطاولة، وقال لنورالدين

- صديقك المتصل ؟ لم يعبأ نورالدين، وأبلغه بأن ينكر وجوده. وبعد أن أنهى هاني المكالمة قال
- يقول أنه اتصل بك كثيرا .. وأمرني بالبحث عنك، لأنه يريد عقد اجتماع قبل بداية العام الدراسي الجديد؛ لتجهز افتتاح "مدرسة المعادي".

هز نورالدين رأسه، ولم يعقب. وبعد ساعة من الحديث استعاد فيها كل منهما أحاسيس الماضي، استأذن هاني في الانصراف لارتباطه بموعد. بعد انصراف صديقه أخذ نورالدين يراقب أحاسيسه ومشاعره فوجد أنه يحس بسعادة لامتلاكه صديق وفي مثل هاني.

الصدمة

مع اقتراب بداية العام الدراسي الجديد بأسبوع عقد الصاوي اجتماع يضم هيئة التدريس قبل استقبال التلاميذ، للاتفاق على وضع الترتيبات النهائية. وبعد الاطمئنان على كافة التجهيزات. تم عرض قائمة تحمل أسماء بعض المدرسين الذين سيحظون بحضور حفل افتتاح المدرسة الجديدة، وكان على رأس القائمة اسم يوسف. كلف يوسف من قبل مسؤولي التنظيم بتجهيز كلمة للترحيب بالتلاميذ.

بعد انصرافه من المدرسة وأثناء عودته إلى شقته، رن هاتفه المحمول، وكان المتصل منى عرضت عليه تناول العشاء معا، فوافق يوسف حيث لم يكن له برنامج معين لتلك الليلة. اتفقا على أن يتقابلا في أحد المطاعم المشهورة في الساعة السابعة مساءا، وقبل الموعد بخمس دقائق كان يوسف يدخل إلى المطعم. الإطار العام للمكان هادئ. وفور دخوله

المكان جال ببصره سريعا بين الجالسين، فوجد منى جالسة بجوار النافذة. سلم عليها، وجلس على كرسيه. وبعد دقائق أتى النادل يرص الأطباق.

ابتسمت منى وهي تعقب على نظرة يوسف للنادل

– بما أنني صاحبة الدعوة. ستأكل على ذوقي.

بادلها الابتسامة، وظل يتبادلان أطراف الحديث حتى انتهاء من تناول الطعام، وبعدها ارتشفا الشاي. سألها عن حديثها الذي لم ينفع الهاتف معه.

فقالت كما لو كانت تذكرت شيئا للتو

– صحيح .. أنت أخبرتني بعملك في الغردقة ولم تخبرني بطفولتك.

بدت الدهشة على يوسف وسأل مستغربا

– هل سؤالك يتعلق بالموضوع أم هذه مراوغة لطيفة ؟

– قد يكون تمهيدا .. قال يوسف، وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة هادئة

– من وقت اتصالك حتى اليوم بحثت كثيرا عن شيء يستوجب الحديث مباشرة .. ثم تابع مازحا تذكرت جميع أخطائي .. ضحكت منى وهي تقول

– أنا حقا أعتذر عن ذلك.

- سأحدثك عن طفولتي .. وراح يسرد لها قصته بداية من حادث أسرته مرورا بفترة عمله بالغردقة، وتغاضي عن ذكر أديل وإيثان حتى وصل إلى مرحلة عمله الآن. تأثرت بقصته وقالت في ألم
- لا أعرف بهذا أبدا، ولكن على كل حال .. أنا أحمل سرا على عاتقي. صمت يوسف واعترى وجهه القلق. فأردفت منى
- أديل استشهدت في حادث انفجار باريس.

دق قلب يوسف بعنف شديد، وهو يتذكر فترة حبسه ومدى تأثيرها على مستقبله. قد يتخلوا عنه بسبب ذاك الأمر..

ردد اسم أديل على لسانه قبل أن تؤكد منى نطقها

- نعم أديل التي تواصلت معها، وأرسلت لها تهنئة بدخولها الاسلام.

تحجر لسانه. غص حلقه وجوفه، وانقبض صدره للحظة شعر خلالها بأن ما تعب لأجله قد انقضى واندثر.

- ماذا بك ؟ سألته منى، وهي تُضيق عينها اليسرى. فبدت لهُ أنها تقف على نقطة ضعفه. رد مضطربا
- لا شيء. كانت صديقة عزيزة.
- لم تحدثك من قبل عن نورالدين ؟ أجاب على سؤالها بسؤال
- من نورالدين ؟
- نورالدين الذي نعرفه جميعا.

قالتها بخبث بارد وخز يوسف في قلبه. شعر بالعجز أمام تلك الوحشية المجردة التي تجلت من لؤمها، وتزايد خوفه من احتمالية التطرق إلى إيثان، حتى أنه لم يع بأنها تقصد نورالدين مديره.

فتابعت منى بنبرة ماكرة

- يبدو أنها حدثتك عن شيء، وأنت تريد أن تخبئه. نظر يوسف إلى عينيها للحظة، ثم قال
- أديل عملت معي في الملهى، وطوال هذه الفترة لم يكن بيننا شيء خارج نطاق العمل، ثم انقطعت العلاقة بعدما تركت الغردقة.
- ولكنها تعرف نورالدين وتراسله
- الأستاذ نورالدين رئيس مجلس إدارة !!

أومأت منى بالإيجاب. فواصل بعدما فهم للتو قصدها

- لا .. لا أظن أنها تعرفه .. ثم أين التقت بالأستاذ نورالدين وهي لم تخرج من الغردقة ؟ لا أظن أنهم على تواصل
- أنا تأكدت من تواصلهم
- قد يكون تشابه اسماء .. أوضحت ملامح وجهها بأنها تبحث عن شيء يخص نورالدين، وهذا جعل قلب يوسف مطمئنا بعدم التطرق إلى إيثان. أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها، وثبتت الشاشة على رسائل أديل، وقدمتها له وهي تقول

- هذه نسخة من رسائل أديل، مرفق بها عنوان بريد نورالدين. أمسك بالهاتف وراح يتطلع في صمت، بينما أضافت منى على حديثها سؤال
- هل حدثك نورالدين عنها؟. نظر لها ثم عاد إلى شاشة هاتفها. تغيرت تعابير وجهه، وكأن ملامحه هي من تقرأ. قالت منى وهي تنقر على الطاولة
- لقد استقبلت أديل رسالتين تهنئة في آن واحد. انتبه يوسف ونظر لها وهي تكمل
- أنت ونورالدين. أعطاها الهاتف، وهو يقول لها
- هذه الرسائل من هاتف أديل ؟
- نعم . ضرب كف على كف، وهو يقول محدثا اللاشيء
- كيف هذا؟.. من الواضح أن هناك سوء تفاهم، لا بد أن أجلس مع الأستاذ نورالدين في أقرب فرصة.
- للأسف تعذر الاتصال به، حتى أنه لم يحضر اجتماع الإدارة.

تعرفين عنوانه ؟ سألها يوسف كما لو كان طفل يرتجي

- حاول والدي الوصول إليه، ولكنه فشل .. يبدو أنه تأثر برسائل أديل.
- لا بد أن نفعل شيئا. قالت بنبرة متعاطفة معه
- لا نملك شيئا .. سوى الانتظار. ثم نظرت في ساعة يدها، وأكملت مستأذنة
- سأذهب الآن وألقاك في الحفل.

- إن شاء الله. خرجا من المطعم. عرضت عليه أن توصله بسيارتها، ولكنه اعتذر، وقال لها

- سأنجز بعض المهام. اذهبي أنتِ.

توجهت منى نحو سيارتها بخطوات بطيئة، التفتت خلالها مرتين إلى يوسف الذي مضى حزينا في طريقه.

لم تكن منى ذاهبة إلى مكان محدد بل إلمامها للموضوع ورؤية الصورة كاملة هو الذي جعلها تنهي اللقاء.. تريد التحرك سريعا والوصول إلى نورالدين. اتصلت بوالدها، وأخبرته بأن يوسف هو ابن نورالدين، ولكن والدها صدمها حين أبلغها بأن يوسف استغل أديل في استنزاف أموال نورالدين. ونصحها بالابتعاد عنه حتى تكشف لعبته، وتكون سببا في نهايته... لم تصدق منى ولم تكذب.

مضى في طريقه تائها لا يدري ماذا يفعل؟. ومن أين يبدأ؟. جلس على كرسي بلاستيك بجانب عربة المرطبات والشاي والقهوة. طلب قهوة من صاحبها، و لكنه لم يسمعه فكان مشغولا بمغازلة المارة واستماع أغاني أم كلثوم.. اتصل بفريدة، وأبلغها بما حدث. سمع صوت المتفاجئ، وأحس فرحة الحبيب منها.

وقالت

- خذني للقاهرة أريد أن أقف بجانبك في تلك الظروف.

- أحب وقوفك بجانبي... ولكن ضيق الوقت يحكمني. فقالت بإلحاح

- آتي إليك أنا ووالدي.
- لا.. لا تخبري أحد بالأمر حتى نتبين.
- وأمي زينب ! رد عليها بعد تفكير
- لا أعرف سوف تحزن أم لا، ولكنها ستفرح بكل تأكيد.
- ولماذا تحزن ؟ قالتها فريدة بتلقائية
- قد تتوهم بأنني سأترك قنا، وأعيش مع والدي. فقالت فريدة بسذاجة
- وأنت ستفعل هذا حقا؟ ابتسم رغما عنه، وقال بنفاذ صبر
- أنا قلت ذلك ! ضحكت فريدة وقالت
- لن أبلغها، اطمئن. ابتسم يوسف، وختمت فريدة المكالمة بنصائحها المعتادة.

أتاه صوت الرجل يسأله إذا كان يريد شراب شيء، فطلب منه قهوة، وراح ينظر إلى مياه النيل.

***

كانت تجلس منى مع نورالدين في شقته بالإسماعيلية. لم يكن نورالدين بمفرده بل كان الحزن يسكن معه.

- أخذت عنوانك من السكرتيرة. قالتها منى وهي تنظر إلى وجهه البئس ولحيته الغير مشذبة الذي خالطها البياض والفوضى.

- تفاجأت بزيارتك،فلم أكن أعلم أن والدك مهتم بحضوري لحفل المدرسة بهذا الشكل كي يرسلك أنتِ. ابتسمت منى وهي تسند كوب العصير الذي أعده نورالدين، وقالت مستغلة فكرته في إخفاء سبب الزيارة
- لا يستطيع أبي التخلي عنك.
- والدك له فضل كبير. تعلمين أنني وحيد دون أسرة، واحتاج إلى عمل يلهيني.
- نحن جميعا أبناؤك. قالتها وهي تنظر إلى صور أسرته على الجدران. فقال لها بعد أن رأى نظرها إلى الصور
- هذه زوجتي رحمة.. حب الطفولة.
- هل يكلل حب الطفولة بالزواج !! . ابتسم نورالدين، وقال وهو يتأمل الصورة
- تربينا معا في دار أيتام.. أتذكر أول مرة رأيتها. كنت في سن الثامنة حينها، وكانت هي تصغرني بسنة.. لم يكن لدي تعاملات مع أحد كأي وافد جديد. ولكنها استطاعت أن تجعلني أنصهر مع بقية الأطفال
- كيف أحببتها ؟ التفت نورالدين إليها، ونظر في استفسار. فأردفت منى وهي تضحك
- أقصد متى شعرت بحبها ؟

- هو شعور تولد مع مرور الأيام، وتتبع المواقف، ولكن يظل موقفها حين رفضت شاب ثري أتى لزواجها علامة بارزة في حياة حبنا.
- رفضت شاب ثري في الطفولة ؟ ضحك نورالدين رغما عنه، وقال موضحا
- هذا الشاب تقدم لها في سن العشرين أو أقل بقليل. حينها رفضت رحمة، ورفضها أحدث ضجة وسط صديقاتها. الجميع تساءل عن سبب الرفض حتى أنا رغم حبي لها الخفي، سألتها عن سبب الرفض. وكان سؤالي هو بداية اعترافنا بحبنا لبعض.
- كم هي قصة حب عظيمة. قالتها منى، ثم نظرت إلى صورة يوسف، وسألت عن صاحبها فقال نورالدين
- هذا يوسف ابني. فقدته في حادث الغردقة. أحست مني بتألم ومرارة في نبرات صوته فقالت بعض كلمات المواساة، ثم سألته عن سبب غيابه، فحكى لها على رسالة أديل، وعرفت منه بعض التفاصيل التي أكدت أنه والد يوسف. ولكنها جاهدت نفسها على الكتمان حتي يحين الزمان.

***

اختفاء آخر نسخة من رسائل أديل ونورالدين، جعل منى تعيد التفكير.

من الذي يستطيع أن يصل إلى هاتفها سوى شخص من أسرتها أو إحدى صديقاتها؟ .. من المستفيد ؟ كانت لاتزال نبرات صوت أبيها المرتجفة تشغل تفكيرها حين أخبرته بأمر يوسف ونورالدين. واليوم تكرر إحساسها

بعدما رأت تلعثم أبيها وهو ينفي معرفته بالرسائل. شعرت بأن وراء والدها سرا عظيما.

تساءلت عن السر الذي يخبئه، ولكن وقوفه بجانبها في حادث باريس، جعلها متشتتة التفكير. أقلقتها تلك الهواجس كثيرا، ولم تهتد إلا بمراقبة هاتف والدها. فأصبحت ترى رسائله، وتسمع مكالماته.

اهتز جسدها مثل سعفة، وبكت دون دموع، حين رأت أبيها يتحدث مع سيدة من المفترض أنها زوجته الثانية. لم تخبر والدتها أو تسأل أبيها، ولكنها وجدت رغبة في الانتقام من زوجة أبيها. هاتفت يوسف، وطلبت منه المجيء معها إلى الأسكندرية، فهي لا تستطيع قيادة السيارة في هذه الحالة.

استجاب يوسف لطلبها دون أن يعي ما سيقبل عليه، ولو كان يعلم أنه سيرى والدته لكان أتى حافي القدمين مهرولا.

لم يسألها يوسف عن شيء، ولم تنطق منى بغير توجهاتها بالطريق. يستمع لها في سكون تام، يراقب نظراتها في المرآه. وحين وصلا إلى العمارة التي تسكن بها تلك السيدة. نزلت منى وأبطأ يوسف قدميه قبل أن تستعجله منى في النزول، فلم يكن يريد أن يفرض نفسه عليها. سار خلفها نحو غرفة الأمن، ورأى أحد رجال الأمن يجيب منى بأن السيدة الذي تريدها في الطابق الحادي عشر. كان الحماس والتوتر يظهر في خطوات منى التي هرولت نحو المصعد، وتبعها يوسف وهو يشير إلى رجال الأمن بالشكر. أمام الشقة وقفت منى تستجمع أعصابها المتشتتة، وعدلت من ثيابها، بينما

وقف يوسف عن بعد يتابع منى. يحاول فهم ما يحدث. فُتح الباب بعد لحظات من رنين الجرس.

وأطلت فتاة عشرينية.

- شقة الصاوي ؟ سألتها منى بعد أن تفحصتها بعينيها. فجاء صوت امرأة خمسينية من الداخل يسأل عن الزائر، فأجابت العشرينية بأن فتاة وشاب يسألان عن الصاوي بك.

علمت منى بأن الفتاة خادمة، وليست أختها كما ظنت. خطت منى داخل الشقة دون استئذان، ولم تعبأ بمحاولة الفتاة لمنعها. وبعد أن رأت السيدة أمامها، تسمرت مكانها، ونظرت خلفها، فوجدت يوسف يراقب تصرفاتها، ثم عادت مرة ثانية إلى السيدة.

وهي تردد بصوت خافت

- رحمة .. رحمة أم يوسف ؟ انتصبت السيدة واقفة، وهي تقول
- من حضرتك... أتعرفيني ؟
- رأيتك في الصورة عند الأستاذ نورالدين. كست الصدمة ملامح وجهها، وأضاقت عينيها وهي تقول بتأن
- نورالدين... ثم أضافت وهي تنظر إلى يوسف الذي انهالت دموعه بغزارة وحسرة في صمت، وهو يرى والدته بعد غياب طال.
- لماذا تبكي ؟.. ثم وجهت حديثها لهما،

– هل أنتم من أهل زوجي نورالدين ؟ لم تنطق منى.. فقط تسمرت تراقب دموع يوسف.

– هل تذكرتموني بعد مرور كل هذه المدة. ليس عامًا بل عشرين !!

لم يتمالك يوسف نفسه، وجث على ركبتيه وهو يقول بصوت عالٍ

أمي .. أنا يوسف يا أمي..

في لحظة توقف فيها الزمن، وسكنت كل الموجودات.

وقفت منى والفتاة العشرينية يتابعا المشهد واضعين يديهما على فمهما.

ضغطت رحمة يديها على قلبها الذي انفرط فيه شيء غريب، كاد يعتصر دقاته وهي تستحضر الحادث وآخر ما رأته هي خطوات يوسف إلى محل البقالة. نظرت إلى عيني يوسف البندقية. بكت، ثم بكت صراخا بلون الألم، كأنها أرادت أن تخرج حمم الحزن المتراكم منذ سنين في بركان أعماقها. اقتربت منه حتى تخالطت أنفاسها بأنفاسه وراحت يديها تطوقه، والدموع تنساب من سماء عينيها، لترسم على وجهها الشاحب خطوطا. استسلم يوسف إلى حضنها وهو يستمع إلى قولها الذي غلبه البكاء، فلم يع شيئا غير أنها عاشت حياتها تؤمن بلقائه.

وبعد أن هدأت رحمة سألتها منى عن الصاوي فقالت رحمة، وهي تسترجع الأحداث

– بعد الحادث فتحت عيني، فوجدتني في غرفة بيضاء أظن أنها غرفة العمليات. سألت أين أنا؟ فلم تجب تلك الحسناء التي ترتدي ثياب

الممرضات، وتحدثت بالإنجليزية مع أحد الأشخاص، فعرفت أنها لم تكن بمفردها.. حاولت أن أعيد السؤال، ولكن حديثهم الذي دار بالإنجليزية جعلني أتراجع عن سؤالي. بعدها رأيت الصاوي. أبلغني أننا في لندن، وأنه هو من أتى بي بعدما قام بنقلي من مستشفى الغردقة لضعف الإمكانيات.

فقالت منى وهي تدون بعض الكلمات في دفترها الصغير

- ولماذا نقلك دون غيرك ؟ أجابت بعد تفكير
- لعل معرفته بنورالدين هي من جعلته يهتم بالحادث.
- غريبة !
- ما الغريب في ذلك ؟

اقتربت منى برأسها نحو رحمة.

وقالت بصوت خافت تعرفه كل النساء حين يتحدثون عن شيء مهم وخطير.

- كان من الأولى أن ينقذ نورالدين، أو يبحث عن يوسف. عادت ملامح الحزن إلى رحمة، وقالت بنبرة أضفيت عليها بعضا من الحكمة والوقار
- كيف ينقذ ما هو ليس على قيد الحياة. نظرت منى إلى يوسف، ثم عادت إلى رحمة، وقالت

وهي تخفض رأسها في محاولة أن تحتبس دمعة متأرجحة في مآقيها

- الصاوي من أخبرك بذلك ؟
- نعم... ثم نظرت إلى يوسف، وهي تتذكر رحلات بحثها عنه، وقالت
- بحثنا كثيرا عنك .. دون ملل أو كلل. ثم جددت العناق بيوسف مرة أخرى، وهي تذرف دموع الحسرة، وتتمتم بالحمد والشكر على استجابة دعائها.
- أنا ابنة الصاوي. قالتها منى لتقطع أصوات البكاء. خيم الصمت على المكان، واقشعرَّ جسد رحمة. التفتت إلى منى وتفحصتها، ثم قالت بنبرة هادئة
- ابنته !. هزت منى رأسها، ولم تتمالك دموعها. اقتربت رحمة منها، وهي تربت على كفتها وتقول
- أخبرني بأنه متزوج، ولكنه لم يخبرني بك. يقول إنه لم يكتب الله له الإنجاب.

جاهدت منى على إخفاء الأم الحقيقة المرة وقالت محدثة نفسها بصوت عالٍ

- لماذا فعلت هكذا يا أبي ؟ ردت رحمة متظاهرة بسذاجة متناهية.
- لعل حرصه على زواجنا وتنفيذ وصية صديقه هي من جعلته يفعل ذلك. لم تقو منى على الرد، ولم تتحمل السكوت، فقالت بغضب
- يجب علينا أن نذهب إلى الإسماعيلية. ثم أضافت بنبرة توعد

- حسنا أيها الصاوي، لنري ما ستصنعه الأيام القادمة. حينها أيقنت رحمة وجود نورالدين على قيد الحياة. نظر يوسف في ساعة يده، وأبلغهما بأن الفجر أوشك على الأذان. ولكن غضب منى ولهفة رحمة لرؤيته جعلتهم ينزلان في عجل. انطلاق يوسف بالسيارة، وجلست منى بجواره تمليه الطريق.
- حاولت كثيرا الذهاب إلى الإسماعيلية، ولكن خوفي علي غضب الصاوي منعني. كنت أتحرك يمينا ويسارا كما يحلو لي، ولكن بحيز لا أتعداه.

هكذا قالت رحمة وهي تجلس في الكرسي الخلفي. لم يعقب يوسف، واكتفت منى بالالتفات إليها، ثم إعادة نظرها إلى الأمام. اعتراها الخجل وتأنيب الضمير للتحدث من الأساس.

في الساعة السابعة صباحا كانت ترن منى جرس شقة نورالدين وخلفها يقف يوسف وعلى درجة السلم تلتقط رحمة أنفاسها.

- لا أحد هنا. قالها يوسف وهو ينظر إلى منى التي أمسكت هاتفها، وراحت تجري اتصال. بينما رحمة مالت برأسها حتي أسندتها إلى درابزين السلم.. ثم أغمضت عينيها.. تفكر كيف ستلقاه؟... تتساءل من أعماقها هل تزوج مثلها ؟ قطع تساؤلاتها صوت فتح باب المصعد وظهور الصاوي.

***

علي شط الغردقة يجلس نورالدين يأسا حزينا. لا يعبأ برنين هاتفه. لا يريد الرد على هاني أو منى. يريد استكمال قراءته للقرآن الكريم. وفي نهاية يومه انتبه إلى رسالة من هاني كُتب فيها

" جاء اليوم الذي ترقبته كثيرا، وقلبي ينبض بالخوف والقلق. لا أعرف كيف استطعت أن أقوم بتلك الصفات التي أبغضها ولا أدري من أين أبدأ؟"

من كتابة خيانتي لك، وتسريب تحركاتك إلى شخص كان يطمع في الوصول إلى أهل بيتك. أم من خداعي لك بأني الصديق الوفي.. لم أكن كما ظننت. ولم أدع المثالية كما زعمت، ولكن مارست الخيانة ببراعة. ولعل حادث أسرتك وسماعي بخبر وفاة زوجك جعلني أتوهم بخلع ثوب الخيانة فإن الذي يجري وراءها قد رحلت. ولكن رؤية زوجك بعد أن علمت بخبر وفاتها لم يمهلني.

عرفت أن الصاوي خدعها وبموتك أبلغها... استغل جهلها ووقوفه بجانبها في فترة علاجها. حينها لم أستطع إبلاغك أو الإشارة إليك. ولم أكتف بالكتمان بل ساعدته في نفيك إلى الكويت عن طريق مسابقة خطط لك فيها أن تكسب. وفي عودتك أحس بالخطر حين أخبرته بأنك تريد افتتاح مطعم بالغردقة، فخشي أن تراك رحمة مرة ثانية. فأمرني بأن أقنعك بالعمل معه، ولم نجد أفضل من إنشاء مدرسة خاصة كي تستغرق كل وقتك.

والآن جاء دوري لأكفر عن خطاياي، وأبلغك بأن ابنك وزوجك ومنى تحت رحمة الصاوي. لا بد أن تتحرك بعقلك قبل قلبك.

اجتاحته صدمة قوية لم تتحملها أعصابه الضعيفة. أحس بالعجز وأنه لا يقوى على الحركة.

***

تفاجأوا بظهور الصاوي أمامهم وجها لوجه. حالة من السكون والترقب خيمت على المكان. وبدأ القلق يستبد بهم. تبادلوا النظرات في صمت رهيب وتنهدات خافتة. حلت تقاطيع متهجمة على وجه يوسف، ولعبت نظرات الانتقام في عينيه. وقطعت تأوهات رحمة حبل الصمت.

نظر الصاوي إلى منى، والتحدي يطل من عينيه وعبارته

- أحسنتِ أيتها الصحفية. وقفت منى مصدومة لدقيقة صامتة، ثم قالت ببطء شديد وخفوت
- لا أصدق ما أراه .

التفت الصاوي إلى رحمة التي ابتلت عينيها من فرط الألم، وقال

- هل قصرت معكِ !! . انعقد لسانها.

مر شريط الأيام التي عاشتها فى المستشفى كلمح البصر أمامها. زادت دموعها على خخدها

فأردف الصاوي والدموع ترغرغ عينيه

- فعلت كل شيء لأجلك. منذ أن رأيتك بدار الأيتام وأنتِ بعقلي.

أحببتك وبهذا الحب واجهت أسرتي، ولم أهتم برفضهم وإليكِ تقدمت بمفردي. فخذلتيني وأمام أعين الجميع أحرجتيني. استند بظهره على الحائط، وأكمل

- لم يتوقف حبي لكِ يوما. عشت على أمل أن يتغير رأيك بعد أن تخرجي من الدار، ولكن خبر زواجك صدمني. حينها اجتاحتني رغبة بالانتقام منكِ ومن زوجك. لا أعلم مصدر هذا الشر، ولكن أعلم جيدا مرارة الفقدان.

صرخت رحمة وهي تنظر في أعين يوسف. تحاول أن تكذب الحقيقة أو تبرر كذبتها التي شهدتها شقة الأسكندرية فهي التي بررت أفعال الصاوي بأنه نفذ وصية نورالدين... ينظر لها يوسف وأذنه تنتظر سماع جملة من بين نهر الكلمات الذي تدفق من فم الصاوي " صديقي نورالدين "، ولكن الصاوي خيب آمالهم،

وأكمل باكيا، وهو ينظر إلى رحمة

- لم أستطع نسيانك حتي بعدما تزوجت، ومن الأبناء أنجبت. صمت قليلا، ثم تابع وهو يمسح دموعه
- عشت أراقب تحركاتك.. ذهبت خلفك في كل مكان. حتى في رحلة الغردقة. ذهبت خلفك. صمت قليلا، ثم دار بعينه كما لو كان يتفحصهم وقال
- أتذكر جيدا هذا اليوم بكل تفاصيله. كنت مجهدا، فكلفت السائق بتتبعكم، وذهبت إلى فندق يمتلكه أحد أصدقائي أستريح. وبعد

لحظات من غفوتي رن هاتفي فأجبت بسرعة على سائقي، وسمعت منه خبر الحادث.. لم أعرف كيف وصلت مكان الحادث في أقل من ربع ساعة ولم أع بتصرفاتي؟. تلطخت ملابسي بالدماء وفر صوتي من الصراخ، وتعبت أعصابي من التوتر. كلفت أحد الأطباء بنقلك من المستشفى العام إلى أعلى المستشفيات الخاصة، فنصحوني بسفرك للخارج. أخرج لفافة تبغ، وأشعلها،

ثم قال وهو ينفس الدخان

- وقفت أوراقك عقبة أمام سفرك، ولكن بضخ الأموال دلست الحقيقة، وانتقلتِ من الغردقة في جروحك غريقة.

وقفت بجانبك في لندن بالأطباء، أستغيث، فكنت أراكِ لقلبي خير وريث، ولكنك الآن أثبتي أنني أحمق تعيس.

نظر إلى يوسف الذي يثقبه بنظراته، وقال بحنق

- دخلت بيتي فلم تجد إلا الكرم.. آمنتك على ابنتي. لم أبخل عليك بشيء. حتى بعدما عرفت أصلك لم أفعل شيء يضرك.. كل ما فعلته أنني سرت خلف قلبي دون قيود. نظر إلى منى التي وضعت يديها على فمها، وهي تشهق، وعيناها متحجرتان من الذعر والصدمة، وقال

- لا يلام المرء على خطوات قطعها خلف قلبه. ردت عليه بغضب حريص لكنه مفعم بروح الصدمة

- ولكن المرء يلام على خيانته لصديقه. يلام على خيانة أسرته.. في النهاية لا تبرير للخطأ. صرخ الصاوي في وجهها، فلم يتحمل حقيقة قولها. تنهد واسترد أنفاسه، وقال وهو يضغط على زر المصعد
- سيسير كل شيء كما أريد إن أردتم العيش في أمان. قالها بنبرة تهديد، ودلف باب المصعد. تركهم غارقين في صدمتهم. فقالت رحمة منتحبة
- لم أقبله زوجا إلا بعد معرفتي بوفاة نورالدين، ولم أكن أقبل إلا حينما رأيت منه حبا عظيما، لم يرد أحد عليها، فقالت وهي توجه حديثها إلى منى
- كذبت عليكِ يا منى، واخترعت الوصية حرصا مني على شعور يوسف. خشيت أن تداهمه خيالات تجعلني في نظره من ضمن الأموات.
- لا تقولي ذلك يا أمي. فأنا رأيت الصدق في عينيكِ. وقبل أن يتحرك ليحتضنها. هاجمتهم رجال الصاوي، وقامت باختطافهم واحتجازهم.

***

في أول يوم دراسي. كان يقف الصاوي وبعض أعضاء هيئة التدريس يستقبلون الطلبة بالهدايا والورود.

الوقت الآن هو الثامنة وسبع دقائق، كما تشير الساعة الدائرية التي تؤطر معصم السكرتيرة. توترت من عدم مجيء يوسف. فقد كلفته بإلقاء كلمة في الحفل.

جلس الصاوي كما عُد له في الصفوف الأولى. وبعد خمس دقائق من انطلاق الحفل وصل نورالدين. ساعده أحد رجال الأمن في الوصول إلى مراسم الاحتفال. جلس في الصفوف الأخيرة. كانت قد بدأت السكرتيرة بالمقدمة، ثم قدمت الصاوي لإلقاء كلمته. بدأ الصاوي إلقاء كلمته، وكانت عن " تجديد الطموح وتنمية الأمنيات "

- حقق بعضنا نجاحا العام الماضي، وحصل أعلى الدرجات، وانتقل إلى المرحلة التالية، ولكن هل نكتفي بذلك !! أجاب التلاميذ بصوت واحد
- لا ... فأكمل
- لذلك نحن بحاجة إلى تجديد الطموح..

ثم أكمل بقيت خطبته التي اشتملت على بعض المداعبات الطريفة، ورسم الابتسامة على الوجوه. ثم أنهى كلمته متمنيا عاما دراسيا جيدا لجميع الحضور. انتصب نورالدين من بين الجالسين، وسار نحو المنصة. سرق أنظار الجميع بخطواته المتزنة، وبصره الشاخص نحو الأمام. تراجعت السكرتيرة عن تقديم أحد المدرسين بعدما رأته ثم قدمته. وقف يطل على

الحضور. نظر إليه الصاوي وهو يزدرد ريقه بصعوبة، وتحدث بصوت مرتعش في هاتفه. ثم انتبه على صوت نورالدين،

وهو يقول

– أرحب بأولادي التلاميذ، وأتمنى لهم عاما دراسيا سعيدا. كما أرحب بأولياء الأمور والأخوة الزملاء.

في الحقيقة لم يكن في نيتي أن ألقي خطبة في ذلك الاحتفال. ولكن بعدما رأيت الابتسامة تملأ وجوهكم، تشجعت إلى الحديث معكم. وبما أنني لم أعد كلمة سأضيف على حديث الأخ الفاضل، وأشار إلى الصاوي. الذي ارتبكت نظراته بعدما التقت عيناهما في ثوان دهرية.

عاد نورالدين إلى الحضور بقوله

– قبل أن تبدأ في أي طريق عليك باختيار الصديق.. صديق لا يعرف معنى للخيانة، وأشار إلى الصاوي.

اندهش الجميع، ولكنه لم يكترث، وتابع وهو يشير إلى الصاوي.

– هل تعرف عن الصداقة شيء !

مر يوسف من أمام المنصة وجلس بالصف الأول. نظر الصاوي إليه غير مصدق ما يحدث أمامه، ثم تفاجأ بوجود منى، فوقف ينظر إليها في ذهول، فقال له نورالدين ساخرا

– هل ما زلت صديقا وفيا !

في هذه اللحظة دلفت رحمة الحفل مخترقة التنظيم، وخلفها رجال الشرطة حاوطت المكان. شعر الصاوي وكأن ألف إبرة رشقت جسده، وكست علامات الصدمة وجهه. ولم يقو على الوقوف. ارتمى على مقعده. لم يتمالك نورالدين الوقوف خلف الميكرفون، وأخذ يوسف بالعناق وهو يذرف الدموع ومن حوله التف الجموع. وعلى بعد أمتار انزوت رحمة في أحد الأركان تندب حظها، وتلطم خديها. اقتربت منها منى ثم احتضنتها

تمت بحمد الله

الفهرس

الفراق	1
البداية بعد النهاية	17
الصدفة	33
طارئ	43
النصف الثاني	53
خطايا القلب	79
الضيقة	101
الهداية	109
يسر	123
غموض	151
التعاسة	157
الاختبار	171
الخوف	193
الحادث	215